تأليف جلبرت هايت
ترجمة حسن الجبادي
مراجعة مصطفى طه حبيب



كاتب من اكسفورد

كاتبٌ من أكسفورد

كاتب من أكسفورد

تأليف

جلبرت هايت

ترجمة

حسن الجداوي

مراجعة

مصطفى طه حبيب

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

نشر هذا الكتاب بالاشتراك

مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

إبريل سنة ١٩٦٣

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : جلبرت هايت

ولد فى اسكتلندة ثم اتخذ الولايات المتحدة وطنا له . يشغل منصب أستاذ اللغة اللاتينية وآدابها فى جامعة كولومبيا منذ سنة ١٩٣٨. حاضر فى جامعات أخرى فى أمريكا . له مؤلفات كثيرة ، من بينها « التقاليد الكلاسيكية » الذى اعتبره النقاد والعلماء فريدا فى صفاء التفكير ، ومجموعة أحاديث إذاعية عن « الناس والأمكنة والكتب » ظهرت فى كتاب نال رواجا وشهرة كبرى . أحدث مؤلفاته « فن الهجاء » و« هجرة الأفكار ». من مؤلفاته كذلك كتاب « جبروت العقل» وكتاب« فن التعليم » وهما من الكتب التى نشرتها هذه المؤسسة .

المترجم : حسن الجداوى

حصل على دبلوم التجارة العليا من ليون بفرنسا سنة ١٩٢٠ وعلى ليسانس الحقوق من باريس سنة ١٩٢٥ وعلى معادلة القوانين سنة ١٩٢٧ ثم اشتغل بالمحاماة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٣٠ ثم التحق بالنيابة العمومية. انتخب عضوا بمجلس النواب سنة ١٩٣٧ . ترجم كتبا كثيرة ، من

بينها « الاقتصاد التجارى » و « الإجرام السياسى » ، كما أن له عدة مؤلفات، منها « كيف تكون خطيبا » و « خطرات عن عيوب الحكم فى مصر » نشر سنة ١٩٣٩ . يعمل فى الوقت الحاضر بالمحاماة

المراجع : **مصطفى طه حبيب**

تخرج فى كلية الآداب « قسم اللغة الإنجليزية » بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٤ وعمل فى التدريس والصحافة والترجمة . له عدة مؤلفات منها كتابه عن « شاعر الكون وليام شكسبير » . ترجم خمس مسرحيات لشكسبير هى « هنرى السادس » و « زوجات وندسور المرحات » و« هنرى الرابع » بقسميها و « هنرى الثامن » . يشغل حاليا منصب المدير العام لإدارة الثقافة بوزارة التعليم العالى .

مصمم الغلاف : **محمد سليمان التهامى**

بكالوريوس كلية الفنون الجميلة — قسم الزخرفة ، يعمل مصمم ديكور . صمم عدة أغلفة للمؤسسة .

محتويات الـكتاب

صفحة

القسم الأول : فنون النثر

أضغاث أحلام ١٣

واحد بين بليون ٢٤

الثلوج والنيران ٣٩

نظرة إلى الخلف نحو حاضرنا ٥٣

كتب الحكمة ٦٥

مؤرخ مرموق ٧٩

المرأة والحرب ٩٢

الغريب ١٠٣

المسيحيون والأسود ١١٥

خطاب جتسبرج ١٢٥

القسم الثانى الشعر والشعراء

جنون هاملت ١٣٧

الشاعر والموسيقى ١٤٨

صفحة

خمريات	١٥٩
الساحر العجوز	١٧٤
أستاذ المتناقضات	١٨٦
القسم الثالث الحقيقة والخيال	
فن الهجاء	٢٠٠
سأرنو ببصرى إلى الجبال	٢١٤
سقط المتاع	٢٢٧
متعة جديدة	٢٤٥
فيلسوف الذرة (أبيقور)	٢٥٦
عالم صغير منبسط	٢٦٦
باقة من اللبلاب السام	٢٧٧
نظرات فى العلم	٢٩٢
الهرب	٣٠٤

تمهيد

رغبنى فى ترجمة هذا الكتاب لجلبرت هايت شخصية الكاتب وطريقة معالجته للموضوعات التى عرض لها فى الكتاب ، وأسلوبه فى اختيار الموضوعات ، واستقلاله فى إبداء الآراء التى تعن له .

فهو لا يقيد نفسه بمقاييس النقد الكلاسيكية ، بل يتناول الموضوع ويبدى الآراء التى عنت له بمناسبة ذلك الموضوع ، كأنما يتحدث إلى قرائه حول مائدة طعام أو فى جلسة عائلية . ولا غرابة فى ذلك لأن الكتاب — كما هو واضح من المقدمة — مجموعة أحاديث مذاعة على أمواج الأثير وإن أراد هو لها « أن ينظر إليها باعتبارها مجموعة من البحوث ، لا مجرد إذاعات أثيرية » كما جاء فى مقدمته للكتاب .

وهذا النوع من البحث — فى نظرى — جديد ، لأنه يشجع القارىء على أن أن يفكر لنفسه ولا يجعله أسيراً لما يقرأ ، لأن هايت نفسه يشرك سامعيه — وقراءه — فيما يبدى من آراء ، وتراه يفترض اعتراض السامعين ويشرك نفسه معهم فى هذا الاعتراض ، ثم يحاول أن يفسر — وإن لم يسوغ دائماً — تصرفات من يتحدث عنهم .

وقد ترجمت الكتاب كله إلا بعض فصول استشهد الكاتب فيها بكثير من أبيات الشعر لم يكن من السهل ترجمتها إلى العربية — لا شعراً ولا نثراً — لأن الاستشهاد فى الكثير منها ينصب على اللفظ الإنجليزى نفسه ، لا على المعنى .

وقد رأيت أن أضع أسماء الكتب والمراجع باللغة الأجنبية ، لأننى لا أشك أن هذا الكتاب سوف يدفع الكثيرين من قرائه إلى الرغبة فى اقتناء بعض تلك الكتب والاستفادة من نقد « هايت » لها .

حسن الجراوى

أقسام الكتاب

القسم الأول : فنون الشعر

القسم الثانى : الشعر والشعراء

القسم الثالث : الخيال والحقيقة

أضغاث أحلام

في يوم من الأيام ....

كلمات بديعة . ليست سارة دائماً . ولكنها مثيرة .

في يوم من الأيام وقع حادث لرجل اسمه سبولنر . كان يعبر الشارع فصدمته سيارة أوقعته على الأرض . وتجمع الناس حوله . وبينما هو ملقى على الأرض في انتظار سيارة الإسعاف ، سمع الناس يتكلمون من حوله ، وأحدهم يسأل الآخر «أتراه سيموت ؟» ، كما لو أنه لا يستطيع أن يسمع كلامهم أو أنه غير موجود . وأحس أن تصرفهم غير طبيعي . ثم وصلت سيارة الإسعاف . وحتى — وهو في السيارة مغمض العينين — كان يرى وجوههم تحدق فيه بإصرار .

وطال علاج سبولنر ولكنه شفي آخر الأمر . ومن الأشياء التي كانت تقض مضجعه وهو على سريره بالمستشفى ازدحام الجمهور حوله . كان شيء ما في وجوههم . كانت السرعة التي تجمعوا بها من كل صوب تثير الدهشة ولاشك كما لو ...

وعاد سبولنر إلى عمله بعد أن غادر المستشفى ، وفى يومه الأول بالمكتب سمع ضجة فى الشارع فأطل مستطلعا ، فرأى حادث تصادم ورأى شخصا ملقى فى الشارع والجمهور يتجمع من حوله سريعاً سريعاً . فبادر بالنزول وشق طريقه بين الجموع فوقع نظره على امرأة حمراء الشعر وغلام بوجهه نمش . وتذكر أنه رأى هذين الوجهين يوم حادثه هو . لقد كانا هناك يطلان عليه . كانا هناك .

وما من إنسان يستطيع أن يمضى وقته جريا وراء الحوادث . ولكن أخبارها وصورها تنشر فى الصحف . لذلك اشترك سبولنر فى إحدى وكالات الأنباء وكلفها أن تجمع له صور جميع الحوادث الفظيعة لمدة عشر سنوات : المصادمات والحرائق والانفجارات . وفى كل صورة منها كانت هناك صورة الغلام ذى الوجه الأنمش والمرأة ذات الشعر الأحمر . وطوال السنوات العشر لم يتبدل ثوب المرأة ولا شعرها ولم يكبر الغلام بمقدار بوصة واحدة . إلا أنهما كانا فى كل صورة يطلان على الجسم أو الأجسام المطروحة أرضا .

ووصلت الصور إلى مكتب سبولنر ذات يوم بعد تناوله الغداء . وأخذ سبولنر يفحصها فى دهشة ، ثم وضعها فى محفظته .. ماذا كنت تفعل لو كنت مكانه؟ لقد ركب سيارته قاصدا نقطة الشرطة الرئيسية.

ولكن قبل أن يصل إليها ارتطمت سيارة نقل بسيارته وحطمتها ... وسقط على أرض الشارع لا حول له ولا قوة . و بينما هو طريح الأرض سمعهم يقبلون . الجماهير المتدافعة ... وانحنت وجوههم عليه يختنقون أنفاسه ، و بينهم المرأة ذات الشعر الأحمر وعليها نفس الثوب وفي وجهها نفس التعبير القاسي ، ومعها الغلام الأعمش الوجه . وانحنى عليه جلان تعرف وجهيهما . إنه يعرفهما . لقد كانا دائماً بين المتجمعين . وصرخ فيهم : « لا تحركوني .لا تحركوني » . ولكنهما انحنيا أكثر وحركاه بل وأقاماه فزاد نزف دمه بسهولة . وبكثرة . ثم وقفا ينظران إليه . وسمع صوت صفارة من بعيد . إنها سيارة الإسعاف . ولكنه عرف الآن أن لا أمل له في الحياة . لقد سمعهم يقولون ذلك . وتمتم كلمته الأخيرة : «سأنضم إليكم الآن . سأكون عضوا في جمهوركم ». ثم أغمض عينيه وانتظر مأمور تحقيق أسباب الوفيات الجنائية .

هذا ملخص قصة قصيرة للكاتب الكاليفورني الشاب راى برادبورى سمحت لنفسي أن أقصها عليكم لأنها قصة رائعة ، ولأن راى برادبورى كاتب ممتاز يستحق أن يعرفه الناس أكثر مما يعرفونه ولأنني أريد أن أعدل عن رأى كتبته في كتاب سابق (١) .

---

(١) من عالم لآخر — الناس والأماكن والكتب : مطابع جامعة أكسفورد ١٩٥٣) والقصة لراى برادبوردى بعنوان «الجمهور » من مجموعة «عيد المرافع»

فقد قلت فى دراستى للكاتب الإنجليزى الأيرلندى ك . س . لويس : إن أغلب القصص العلمية فى نظرى محض تفاهات ، حواديت للأطفال لامغزى أخلاقى لها ولا مضمون فكرى لها . وكان من نتيجة ذلك أن وصلتنى عدة رسائل (غالبيتها رقيقة) تبين خطئى وتشير إلى أسماء كتاب روايات علمية يحسن بى أن أقرأها . ومن وقتئذ قرأت عددا ضخما من الروايات العلمية الأصيلة ومن القصص القصيرة . بيد أننى — وأنا أعيد التفكير فيها الآن — لا أجد مفرا من القول إن أغلبها سخافات على نمط حكايات رعاة البقر وحواديت الأشباح الرخيصة والاستكشافات الخيالية عن العالم المفقود ، تجمع بين سقم الخيال وسوقية التعبير . ولكن مع ذلك فإن عددا لا بأس به منها جيد . مضمونها أحسن سبكا . ولغتها أكثر تشويقا من الروايات الواقعية المملة والقصص التاريخية والخيالية المصطنعة التى تقذفنا بها المطابع .

ومع ذلك فقد أخطأنا فى وصف تلك الروايات فى تعريفها . فليس فى غالبية أحسنها إلا القليل من العلم الصحيح . وكل ما فيها أحلام . فنجد مثلا فى قصة خيالية عجيبة عنوانها : «نهاية الطفولة» لآرثر كلارك ، سفن فضاء وغزوا لكوكبنا من سكان كوكب آخر ، ولكن تكوين

سفينة الفضاء وطريقة سيرها ومعلومات الغزاة الغرباء تنبو عن فهم أى مخلوق آدمى . هى إذاً ليست علوما بشرية ، بل هى إلى السحر أقرب. وهذا ينطبق أيضا على النهاية المدهشة لهذه القصة ، فهى نهاية لاصلة لها بالعلم إطلاقا،و إنما هى تعبر عن تجربةصوفية روحية،بل تجربةذات طابع دينى.وقصةراى برادبورىالتى ذكرتها فى بدايةهذا الحديث منقصص الأشباح . وتاريخقصص الأشباحتاريخ قديم يرجع إلى آلاف السنين. فالخوف من الأموات الذين يعودون لمضايقة الأحياء بسبب موتهم ، من مخاوف الجنس البشرى الأولى . و بعض خيالات راى برادبورى تتسم بالمهارة الفائقة ، فيها الفكاهة ، وفيها البشاعة المقبرية ، وفيها تغيرات تدور كلها حول موضوع الأموات الذين ينشرون والأشباح التى تمتص دماء الأحياء .وهذه القصص ليست من « القصص العلمى » ولا هى تمثل اتجاها جديدا ، وليس من الضرورى أن تكون سوقية التعبير،خالية من القيم الأدبية . بل هى — على العكس — ذات ماض طويل عريق . والاسم الذى يجب أن يطلق عليها بحق هو حكايات خيالية . ويرجع الفضل فى إدخالها على الأدب بالولايات المتحدة لكاتب من أبرز كتابنا . إذا قرأت له يوما قصة فلن تستطيع لها نسيانا ، وكان هو نفسه يسميها « حكايات غريبة » . وإحدىهذه الحكايات تروى قصة سائح كان يتجه بمفرده بسفينته الشراعيةمن جاوة

متجها شرقا فتلقفته عاصفة هوجاء وانخلع لها شراع سفينته واصطدمت بسفينة أخرى فى ظلام كثيف لامثيل له ، فألفى نفسه وقد قذف إلى السفينة الأخرى التى حملته إلى المجهول .

كانت السفينة الجديدة عريضة سوداء لها سوار كالأشجار عالية تبلغ عنان السماء الأنبوسية السوداء . وأخذ الرعب من السائح كل مأخذ فانطوى على نفسه محاولا الاختباء فى ذلك المكان المقبض ولم يبرح مكانه إلا رويدا . فوجد نفسه يسير بين بحارة السفينة . ولكنهم لم يكونوا يرونه . وكانوا يرتدون ملابس غريبة أقرب إلى ذكريات الماضى منها إلى ملابس البحارة المعروفة . كانوا يتحركون متثاقلين ويتكلمون بألفاظ خفيضة جاشة كالريح إذ تصفر والأمواج إذ تهدر . وبدوا كبارا فى السن . كبارا بلا حد . وعاش السائح بين هذه الأشكال الكريهة الجنية أياما وأسابيع . ولم يقع نظره طوال ذلك الوقت على شراع آخر . واستمرت السفينة فى سيرها يوما بعد يوم . وليلة بعد ليلة .

وفجأة — بعد أن أخذ الرعب منه كل مأخذ — تلقف السفينة تيار من المحيط يتجه بسرعة متزايدة نحو الجنوب، نحو نهاية مجهولة . . وعجزت السفينة عن التوقف أو الانحراف أو العودة. وتملكه إحساس

قاتل ، إذا وجد نفسه محمولا هكذا بلا حول ولا طول من قوة وحشية لاقبل له بمقاومتها .

وفى مفاجأة مخيفة أخرى ظهرت أمام السفينة دوامة هائلة، وانفراج ضخم كشف عن قاع المحيط تصب فى شلالات لا حصر لها. والتيار المرعب يندفع بسرعة ودون توقف . ولم يجد السائح أمامه إلا لحظات خط فيها كلماته الأخيرة وأودعها زجاجة أحكم إغلاقها : « يا إلهى . إن السفينة ترتجف وتغوص » .

وأحسبكم قد عرفتم هذه القصة البديعة . إنها « المخطوط الذى عثر عليه فى زجاجـــة » لإدجار ألن بو . وهى كأكثر الروايات الخيالية أقرب إلى أن تـكون حلما أو مجموعة أحلام منها إلى سرد أحداث واقعية . وأنتم تعرفون أننا كثيرا ما نحلم بأننا مساقون إلى مصير خطير مجهول، عاجزون عن مقاومته . وتذكرون بعض الأفـكار الغريبة التى تخامر أحيانا المسافرين فى رحلات طويلة ، وإحساسهم بأن الرحلة طالت حتى خرجت بهم من هذا العالم. وتعرفون ولاشك الموضوع الأصلى : خرافة الهولندى الطائر ، أو الملاح الطائر ، تلك السفينة التى استولت عليها الأشباح والتى لابد لها من أن تسير وتسير إلى مالانهاية . وتذكرون أن الموت كثيرا ماشبه فى الأحلام وفى الأساطير بسفينة

مظلمة : معدية شارون التى تحمل الموتى عبر نهر ستيكس إلى باطن الأرض وتلك السفينة القاتمة . كمظلة من القيدوم حتى المؤخرة كرداء جنائزى .

تلك التى أبحر بها الملك أرثروهو يحتضر إلى آفيليون . والمركب الغامض فى صورة بوكلين « جزيرة الأموات » وأكثرها غرابة الباخرة السوداء التى ظهرت فى الحلم للرئيس لنكولن فى الليلة التى سبقت يوم وفاته والتى حملته إلى ظلام مجهول .

وهذه الحكايات الغريبة تنبع من مصادر مختلفة وتغذيها فروع من الروايات الخيالية التى نقرؤها . قصة تحاول أن تروى لنا ما هو حاصل فى العوامل الخارجية وتزعم أنها تروى واقعا إن نجاحها يتوقف على قدرة كاتبها فى أن يجعلها تتفق والحياة التى نحياها ، وأن يجعل من الممكن أن نقيسها ونحققها بمقاييس من واقع تجاربنا فى الحياة . فالرواية الوهمية (وإن روت وصفا لحوادث العالم الخارجى) إنما تروى فى الحقيقة حوادث جرت فى عالمنا . ويرجع استمتاعنا بقراءتها إلى أنها تعيد إلينا ذكريات سابقة فى خفايا نفوسنا . فالرواية تاريخ . والحكاية الخيالية خرافة . حواديت . سحر . أحلام . تهيئات . إننا نعيش فى عالمين عالم خارجى تربطنا به اتصالات مفهومة ، أى دائرة القانون

والجماعة والعمل . وعالم رغباتنا وخيالنا وكثير من جهدنا الابتكارى وانفعالاتنا من حب وكره وكبرياء وخوف . ولكل من هذين العالمين انعكاساته فى الأدب . والعالم الثانى — العالم الداخلى — يتحول — عن طريق الشعر والخيال — إلى فن .

متى أدركنا ذلك استطعنا أن نتذكر الأصول القديمة الرائعة لمثل هذه الخيالات. نذكر منها فى الشعر « البحار القديم » لكولردج و « العاصفة » لشكسبير و «ملحمة الأوديسة » لهوميروس . ويطالعنا فى النثر « بو » وسلفه المباشر الذى كتب « حكايات هوفمان » . وفى أيامنا هذه جون كوليير الكاتب المبدع المتعدد النواحى و أ . إ . كوپارد من أبرع كتاب القصص القصيرة فى العالم ولورد دنسينى المتصوف الأيرلندى الذى أحاط نفسه بالأرواح والجن . وكان عندنا من وقت غير بعيد ألجرنون بلاكوود ، وقبله بزمن قصير الكاتب السانفر انسيسكانى العملاق أمبروز بيرس (أتظنونه لايزال يعيش فى كابوس مدينة فى شمال المكسيك يسكنها الأموات الأحياء ؟) وكتب رديارد كبلنج كثيراً من القصص الخيالية الممتازة ، ومنها اثنتان على الأقل تحملان طابع النبوءات العلمية . وأماط سيتفنسون اللثام عن سر سيكولوجى عميق فى كتابه « الدكتور جيكل ومستر هايد » كما

كشف الكاتب الواقعى الكبير بلزاك عن سر آخر فى كتابه «الجلد غير المدبوغ» . وابتدعت — قبل ذلك بسنوات قليلة — فتاة فى سن الحادية والعشرين هى زوجة الشاعر شيللى ، أقوى شياطين عالمنا الخيالى ، شخصية «فرانكشتين» المخيفة ووحشه المرعب . ومن قبلها «سويفت» بذلك المزيج من الوقائع والخيالات المرعبة بكتابة «رحلات جوليفر» ورابليه وألف ليلة وليلة . . . ومن قبل هؤلاء يمكن أن يرتد البصر إلى الماضى البعيد فى عصر الخرافات والأساطير .

ومتى أعدنا التذكير بهذه الأسماء استطعنا أن ندرك لماذا تبدو لنا الروايات الخيالية العصرية حقيرة ، أو على الأقل مملة . ويرد ذلك لا لأن موضوعها سخيف ، وإنما لأن مؤلفيها لا يحسنون الكتابة ؛ فأسلوبهم عادى أو رخيص ، وأحياناً (كأسلوب هـ . ب . لافكرافت) مفخم . ومع ذلك فأسلوب راى برادبورى جميل موجز مؤثر ، وفيه أحياناً شاعرية . والأمر كذلك بالنسبة لآرثر كلارك فى بعض كتبه على الأقل وتيودور ستيرجن أيضاً . . فإن من متناقضات الأدب أن الكتاب الجيدين أندر من الأفكار الجيدة .

وأخيراً : ماهى الموضوعات الأربعة الرئيسية للقصة الخيالية ؟ إنها كلها أحلام ، وواحد منها كابوس . والكابوس ينحصر فى أن مخلوقات أخرى

مجهولة تتحدى سيطرتنا على عالمنا وتعاملنا كما نعامل نحن الحيوانات . والأحلام تمكننا من أن ننتقل فى الماضى والمستقبل ونزور الكواكب والنجوم ونتحدث إلى الأموات والخالدين . ترى هل هذا نوع من الأدب الهروبى طبعاً ؟ لا . إن لهذه الموضوعات جذوراً عميقة فى النفس البشرية . فمصدر الكابوس معرفتنا التى تكاد تكون محققة بأننا قساة ، وأن واجبنا أن نتواضع . ومصدر الباقى — أى الأحلام — أملنا فى أننا بطريقة ما يمكن أن نقهر الزمن والفضاء والفناء .

واحد بين بليون

بعض الناس — ربما لاحظتم ذلك — يتمتعون بفيض من الجاذبية التي تشدكم إليهم ولو على غير معرفة سابقة ، وتشعركم بأنكم فى حضرة أصدقاء حميمين فعلا . إنكم تذكرون دائماً مزاياهم الحميدة وتنسون خصالهم السيئة ، وتستطيعون أن تعرفوهم بوجوههم حين تلقونهم ، وتظل نغمات أصواتهم عالقة بأسماعكم دائماً أبداً ، تنفذ أساليبهم فى القول والكتابة إلى أعماق تفكيركم ، وتستمتعون بالتفكير فيهم وفى الاتصال بهم اتصالا غير مباشر ، ولو بعدت الشقة بينكم و بينهم فى الزمان والمكان .

لقد تعرفتم إليهم ، إما عن طريق صورة ، وإما عن طريق يوميات أو سيمفونيات أو مجموعة من القصائد والأشعار ، حقاً إن من المستحيل علينا أن نفكر فى ود وحب فى أمثال شو بيرت أو فرانز هانس أو شوسر ، ما من شك فى أن هؤلاء الثلاثة كانوا رفقاء جذابين محبوبين .

إن لى ثلاثة أو أربعة أصدقاء من هذا الطراز ، أصدقاء أعرفهم أصدق المعرفة ، ولو أنى لم أسمعهم قط يتكلمون ، ولم أقابلهم إلا من خلال صورهم وكتاباتهم . أحدهم رجل ضخم بدين وله صوت قوى واضح اسمه سميث ، مضى على وفاته أكثر من قرن .

سميث هذا كان يتمتع بحب الناس جميعاً له ، وكان ذائع الصيت ، وكان المثقفون الباردون القساة والأرستقراطيون والإنجليز المتغطرسون يحبونه أيضاً . وربما كانت خير شهادة فى حقه أنه كان محبوبا حتى من من أهله . تزوج امرأته الشابة وهو خالى الوفاض ، ليس له أى مستقبل ظاهر ولا سند إلا قوته الطبيعية من صحة ، وسلامة جسم ، وخفة دم. وبعد الزواج مباشرة جمع كل ما يملك ؛ وهو عبارة عن ست ملاعق من الفضة ، ورماها فى حجر زوجته وقال لها « هذا يافتاتى السعيدة كل ما أملك . » ربما خطر لها أن به خبلا ، ولكنها عرفت مواهبه وعاشت معه سعيدة طوال خمس وأربعين سنة. وبعد موته كتبت تقول عنه لأحفادها :

« إن عقلا راجحاً كعقله، وكفايات متنوعة ككفاياته ، وشجاعة وجرأة فى حب الحقيقة واندفاعاً فى حب وإسعاد الآخرين . . . كان

لابد لها من أن تشق طريقها وسط الصعاب وتكسب لصاحبها الشرف والتفرد » .

ثم أضافت بخط ثلث رسمت تحته خطاً عريضاً ...

وقد فعل

ليحيي سميث .

كان اسمه الأول سيدنى . وكان كاهناً إنجليزيا حراً . ولدينا من الأسباب ما يؤكد أنه كان من أخف الناس روحاً . ولا شك أنه كان أظرف من حمل اسم سميث . وما هم بالقليل بين بنى الإنسان بما فيهم « رد » و « ه . ألن » .

ولد سيدنى سميث عام ١٧٧١ لأب غنى ولكنه غريب الأطوار . عاله حتى بلغ العشرين ، ثم لم يفعل له شيئاً إلا مضايقته بخطابات تهديد ومطالبات بنقود . فقد كان شخصية تصلح لتحل فى إحدى روايات ديكنز . ألحق سيدنى بمدرسة من أحسن مدارس إنجلترا « ونشستر » وكلية من أفضل كليات أكسفورد « نيو كولدج » وسمعة هاتين المدرستين فى تلك الأيام أنهما تخرجان نوعا من الشبان

المستقيمين الصريحين الصامتين. فإما أن تكون المدرستان قد تغيرتا ، وإما أن سيدنى كان استثناء صارخاً .

وبعد تركه الكلية قاسى من صعوبة الحياة . كانت له مواهب وعلم ، ولكنه كان بلا مال . ورفض أبوه أن يمده به . لقد كانت إنجلترا فى تلك الأيام تتكون من ثلاث طبقات : الطبقة العاملة ، والطبقة المتوسطة من التجار والصناع ، والطبقةالأرستقراطية . ولم يكن سيدنى ينتمى لأية طبقة منها . مجال العمل فى هذه الأيام فسيح أمام خريجى الجامعات المتمرنين الذين لا مال لهم — سواء هنا أو فى إنجلترا — ولكنه — فى تلك الأيام — كان ضيقاً . فكر سيدنى سميث فى أن يشتغل بالقانون ، وكان نجاحه يكون عظيما لو فعل . ولكن المحاماة فى ذلك الوقت لم تكن مضمونة العاقبة ، ولم تكن مناط الشرف فى بعض الأحيان . لذلك اختار الكنيسة التى لم تكن تحط من مكانة أتباعها ، ولكنها تتطلب اتباع أنظمة قاسية . ونجح فيها ؛ فقد بدأ عام ١٧٩٤ كاهناًفقيراً ، وانتهى عام ١٨٤٥ رئيساً دينياً غنياً : راعياً لكاتدرائية القديس بول . ومع ذلك فلم يواته النجاح إلا متأخراً . فقد أمضى السنوات التى كان يجب أن تكون أكثرسنواته

إنتاجاً — فيما بين الثلاثين والخامسة والخمسين — فى كنائس صغيرة بقرى نائية كما تبدو لنا قرية فى أوزاركس فى هذه الأيام . وكان عليه أن يزدرد طموحه ، ويبذل جهوداً تفوق الطاقة ليدخل السعادة على أسرته ويقيم أودها . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير . ولكنه استطاع تحقيقه . روى أحد أصدقائه أن زوجة سميث وأبناءه كانوا لا ينفكون من الضحك لساعتين أو ثلاث كل يوم بتأثير روحه العالية المنقطعة النظير . كان يؤلف النكات المضحكة عن فقره. سألته إحدى السيدات ذات مرة عن سبب عدم احتفاظه بغزال فى حديقته (غزال كما يفعل الدوق) فأمسك بحماريه الصغيرين وثبت فوق رأسيهما قرنين . فأما إذا كان غزالا السيدالمحترم القسيس سيدنى ينهقان من وقت لآخر فذلك لأنهما من فصيلة خاصة . وكان يعلق البرتقال فى أشجار حديقته ليخلق فيها جو حدائق الأغنياء .

وكتب كثيراً فى تلك الأيام . كان يقوم بانتظام بنقد الكتب فى مجلة ظهرت حديثاً « مجلة أدنبره » وكانت تدفع له أجراً مجزياً . وساعد ذلك على نشاط عقله . كما نشر مجموعة ممتازة من رسائل بغير توقيع تحض على التسامح مع الإنجليز الكاثوليك ، كما ألقى خطاباً أو خطابين كان لهما أثر فعال فى تأييد آراء الأحرار السياسية .

ولـكن ذلك كله كان مجرد الدهليز . أما الأنغام التالية فهى المهمة . لقد كان سيدنى سميث من أبطال الفـكاهة النادرين . كان فـكها من جميع الوجوه . يتقن فن النـكتة الشعرية . واسع الخيال يتلاعب بالألفاظ . و يستجلب الضحك بحركات وجههوجسمه . و يقلد و يسخر . وهو فى ذلك كله لا يقاوم . فملـكة « التراجيدى » المشهورة سارة سيدونز -- النفور الرزينة فى المجتمعات — سيطرت عليها روح سيدنى سميث المرحة من أول مقابلة حتى انتابها الفواق « الزغطة » من كثرة الضحك واضطروا إلى حملها إلى غرفة مجاورة حتى تسترد هدوءها . وحدث لمحام اسكتلندى فيلسوف ـ سير جيمس ما كنتوش ـ أن تلقى وابلا من نـكات مما اضطره للضحك حتى استلقى على قفاه فوق الأرض بلا حراك وكم أوقف سميث حفلة لأن الضيوف جميعا كانوا يضحكون بدرجة لاتسمح لأى واحد منهم بالـكلام . وتجعـل الخدم يستنـدون إلى الحائط وهم يقهقهون و يمسحون الدمع من أعينهم من شدة الضحك . وكـان إبراهام لنـكولن والملـكة فيـكتوريا مولعين بجمع أقواله و يودان لو استطاعا أن يقابلاه . وأنا وكل واحد منا يود لو فعل . ومن المؤلم أنه حين بدأ نجم سيدنى سميث يتألق لم يعد أحد يذكر ربع المأثور من أقواله ،

فما لدينا منها الآن ليس إلا بقية من وليمة زاخرة . وفيها مع ذلك كفاية ممتعة .

ويصعب أن نرتب نكاته من غير أن نبترها ونقضى على بعضها . ولكن الكثير منها بدأ بفكرة منطقية ارتفعت حتى بلغت حدود التناقض فى عالم المنطق العالى . ذكر أحدهم أمامه أن شاباً ينوى الزواج من سيدة بدينة مسنة ، فقال سميث :

« يتزوجها ؟ مستحيل . إنك تريد أن تقول يتزوج جزءاً منها . إنه — بمفرده — لا يستطيع أن يتزوجها كلها .

إنها لا تكون حالة زواج اثنتين بل حالة تعدد زوجات . إن واجب القضاء التدخل . إن فيها ما يسد حاجة زواج أبرشية بأكملها . رجل واحد يتزوجها ؟ يا للفظاعة . إنك تستطيع أن تملأ بها مستعمرة . أو تعقد معها جمعية . وقد تقوم بنزهتك الصباحية حولها . بشرط وجود عدد من المقاعد لتستريح وأن تكون فى أتم صحة . أو لعلك تقرأ قانون منع التجمع وتفرقها . وبالاختصار يمكنك أن تفعل بها أى شىء إلا أن تتزوجها » .

إن هذا ليس قسوة ولـكنه تهريج .

وحين تحـدث شخص آخر عن سيدة رشيقة وأنيقة فى عقدها الرابع قال سميث :

« إنها حين تظهر فى مكان ما سرعان مايزدحم بالضباط وإن لم يـكن هناك معسكر على مدى اثنى عشر ميلا » .

وشبه الزواج بشقى المقص المتصلين « لا يمـكن فصلهما وإن تحركا فى اتجاهات مضادة ، ولـكنهما ينزلان العقاب بـكل من يتدخل بينهما » . وله أقوال جيدة عن الأكل والحمية . فقد كان الإنجليز فى تلك الأيام يسرفون فى الأكل .

نصحه الطبيب بأن يمشى كل يوم على معدة خالية . فقال سميث: حسناً، وعلى معدة من ؟ . ولما ألزم باتباع نظام قاس قال إنه يود أن يتناول جناح فراشة مشوياً . وله أقوال تضحك ولـكنها حكيمة عن الأكل الدسم كقوله :

« يتعشى صديقى متأخراً . يتناول حساء مركزاً ولا نجوست وكعـكة كبيرة ويذيب ذلك كله بالنبيذ . وأزوره فى اليوم التالى

فيقول لى : إنه قد اعتزم بيع بيته فى لندن ليقيم فى الريف ، وإنه قلق على صحة كبرى بناته، وإن مصروفاته تزداد ساعة بعد ساعة ولا ينقذه من الخراب إلا الانزواء فى الريف . ومصدر هذه الأفكار كلها اللانجوست . . ولكن بمجرد هضمه له تشفى الابنة وتتحسن الحالة المالية وتتبخر فكرة السكن فى الريف . وبمثل هذا كثيراً ما قضى الجبن المقلى ، على صداقات قديمة ، وأدى اللحم المملح الكثير التوابل إلى الانتحار » .

وكانت سخرية سيدنى سميث تمتد إلى البلدان الأجنبية . فلما أوفد مبشر إلى نيوزيلندا بين السكان المتوحشين نصحه سيدنى بأن يدعو الرؤساء من أكلة لحوم البشر فى بيته ويقول لهم : « إننى آسف أنه لا يوجد على مائدتى مايناسب أذواقكم . ولكنكم تجدون الكثير من لحم القسس البارد ورجال الدين المشويين فى البوفيه» . وأضاف إنه إذا انتهى المدعوون إلى التهام البطريرك نفسه فإنى « أرجو مخلصاً ألا يوافق ذوقهم » .

وقضى فى شبابه مدة فى اسكتلندا . ومن بين أصدقائه الخلصاء عدد من الاسكتلنديين . وهو القائل إنه لابد من عملية جراحية لإنفاذ النكتة إلى رأس الاسكتلندى . وهو الذى تنبه إلى ماتجدونه — أنتم وأنا — إذا ذهبنا إلى اسكتلندا وتحدثنا عن برودة الجو .

« لا توجد أمة تختزن كمية كبيرة من طيبة القلب كالاسكتلنديين. أعصابهم تحتمل كل شىء إلا الطعن فى وجوههم .

إنهم ليودون أن يقنعوك أن الفواكه تنضج فى أرضهم . وأقول فى الحقيقة إننى أكلت عندهم — فى صيف شديد الحرارة — كمثرى تصلح للتخليل . والتاريخ يحدثنا أنه فى حصار بيرث . . . استعملوا خوخهم بنجاح بدل قنابل المدافع » .

وقد لاحظ أشياء أخرى لم أعرفها إلا من ج . م . بارى كقوله عنهم :

« إنك تجدهم يرتبون الطعام فى أطباقهم حسب الجهات الأصلية الأربع : « ساندى ! ضع قطعة اللحم إلى الجنوب . وانقل قطعة الرأس إلى الشمال الغربى »

وكان سيدنى سميث لا يرحم الإنجليز من سخريته وحكمه :

«مامن شىء يستمتع به الإنجليزى أكثر من سعادته بعبوسه .... ولا يرجع ذلك لا لأنه يحتقر الكلام . ولكن لأنه ليس لديه مايقوله ... لقد ظل أسلافه محرومين من الذكاء ستمائة أو سبعمائة سنة لا يرون إلا الضباب ... والضباب لا عقل له . وإذا لم يكن لدى الإنجليزى ما يبيعه أو يشتريه أو عمل يؤديه فإنه يفضل الوحدة ويمضى وقته محدقا فى النار المشتعلة فى مدفأته .

وكان له فى النساء رأى رقيق نفاذ .

« النساء لا يستطعن مجابهة الخطر إذا أحيط بالضجة والدخان والصياح . ولكنهن فى جميع أنواع الفزع الهادىء أصمد فلسفة وأمتن من الرجال .. ضع امرأة فى قارب وسط بحر هائج واجعل ستة أو سبعة من الرجال يحدثون ضوضاء قدر طاقتهم ، فإنها تصبح فى حالة احتضار لامثيل له . ولكن اطلب من السيدة نفسها فى مساء يوم صاف

فى الصيف والطبيعة كلها استرخاء أن تشرب كأسا من السم لمصلحة تعود على زوجها وأبنائها فإنها تتجرعها كما لو كانت كأسا من الشاى الأخضر ».

وأبصر سميث ذات يوم امرأتين تطلان من نافذتين متقابلتين فى أحد شوارع لندن وتتبادلان السباب فقال :

« إنهما لن تتفقا لأنهما تتجادلان من قاعدتين مختلفتين » .

وكان قادرا على التنكيت حتى فى أشد الموضوعات جدية كالموت بالإكراه مثلا . قام ذات مرة بحملة لإجبار السكك الحديدية على ترك أبواب العربات دون إغلاق خشية وقوع حادث يعقبة حريق . ونجحت حملته ، ولكنه قال: إنه لو لم يستجب مديرو السكك الحديدية لطلبه لكان قد صورهم ينظرون بغبطة إلى قطار محترق . . بالعربة الأولى دوق مشوى ... و بالثانية قسيسان مطهوان بعرق الحلة و بالثالثة ثلاث سيدات من الطبقة العليا مشويات . . . وبالرابعة محامون مقليون على طريقة مانتنون . و بالخامسة مدرس نحو عائد إلى بيته ورجلاه

تطلان من النافذة كفطيرة محشوة بالحمام . . و بالسادسة امرأة بدينة استوت أكثر من اللازم ... و بالسابعة استكلنديان ميتان ولكنهما لم ينضجا تفوح منهما رائحة حامض الكبريت » .

وذاعت شهرة سيدنى سميث لسنوات طويلة بسبب فقرة واحدة من خطاب ألقاه فى تأييد الأحرار عندما كان مجلس اللوردات يعارض قانون الإصلاح السياسى ، شبه فيها محاولة الوقوف فى وجه الإصلاح بالعاصفة التى اجتاحت مدينة سيدماوث بمقاطعة ديفونشير :

« فقد ارتفع المد إلى درجة لاتتصور ، وعلت الأمواج أسطح المنازل . وأصبح كل شىء مهددا بالفناء . وفى وسط هذه العاصفة الهوجاء الفظيعة رأى الناس السيدة بارتنجتون التى تسكن بجوار الشاطىء أمام بيتها مقطبة الوجه تعصر ماء البحر وتدفع المحيط بقوة . . ولست بحاجة أن أقول لكم إن المعركة لم تكن متكافئة . لقد انتصر المحيط على السيدة بارتنجتون . لقد كانت قادرة على مقاومة الوحل أو البرك ولكن ما كان لها أن تتعرض لعاصفة هوجاء » .

و بعد مضى خمسين سنة كان أحد الذين استمعوا إلى هذا الخطاب لا يزال يذكر سيدنى سميث وهو يمثل السيدة العجوز تدفع البحر بمكنسة كبيرة فى غضب وإصرار . وانتهى الاجتماع بضحكات استمرت طويلا وهتافات سارة .

لقد أعيد نشر خطابات سميث أخيرا فى مجلدين . إنها تنقل لنا صورة مشوقة لحياته وحياة بريطانيا فى أوائل القرن التاسع عشر. ولكنها تتسم بالرزانة أكثر مما كنا نتوقع . وكثيرا ما تكشف عن رقة قلبه ، كما فى قوله لصديقه جيفرى :

« إن مواطن السعادة متباينة غامضة ... ولكننى كثيرا ما لمحتها بين الأطفال الصغار .. وبجوار المواقد وفى بيوت الريف أكثر من أى مكان آخر » .

يذكرنى سيدنى سميث من عدة نواح بثلاثة آخرين من رجال الدين جميعهم سريعو الخاطر لماحون : أحدهم القس النمسوى إبراهام اسنكتا كلارا الذى كان يحشو عظاته بعدد من النكات لا يتصور إلا فى فينا ، والثانى لورنس شتيرن ، والثالث نائب المطران الذى كتب حكايات للأطفال بينما كان يتجه تفكيره إلى السياسة العليا أعنى جوناتان سويفت . ولا أشك فى أن أربعتهم الآن يتبارون فى تبادل النكات

فى ملحق خاص بهم بجوار الجنة . وإنى لأتصورها نكات مقتضبة قوية من سويفت، وفيضا من خفة الروح النمساوية من إراهام، وسيلا من الضحكات من شتيرن ، يغطيها كلها طوفان من سرعة خاطر سيدنى سميث يتلألأ وينثر الرذاذ كشلالات نياجرا من الشمبانيا بدل الماء .

G. Bullet, "Sydney Smith" (Joseph, London,1951).
H. Pearson, " The Smith of Smiths " (Hamilton' London, 1934).
G. W. E. Russell " Sydney Smith " (Macmillan, London, 1905).
N. C. Smith, " The Letters of Sydney Smith (Oxford, 1953).

الثلوج والنيران

تتطلب الهجرة إلى أرض جديدة شجاعة : أن يـترك المرء داره ويتعرض للفقر والجوع ليكافح فى جو غريب ، ويحارب السكان الأصليين ، فإن لم يوجدوا صارع المهاجرين الجدد اليائسين الذين لا تعرف الرحمة سبيلا إليهم . ولا بد مع الشجاعة من توافر الحـكمة . إذ لا بد من وضع أنظمة جديدة إذا أريد للإقامة أن تطول . وإنشاء قوانين ومدارس ومؤسسات ثقافية واجتماعية . ليس يكفى مثل هـذا المهاجر أن يكون مزارعا أو صيادا بل يتحتم عليه أن يصبح لحد ما رجل سياسة وإدارة . وأن تصبح امرأته شبه طبيبة ومدرسة ، وأن يصبح الاثنان من المخترعين . ولا ينجح كل استيطان . فلا تزال هناك أقطار خاوية أو نصف مأهولة . ولـكن قراءة تاريخ هجرة ناجحة وكيف استطاع البلد الجديد أن يخلق سكانا جددا يسكنونه قراءة ممتعة مدهشة .

كان هذا هو شأن المهاجرين الأول لأمريكا الذين استوطنوا

فيرچينيا . ولكن توجد حكاية سبقت هذه المغامرة أقل شهرة منها في أنحاء العالم ، ولكنها أنتجت أدبا أفضل . تلك هي حكاية أيسلندة . إنها مكان قصي ناء — جزيرة من مقذوفات البراكين — في أقصى شمال الأطلنطي أكبر من أيرلندا تزخر بالبراكين . اكتشفها الاسكندينافيون حوالي عام ٨٥٠ ، وكان ذلك أيام عهدهم الزاخر حين قادتهم خطواتهم حتى القسطنطينية شرقاً وماساشوستس غرباً . وغزوا أيرلندا ، وأزعجوا اسكتلندا ، وأقاموا في إنجلترا واحتلوا نورمانديا . وقد كانت أيسلندة منذ نحو ألف سنة آهلة بالسكان في طريقها لتصبح جمهورية من أقدم الجمهوريات الغربية . كانت غالبية المهاجرين من النرويج . وكان بينهم سلتيون أيضاً من الجزر الاسكتلندية ومن أيرلندا . عاشوا حياة قاسية ولكنها ممتعة ، أنتجت رجالا أشداء ، ونساء باسلات ، وكتباً نفيسة .

وأنواع الكتب التي تروى تاريخ أيسلندة كثيرة من شعر وتاريخ وأساطير . وأحسنها وأندرها وأكثرها شهرة الساجة . والساجة هي حكاية — وليست خيالا — حكاية حقيقية لرجل مشهور ، أو أسرة قوية ، أو حادث درامي . فبمجرد أن يموت البطل يجمع كتّاب الرواية الحوادث البارزة في حياته وينسجونها في رواية مستمرة يروونها من الذاكرة في

الحفلات كما كان يفعل رواة الغال والشعراء الهوميريون . وقد بدىء في كتابتها في حوالى عام ١٢٠٠ ميلادية . وبقى منها — حتى هذه الأيام — ثلاثون أو أربعون ساجة . إنها تنقل إلينا صورة غنية فاتنة لحياة المهاجرين بانفعالاتهم العنيفة وقسوتهم الوحشية وما ينطوون عليه من شهامة وتصميم وتدرجهم نحو التقدم الثقافى وكيف انتقلوا من الفوضى إلى النظام ، ومن العنف الوحشى إلى احترام القانون ، ومن الوثنية إلى المسيحية ، ومن مغامرات القرصان إلى مثابرة الرجال المفكرين. بل إن الإنسان ليستطيع أن يقول بحق من جنون البدائيين المتوحشين المطبق إلى سلامة عقل المتمدينين.

إن الساجات الايسلندية تشغل رفين عريضين بمكتبى . وأنا لم أقرأها كلها وقليل من فعل ذلك باستثناء المتخصصين من أمثال ك.ب. سنو أستاذ جامعة كمبردج الظريف الذى كتب كتابه « الأسياد» فهو يحفظها كلها عن ظهر قلب ، وقد رسم خريطة كبيرة بارزة تبين مواقع أعمال الأبطال الباهرة . ولكننى قرأت بعضها بما فيها خيرها ، وأحب أن أعيد قراءتها . إنها — فى الغالب — مترجمة ترجمة حسنة لأن لغتها — فيما عدا بعض الفقرات الغامضة فى الشعر مكتوبة بلغة بسيطة

قريبة من لغتنا ووقائعها صريحة . والروايتان المفضلتان عندى هما حكاية رجل هائل خارج على القانون « جريتيرالقوى » وحكاية سياسى عاقل رزين « نيال المحترق » . وقد سمى كذلك لأن عدوه أحرقه فعلا فى بيته .

ولا شىء يعطينا فكرة حقيقية عن أسلوب الساجة واستقامة وشجاعة الرجال والنساء الذين أوحوا بها من نقل منظر من مناظرها الرائعة . لقد حوصر نيال فى بيته الريفى المنفرد . ولما عجز خصومه عن اقتحام المنزل أوقدوا فى سطحه وأبوابه النيران وسمح رئيسهم — فلوسى — للنساء والأطفال والخدم بالانصراف ثم صاح بنيال نفسه .

قال له فلوسى : « إنى أسمح لك ياسيد نيال بمغادرة المنزل ؛ إذ لا يليق بك أن تحترق بداخله » .

وأجاب نيال : « لن أبرحه لأننى كهل لا أصلح للأخذ بثأر أبنائى ، ولكننى لن أعيش فى العار » .

ثم قال فلوسى لزوجة نيال « برجتورا » : « اخرجى أنت ياربة البيت لأننى ، لا أريد مهما كان السبب أن تموتى محترقة « داخل الدار » .

وقالت برجتورا : « لقد أعطيت لنيال وأنا صغيرة ووعدته أن نتقاسم نفس المصير »

وعاد الاثنان إلى داخل الدار .

وسألت برجتورا زوجها: « ماذا نفعل الآن ؟ » فأجابها نيال : « نأوى إلى فراشنا ونستلقى عليه فإننى بحاجة إلى «الراحة » .

ثم قالت للغلام ثورد : « أما أنت فستخرج لأننى لن أتركك تحترق فى المنزل ».

وقال الغلام : « لقد وعدتنى ياجدتى ألا نفترق ما رغبت فى البقاء معك . والذى يبدو لى أن أموت معك ومع نيال خيراً من أن أعيش بعدكما » .

عند ذلك حملت الغلام إلى فراشها وتحدث نيال إلى رئيس خدمه: « والآن أريدك أن تتعرف مكان رقادنا وكيفيته لأننى أنوى ألا أتحرك بوصة واحدة. وسواء احترقت أو أصبحت فحماً فستستطيع أن تتعرف مواضع عظامنا ».

وتحقق سكارفيدين من كيفية نوم والده وكيفية خروجه ثم

قال : « لقـــد ذهب والدنا لفراشه مبكراً وهذا ما ينبغى لأنه رجل مسن » .

وعندما تقرأ إحدى هذه الساجات لأول مرة تشعر بالارتباك . ومن الغريب أنها الصفة التى تحببها للأيسلنديين . ذلك أنها تسرد الأنساب بتوسع . إنها تذكرك بزيارة إحدى ولايات الجنوب حيث كل واحد يتصل بصلة القرابة بالآخرين و يتابع نسبه إلى الجيلين التاسع والعاشر . كذلك كان أبطال الملاحم أوائل الأسر فى أيسلندا وخلفاؤهم يحبـون أن يسمعوا عنهم و يتابعوا تحركاتهم وزيجاتهم وخصوماتهم ومنفاهم ومغامراتهم . وهـكذا تجد نفسك مضطـراً للخوض فى عدد من فصول الـكتاب كلها عبارة عن شجرة أنساب قبل أن تصل إلى موضوع الرواية الرئيسى . وفى هـذا بعض الإزعاج ولـكنه يعطيك إحساساً قوياً بأن الرواية حقيقية .

والأمر الثانى الذى يلفت النظر هو قوة إرادة الأشخاص وشجاعتهم الفائقة ، الرجال والنساء منهم على السواء . فقليل جدا من الجبناء عبروا شمال البحر الأطلنطى الأشيب إلى أيسلندا ولم يولد منهم فيها إلا أقل من القليل . كانوا رجالا يجمعون بين الريادة والقرصنة . يزرعون

الأرض أحياناً لبضعة فصول ثم يركبون سفنهم ليسطوا على شواطئ أوروبا ويعودوا أكثر مالا ونشاطاً . أو يموتوا فى المعركة تاركين جلودهم لتزين بها إحدى كنائس الإنجليز . فالحكايات كثيرة عن قسم يقطعونه على أنفسهم أو قرارات يتخذونها فى صمت ثم يحافظون عليها سنين طويلة متحملين المعارضة والآلام . كل إنسان تواتيه بعض الشجاعة فى بعض الأحيان . ولكن رجال الساجة كانوا يعجبون بالشجاعة التى تتطلب الجهاد الطويل المرير فى ظروف مخيفة وخاصة الشجاعة التى يبديها الإنسان أمام خصوم كثيرين وفقدان الأمل فى الغلبة . وترينا بعض الحوادث الرائعة فى الساجة رجلا شجاعاً يواجه الموت بنكتة لاذعة أو بحركة قوية متزنة تدل على أن قلبه الشجاع لاينخلع ولايعرف الهزيمة . أصيب شاب منهم فى إحدى الرحلات الطويلة بدمل فى قدمه ولما وصل إلى البردعى ليقدم إلى إيرل ايريك الواسع النفوذ أبى أن يعرج فى مشيته برغم أن الدمل كان يفرز قيحاً ودما عند كل خطوة . وسأله الإيرل عما به فقال جونلاج إن ببطن قدمه دملا . وقال له الايرل : « وأنت مع ذلك لاتعرج ؟ » فأجاب الشاب : « لن أعرج مادامت ساقاى بنفس الطول » . وبهذا العمل

الحربى أثبت أنه لايقل عن أى إنسان آخر وتحدى الايرل ضمناً وتغلب عليه .

وحين تقرأ ملاحمهم يدهشك طول صمتهم . فكلما كان الرجل أو المرأة عظيما فى أيسلندا قل كلامه ، (بعكس مانراه عندنا) . إنهم يفكرون طويلا وفى اللحظة الحرجة ينطقون بجملة قوية فيها فصل الخطاب ؛ جملة ظلوا شهوراً يتخيرونها ويختزنونها ، جملة بطيئة هادئة ولكنها مشحونة قوة . حاصرت جماعة من خصوم البطل « جونار » بيته . وتسلق أحدهم البيت يلتمس طريقا للدخول وطعنه « جونار » من النافذة بخنجر فسقط . وسأله زملاؤه : « هل جونار بالبيت ؟ » فكان جوابه . « ابحثوا بأنفسكم ، فالذى أعرفه أن خنجره هناك » . ومات . وقد يلتزمون فى بعض الأزمات الصمت وهو أبلغ . وكما قال جريتير : « مامن صامت يبدو أحمق » . ولما سمع « هفتسرك » أن أباه مات ميتة فظيعة فى حفرة غاصة بالثعابين كان مشغولا بلعبة أشبه بالشطرنج . ظل صامتا ولكنه ضغط على القطعة التى كان ممسكا بها بشدة حتى برز الدم من أطراف أنامله . فإذا استمعنا إلى تلك الجمل المتجهمة ونظرنا إلى ذلك الصمت الرهيب لاننسى أن

أيسلندا بلد شتاؤه طويل وثلوج جباله لا تنفد وبراكينها تنفث الدخان من وقت لآخر ثم تنفجر بقوة وبطء .

وصفة أخرى لرجال الساجة هي قوتهم البدنية وجمال أجسامهم . فالملاحم تروى مجهودات جسمانية هائلة وأعمالا لا تكاد تصدق ما لم تقارن بطريقة حياة بعض الشعوب البدائية كالزولو وهنود أمريكا . لقد كان الرجال يصارعون ويسبحون ويركضون ويحملون الأثقال فى قوة وعنف . وكانوا والنساء يتمتعون بجمال أخاذ . وإنك لتشعر بين سطور الملاحم بريح من العافية المتدفقة تهب عليك .

والحكايات نفسها طويلة متشابكة كثيرة الاستطراد . وهى عادة لا تروى قصة واحدة ، بل تصف عدداً كبيراً من مختلف الشخصيات ، وعدداً من القضايا التى تدعو للتفكير وترد الحياة إلى قطاع كامل من التاريخ الاجتماعى . إنها ليست ملاحم بمعناها الدقيق لأنها من النثر تنقصها الأوزان المتدفقة والخيال المذهل لهومير أوملیتون . إنها أقرب إلى القصص التاريخية الحديثة التى تروى التاريخ بغير تحيز مثل ايفانهو وسلامبو . إنها كتب راسخة مليئة بالفضائل والعيوب

المجسمة . لو كنت رجلا وحيدا أو خائر العزيمة معتقداً أننا نجتاز عهدا مخيفا مليئا بالأخطار والقلق المنقطع النظير ، أو أننى شاب يعتقد أنه فاقد الشجاعة راغب فى ترويض نفسه لقرأت نصف دستة من الروايات الأيسلندية مبتدئا بجريتير القوى ونيال المحترق .

ومهما يكن من شىء فقصص الساجة لاتزال مصدر إلهام لكتاب أحياء ، فقد كتبت روايات — فى الجيل الأخير أو السابق له — على طريقة الملاحم ، بعضها يستحق أن يقرأ حقاً . اثنان من مؤلفيها من الاسنكديناڤيين وهما سيدتان حصلتا على جائزة نوبل . والاثنان الآخران بريطانيان ؛ أحدهما إنجليزى والآخر اسكتلندى وكلاهما من أصل اسكنديناڤى .

ألفت الكاتبة السويدية سلما لا جيرلارف عام ١٨٩١ حكاية « جوستا بيرلنج » ، مجموعة من حكايات قصيرة تزخر بالفروسية المتوحشة بلغة سويدية حديثة تشبه الحكايات الغوطية السبع لإيزاك دينيسين . إنها تروى بطريقة مشوقة ولكنها لاتكاد تشبه الملاحم إلا فى ترتيبها وماتحويه أحياناً من عنف . وللكاتبة النرويجية سيجريد أوندست حكايتان تاريخيتان طويلتان تدوران حول اسكنديناڤية

القرن الثالث عشر — « سيدهستفيكن» و « كريستين لافرانسداتر »
وهما تحويان فى نظرى جميع عيوب الملاحم دون مزاياها ، لما فيهما من
غموض مع فقدان القوة المؤثرة . إلا أن جو الرواية متماسك وبعض
حوادثها قوية مشهودة .

كتبت هاتان السيدتان روايات تشبه الملاحم . ولكن رجلين
حاولا إنتاج حكايات لو أنها اكتشفت على شكل مخطوطات لاعتبرت
أعمالا أيسلندية أصيلة فإن « اريك لينكلاتر » فى « رجال نس » رد
الحياة إلى قرصان البحر الاسكنديناڤيين . إنها تذكرنا بأنه فى
عصور التاريخ المضطربة يسكن المدن الرجال الهادئون المسالمون . أما
الذين يسيطرون على الحوادث فمقامهم فى السهول والصحارى والبحار .
إن قرصانه يشبهون محاربى الجو المعاصرين . ولا أستطيع أن أوصى
بقراءته من كل قلبى ، لأن كتابه كالسمك المملح الذى كان قرصانه
يتغذون به ، عسير الهضم لا يناسب ذوق كل إنسان وإن كان زاخرا
بالفيتامينات .

والملحمة الحديثة المشوقة عن بلاد الشمال القديمة هى ولا شك

كتاب ريدر هجارد « اريك ذو العينين المضيئتين » . كثيرون من القراء يعرفون « مناجم الملك سليمان » و « هى » أو عائشة ، وكتب كواتيرمين ولكن « اريك ذو العينين المضيئتين »غير معروف لأن القراء لا يعرفون كيف يستمتعون به . إنه حكاية مشوقة تجمع عدة عناصر من الملاحم إلى كثير من أساطير أهل الشمال . فبطلها « اريك » شجاع وسيم إلا أنه منكود الحظ . فهو فقير وأعداؤه أقوياء. وبطولته لا تحقق له النجاح بل تقوده إلى الوحدة والهزيمة. والرواية غاصة بمغامرات جريئة خالية من الدهاء . وإليكم قطعة فاجنرية تصف نهاية الليلة التى سبقت آخر معركة لاريك وهو يجلس إلى صديقه الوحيد ينتظران بزوغ الفجر . إنهما ينظران إلى الفجر القطبى وأنوار الشمال فوق جبل « هيكلا » ولكن هذا ما بدا لهما :

«رأيا فى ذلك الضوء الوردى أشكال ثلاثة عمالقة من نار تشبه النساء. وأمامهن نول أسود يمتد من الأرض حتى عنان السماء ، ينسجن عليه بخيوط من نار . كن عظيمات مرعبات شعورهن تمتد خلفهن كنيازك من لهب وعيونهن تلمع لمعان البرق وصدورهن مضيئة كأذرعة الآلهة المصقولة ، كن ينسجن بقوة على نول الظلام ويغنين بأعلى أصواتهن

ولـكن ما كن يغنينه لم يكن مفهوما . وكبرت السداة وكبرت اللحمة وبدت على النول صورة هائلة بخيوط من النار.. انظر اليها إنها تمثل بحراً هبت عليه عاصفة وسفينة عملاقة تفر أمام العاصفة — سفينة حربية — وفوق السفينة جثث رجال وفوق الجثث جثة كأنها لشخص مستلق على سرير . وحدقا فإذا بوجه الجثة يضيء . إنه وجه ايريك مسنداً رأسه على قلب صديقه الميت إسكالا جريم .

إن « ايريك ذو العينين المضيئتين » كتاب ممتاز . إنه طبعا لا يحل محل الملاحم القديمة . إنه بالنسبة لها كروايات سكوت بالنسبة للقصص الشعرية والمدونات التاريخية — أكثر اعتناء بالتفاصيل وأقل بداية ، أكثر فنا وأصدق ترتيباً ولـكنه أقل ابتكارا . إنه توكيد حديث للإيمان بالمثل الأزلية للشجاعة والنبل . إنه همزة وصل بين حاضرنا سريع الزوال وعهود الماضي الجريئة غير المعروفة . إنه ممر قوس قزحي يعبر الأبطال عليه ليتحدونا وتمر عليه نساء جميلات يجعلن شبابنا يتوقون لذلك النوع من الحب الذي لا ينال إلا عن طريق الآلام والتصميم .

The Story of Burnt Nial (tr. G. W. Dasent, Everyman's Library 558).

The Saga of Grettir the Strong (tr. G. A. Hight, Everyman's Library 699).

Four Icelandic Sagas (tr. Gwyn Jones, American-Scandinavian Foundation, 1935).

Three Icelandic Sagas (tr. M. H. Scargill and M. Schlauch, American— Scandinavian Foundation,1950).

Laxdaela Saga (tr. Thorstein Veblen, Huebsch1925).

The Saga of the Volsungs (tr. M. Schlauch,Norton 1930).

H. R. Haggard, Eric Brighteyes (in Lost Civilisation's Dover, 1953).

Selma Lagerlof, Gösta Berling's Story (tr. P. B. Flach, Doubelday, Post, 1917).

E. Linklater, The Men of Ness (British Book Center, 1951).

Sigrid Undset, The Master of Hestviken (tr. A. G. Chater, Knopf, 1934).

Sigrid Undset, Kristin Lavransdatter (tr. C. Archer and J. S. Scott, Knopf, 1934).

نظرة إلى الخلف نحو حاضرنا

نقرأ فى أغلب بلاد الغرب الكثير من الروايات ، وتنشر المطابع الكثير من المجلات والجرائد ، والكتب المجلدة ، والقصص القصيرة والغراميات الواقعية . وبعض الأشخاص وكثير من المناظر التى نقرأ عنها تصبح فى نظرنا حقائق ملموسة وكأنها جزء من حياتنا . ولعدد من كتاب الروايات الحديثة مقدرة فائقة وقسط من النبوغ لاشك فيه، وبينهم صناع على جانب كبير من القدرة وإن لم يكونوا معروفين . وجميعنا نحب قراءة الحكاية المحبوكة .

وعندى -- بالمصادفة — مكتبة كبيرة زاخرة بالروايات الحديثة بلغات مختلفة . وكنت أسرح النظر فيها من وقت قريب فعرضت لى فكرة . إن عملى يقتضينى أن أعرف الناس بأفضل ما كتب باللغتين اليونانية واللاتينية . وحاصل ذلك التقاط الذهب من بين التراب ومحاولة فرز ما له قيمة ثابتة من بين الكتب التى ألفت — مثلا — فى القرن الأول قبل المسيح ، وما لم تعد له إلا قيمة أثرية بالرغم من ذيوعها وانتشارها فى زمنها . وبدأت أسائل نفسى : ماذا

سيكون حكم أبنائنا فى المستقبل البعيد على الروايات التى نقرؤها اليوم .

ويمكننا وضع هذا السؤال بطريقتين مختلفتين : الأولى أن نسأل أى الروايات سوف يعتبرونها تستحق القراءة وأيها سوف تنبذ؟ سؤال عسير تصعب الإجابة عنه والثانية أن نسأل أنفسنا : ماحكم رجل عاقل يعيش فى عام ٣٠٠٠ أو نحوها على رواياتنا ؟وما هى الصورة التى يكونها عنا من قراءته لتلك الروايات ، هل سيعجب بها أو سيعتبرها كلها سخافة ، وهل سيظن أنها تمثل حقائق حياتنا (كما اكتشفها عن طريق المستندات التاريخية والصور الشمسية والأدلة الأخرى) أو ينتهى به الأمر إلى الاعتقاد بأن رواياتنا النثرية — وإن زعمت أنها روايات واقعيين — هى فى الحقيقة أبعد ما يكون عن الواقع الملموس ، وهذا السؤال الثانى يبدو عسيرا أيضاً ولكننا نستطيع الإجابة عنه بسهولة أكثر من السؤال الأول . تعالوا نرجع قليلا إلى الماضى وننظر فى الروايات التى ظهرت فى الأربعين أو الخمسين السنة الماضيات ترى لو قارناها بتجاربنا الشخصية وما نعرفه عن العالم ماذا نجد ؟

أول ما نجد ، وأول ما سوف يلاحظه أبناؤنا ، أن الحقيقة أوسع

وأعقد من الخيال . عشرات من الأمور وقعت لكل واحد منا لم تجد طريقها إلى صفحات الروايات . وكل واحد منا تقريبا يعرف رجالا ونساء عاشوا حياة غريبة مليئة بالآلام والنجاح ، ولكننا لم نقرأ رواية ماتصف شخصياتهم أو أعمالهم أو دوافعهم فى الحياة . أيمكنك أن تكتشف نفسك فى أية رواية ؟ إنك تستطيع أن تجد شخصيات أخرى تكاد تشبهك أحيانا أو تكون أكثر منك حيوية وبلاغة تعبير . . . ولكن قلما تجد صور تنطبق عليك . . وهذا ولا شك أسوأ ما يقال عن العدد الضخم من الروايات التى تصدر آليا لتملأ فراغ المجلات والصحف، مخافة أن تتصل إعلانات المجلات الكبيرة ببعضها البعض . إن المؤلفين يرتكنون على أمشاق وعينات معروفة لدرجة الخوف من دراسة وتتبع حياة الأفراد الحقيقيين . وبذلك تتكرر شخصياتهم : زوج طويل يلفت النظر بقبح منظره اسمه « كلايد » وزوجة شديدة الحساسية قوية الفهم اسمها « كارين » أو « مارسيا » وأحيانا — فى رغبة حقيقية للانتصار للمظهر — سيدة جميلة تدعى « مارى » تحب « جون » حبا عميقا .

ومن جهة أخرى فإن أبناءنا — على فرض أنهم سوف يعرفون القراءة — سوف يعجبون ببعض رواياتنا الممتازة باعتبارها مفتاحا للتاريخ

الاجتماعى،ولكنهم سيدركون مع ذلك أنها لاتعطيهم صورة كاملة يبد أنهم يقدرون ما تمدهم به . ففى كثيرمن الروايات الحديثة معلومات هامة عن العادات الاجتماعية والانقسامات والخلافات الطبقية والأسر والجيران وطرق التعليم الرسمية وغير الرسمية . . . إنها — من هذه الناحية التاريخية — أصدق وأثمن من أفلام السينما قلما ترينا بيتا حقيقيا أو أسرة معقولة ، أو مكتبا قائما ، أو مصنعا ، أو مدينة . وربما قامت منافشات حادة بين فريقين من المؤرخين : فريق يرى أن تعرف الحياة الاجتماعية لمنتصف القرن العشرين يكون عن طريق الروايات . وفريق يرى الأخـــذ بروايات السينما لأنها تريهم الأشياء الحقيقية والناس الأحياء . وربما تقوم مدرسة ثالثة تؤكد — ويا للفظاعة — أن الحقيقه الحقة تـكمن فى « الزوجة النبيلة » و « الطفل المنسى » و بقية الأوبرات الإعلانية التى تفسد صفاء الجو .

وسوف يستمتع قراء المستقبل بكثير من رواياتنا لأنهم سيستمعون لأحاديثنا من بين صفحاتها ويستطيعون عن طريقها إعادة بناء لغتنا . وهذه إحدى الصعوبات التى تقابلنا فى قراءة اليونانية واللاتينية . . . وكذلك العبرية . فإن من الصعب جدا أن نعرف كيف كان عامة الناس يتحدثون ، إذ أن كل ما عندنا تقريبا عبارة عن أدب مكتوب بلغة

رقيقة وأسلوب متين يسمو بكثير عن لغة التخاطب اليومية . كما أن اللهجات المحلية قلما تنشر . على حين أن الروايات الحديثة المكتوبة بالإنجليزية الأمريكية أو الإنجليزية البريطانية ، وفى كثير من اللغات الغربية تعطيك صدى حياً للأحاديث الدارجة . . . الأصوات الناعمة والمقطع المستطيل لسكان الجنوب العميق والنطق السريع القاسى لشوارع الأعمال بنيويورك . . وفى بعض الروايات الفرنسية الحديثة اللهجة المريرة السافرة — الحية مع ذلك — للغة الأحياء الفقيرة الدارجة . إن قصص أو . هنرى القصيرة مستند عجيب لتاريخ لغتنا .

ولكن أبناءنا — إن كانت ستكون لهم عقلية مؤرخين — سوف يدهشهم أن يجدوا أننا تركنا الكثير من أمورنا الطريفة الهامة بغير ذكرها فى رواياتنا . لهو نامثلا . فأين هى رواياتنا التى تصف سباق الخيل ، أو ملاكمة كبيرة ، أو المباريات الدولية . ومع ذلك فالملايين من الناس يتلذذون بها سنة بعد أخرى . وعلى هذا القياس فإننا لانجد وصفا تفصيلياً مطولا لعربة سباق فى عهد الرومان ، أو معارك المجالدين. إنما نحاول معرفة ذلك من التماثيل والنقوش والتلميحات العارضة . للكاتب الذى أحبه « جوفينال » قصيدة واحدة يدعو بها صديقا

قديماً لقضاء اليوم معه وتناول عشاء طيب . ويضيف أنهما يستطيعان أن يستمتعا بالحرية لأن روما انصرفت بقضها وقضيضها إلى السباق . لنترك الصغار يذهبون لأن تعتهم الصياح والمضاربات البعيدة المدى والجلوس بجوار فتيات أنيقات يتحلين بأجمل الثياب . أما نحن العجائز فنستطيع أن نرتاح ونتمتع بأشعة الشمس . كل هذا جميل حقاً . ولكنني وددت لو أنه ذهب في شبابه — ولو مرة واحدة — للسباق وكتب نقدا بديعاً يصف الجمهور وثيابهم وتصرفاتهم . كيف كانوا يجلسون ؟ أو يقفون ؟ وأي فريق يساندون ؟ وهياجهم الجنوني وصيحاتهم عند مرور العربات الثقيلة في الدورة الأخيرة مندفعة في الطريق المستقيم والخيل تزيد وقادتها يلهبونها بالسياط والتراب يدوم مرتفعاً والموت يسابق العربة الأولى ولا يلحق بها . وقد لاحظ مرة أن الفائز حصل على جائزة تعادل مرتب مدرس لسنة كاملة . وهذا له وقع نعرفه .

وأمر آخر غريب هو أن رواياتنا الحديثة قلما تحدث أبناءنا عن أعمالنا الرئيسية : تجارتنا ، صناعاتنا ، علومنا . كتب سينكلر لويس ، وأرنولد بينيت ، روايات عن صناعة الفنادق ووصف لنا جولز رومانس شخصيات كثيرين من رجال الأعمال ومهرة العمال في مجموعة « رجال

حسنوالنية » . وانتهى فيكتور هوايت من رواية كبيرة من ثلاثة أجزاء «بيتر دومانيج فى أمريكا » تدور وقائعهاحول لاجىء لأمريكا يبنى مستقبله فى الصناعة الثقيلة . إن عندنا روايات كثيرة عن الأطباء والمحامين والمدرسين . ولكن كثيراً من ميادين النشاط الهامة المشوقة كالملاحة والمصارف والهندسة الكيموية لانكاد نجد لها ذكراً فى رواياتنا ، فضلا عن التحدث عنها بالتفصيل على طريقة بلزاك وزولا .

ونقص آخر لا يمكن اغتفاره بسهولة ؛ هوأن رواياتنا خلو تقريباً من أوصاف حية للأماكن . إن أمريكا غنية بالمناظر الرائعة الخلابة من مصاب البحيرات فى لويزيانا إلى الأراضى القاحلة فى داكوتا ، ولكن الكتاب الذين وصفوها قليلون . كانت هذه إحدى كفايات فينيمور كوپر الذى أبدع فى وصف بحيرات وغابات حدودنا الشمالية الشرقية . ولكنها كفاية يبدو أننا لم نعد نعيرها اهتماما فى هذه الأيام . والوصف الوحيد الذى أعرفه لشلالات نياجرا فى الروايات الحديثة هو الذى جاء به هـ.ج . ويلز فى كتابه «حرب الجو» المطبوع سنة ١٩٠٨ . وفى هذا الخصوص على الأقل تتفوق أفلام السينما على الروائيين ، فإن الشيء الوحيد الذى يستحق الإعجاب فيها هو المناظر الفوتوغرافية . وزيادة

على ذلك فإن من العجب أن قليلا من الروايات — مع أن أغلب قرائها من سكان المدن — تهتم بوصف المدن والعواصم : روائحها وأصواتها وجوها . لا أقصد الكتب التى تحدثنا عن الحياة فى المدن المزدحمة . لا . إننى أبحث عما هو أعمق . عن كتب تمكن الغريب البعيد — مكانا أو زمانا — أن يتصور الشكل الحقيقى لأمكنة لم يسبق له أن رآها . إنك تجد ذلك متوافراً فى كتابات جون دوا باسوس ، وجولس رومان ، وبعضه فى رواية فرجينيا وولف « السيدة دالواى » وفى مجموعة رشيقة من القصص لجوزيف هرجشيمير عنوانها « مدن هادئة » ولكن ذلك غير مقنع . ترى هل كتاب الروايات عندنا يهتمون بالبحوث النفسية فلا يلاحظون مايدور حولهم ؟

وإذا استمر التقدم العلمى على هذه الوتيرة فسيعرف أبناؤنا بعد ستمائة أو ثمانمائة سنة عن النفس البشرية أضعاف ما نعرف ، ولعلهم سوف يضحكون من جهلنا كما نضحك نحن من جهل أطباء القرون الوسطى الفاضح فى الباثولوجيا والفسيولوجيا . وعندما يقرأون رواياتنا المتخمة بالأوصاف النفسية ماذا تظنونهم ينظرون إلينا وإلى كتابنا ؟ قد يقولون — كما نقول نحن عن شكسبير وأفضل كتاب اليونان —

إن فراستنا النفسية فى الأشخاص دقيقة جداً ولـكنها غريبة فى بعض الأحيان . ولا تتبع نظاماً محكما . وسيضيفون حتما أننا لم نعرف — أو على الأقل لم نتعرض — فى رواياتنا — لمجالات هامة فى النشاط النفسى ؛ وخاصة لسيكولوجية الجماهير (مع أننا نعيش فى ثقافة جماهير) أو نفسية الجماعات المنظمة : فريق أو فيلق أو كنيسة . ولا يزال ميدان نفسية الجريمة الرحب فى حاجة لمن يسبر غوره فى رواياتنا . لقد كتب روائيونا عن الحياة النفسية للأطفال والمجانين ولـكننا نتطلب المزيد فيما يختص بالبدائيين وأفراد الثقافات الأخرى على غرار الروايات البديعة التى كتبها أوليفر لافارج عن هنود الجنوب الغربى .

فاذا تركنا الدراسات النفسية إلى الجنس وجدنا أن بعض كتابنا لا يفرقون بينهما . والرأى الراجح أنهما جد مختلفين . ومع ذلك فماذا سوف يظن خلفاؤنا فى عام ٣٠٠٠ ؟ إنهم سوف يجدون فى رواياتنا أوصافاً تفصيلية نهمة عن النشاط الجنسى يفوق ما كتب فيما سبقنا من أزمان . يبدو لى أنهم سينظرون إليها فى دهشة ويحكمون عليها بأنها من نسج الخيال أو تزيد لاتقتضيه ضرورة . ونحن أنفسنا حين نقرأ « مذكرات بكويك» نجد صعوبة فى تتبع الوصف الدقيق لطريقة

تناول الطعام والشراب والمتع العائلية . ونحتاج لمجهود كبير لمتابعة الطرق المعقدة للأوضاع الأرستقراطية والاتيكيت التى تملأ تفاصيلها كتابات بروست . إننا — طبعاً — نأكل ونشرب ونتبع نظاماً معيناً ولكننا لا نعير هذه الأمور مثل هذا القدر من الاهتمام وقد ينظر أبناؤنا إلينا بهذه النظرة نفسها ويجدوننا (كما نجد نحن الجنود الذين يزينون جدران معسكراتهم بصور نساء نصف عاريات لا غير) غير ناضجين وإلى حد ما نستحق عطفهم .

سوف يقولون : « إسراف فى التفكير فى الجنس » وقد يضيفون « وفقر فى الثقافة » . . . لا لأننا نهتم بالجنس أكثر مما يجب ولا نهتم بالثقافة كما يجب . ولكن كتابنا هم الذين يضعوننا فى هذا الوضع . فلو راجعنا كثيراً من الروايات الحديثة لخرجنا منها بفكرة أنه ما من إنسان يذهب إلى عزف موسيقى كلاسيكية ، أو يقرأ كتاباً جاداً ويذكر ما قرأ ، أو يمتع ناظريه بصورة ، أو يحتفظ بمجموعة من الأسطوانات . فأشخاص رواياتنا يبدون وكأن لا حديث لهم ولا تفكير إلا حول الإحساسات الناتجة عن العلاقات الجنسية . ومع ذلك فأنتم تعلمون حق العلم أن كثيرين من الناس الذين يمكن أن

يكونوا شخصيات ناجحة فى أية رواية تملأ رءوسهم أمور أخرى . فكروا فيما يشغل رأس إنسان مثل دياجيليف ، أو بول كلوديل ، أو كينز أو توماس وولف ، إن الموسيقى ومقتطفات كبيرة من الشعر وفصولا وصوراً محفوظة وبحوثاً عقلية معقدة تشغل بالهم . ويهتمون بها أحياناً أكثر بمراحل من العلاقات الشخصية القوية . وكثير من عامة الناس (أمثالى وأمثالكم) يجدون عقولهم مشغولة بمسائل تتولد من قراءة كتاب أو ذكرى مناقشة مثيرة . . إن هذه تجارب مهمة يجب عدم إغفالها فى الروايات ، ولكن هذا هو الحاصل كما لو لم يكن لها وجود أو لاعتقاد المؤلفين أنها تروع القراء العصبيين . لقد كانت تلك إحدى مزايا رواية ج . د . سالنجر عن المراهقة « الصائدة فى حقول الشيلم » لأنها تكشف لك عن عقل غلام يعمل بين الكتب وأشياء أخرى . وتلك إحدى مفاتن بروست الذى يظهر لنا بطله وقد انجذب بجملة من قصيدة أو صورة لفرمير . وهى تجارب ليست سطحية وليست لمجرد الزينة ، بل المقصود بها أن تصبح عناصر ضرورية فى حياته .

أجل . إن القصص (كالفن وكالفلسفة)وسيلة من وسائل الترجمة

عن عالمنا ، وهو مثلهما لم يبلغ الكمال . لا تظنوا أن حياتنا ضيقة أو مملة . إنها كثيرة ، غنية التقلب ، غنية بغير حدود . إن الكتاب الكبار الذين عاشوا لم يسجلوا إلا جزءا ضئيلا مما رأوا وعرفوا . إن الشرط الأول لتقدير كتاب أو مجموعة من كتب هو أن ندرك أنه ليس وافياً . وخير ما يطمح إليه كاتب هو أن ينشر كتاباً يحوى على الأقل جزءاً من الحقائق الأساسية التى بدونها لا يمكن لكتاب أن يعيش .

كتب الحكمة

يتاح لك أحيانا — إن كنت من المحظوظين — أن تقابل شخصا يمتاز بالحكمة والذهن الوقاد، قليل الكلام ولكن صمته غير عابس، تستطيع أن تدرك رغم صمته أنه يفكر فى هدوء تفكيرا مثمرا، وعندما يحين الوقت المناسب تراه يشترك فى الحديث بكلمة حكيمة أوحكاية مضيئة أوحجة دامغة. وإنك لتغبطه على ذلك. ولكن، ماجدوى الحسد، إذن، ما سبيلك للوصول إلى مثل هذا الحكم المتزن والمنطق السليم والتعبير الخاص السهل الممتنع؟ كل ما تستطيعه أن تنصت وتتعجب، وتقول لنفسك (وأنت فى طريقك لبيتك) إن هذا الرجل فى عالم الفكر والبيان أشبه بهاينز فى عزفه على القيثارة أو ماتيس فى صوره. لقد أطال المرانة وسما بمقاييسه إلى مراتب رفيعة حتى أصبح غير قادر — بدون جهد متعمدغير طبيعى — أن ينطق بكلمة فارغة أوسخيفة. كما لايستطيع هاينز أن يلعب نشازا او ماتيس أن يصور بغير اتقان. يقول بوب إن مثل هذا التفكير

السليم والحديث المنطقى ينبعان من الفن لا من الحظ ، وهؤلاء مثلهم كمثل الراقصين الذين يتحركون فى رشاقة وخفة لأنهم تعلموا الرقص ودرسوه .

من هذا الصنف ثلاثة أو أربعة كتاب متى قابلتهم مرة واحد لاتنساهم . فقد عملوا على ألا يصيبهم النسيان . كتبوا لتبعث كتابتهم التفكير ولتحمل بجوار القلب وتحفظ عن ظهر قلب ، وتحضرنى ذكرى عازف أرغن فى كلية ترينيتى بهارتفورد كان يعزف لبعض زوار تلك الكنيسة البديعة مقطوعات موسيقية من باخ الواحدة تلو الأخرى بمجرد طلبها منه . سألته فى جهل الهواة : « كيف تستطيع أن تعزف كل هذه المعزوفات من الذاكرة ؟ » فكان رده : « أنا لا أستطيع تصور طريقة أخرى لعزفها » . تنهدت ولكننى أحسست أنه على حق . وهذا هو شأن هذا النوع الخاص من الكتب . لقد أصاب مؤلف أحدها فى قوله :

« بعض الكتب يذاق . وبعضها يزدرد . وقليل يمضغ ويهضم »

إنها ليست كتباً دينية، بل هى فى الغالب كتب علمانية، وإن كتابها مفكرون معترفون بقوة تأثير الدين فى الحياة . وهى ليست علمية

و إن كان أحدها من تأليف عالم . وهى فنية من بعض نواحيها أريد من كتابتها أن تنطق بالحقيقة ؛ لأن كاتبيها كانوا يعلمون أن الحقيقة لاتعيش إلا إذا أحسن التعبير عنها ، فجهدوا فى تنميق أسلوبهم كما جهدوا فى تحسين تفكيرهم حتى تطابق الاثنان — الأسلوب والفكرة — تطابقا تاما لا نظير له إلا فى الشعر الغنائى .

وكلنا يعرف اسم كتاب من هذه الكتب وأسماء مؤلفى كتابين أو ثلاثة أخرى أو أكثر ، أشهرها ولا شك كتاب الأمثال فى العهد القديم ، والتى يقال إن بعضها من وضع الملك سليمان نفسه . وأشهر المؤلفين الحديثين فى هذا النوع هو فرانسيس بيكون الفيلسوف المتبحر فى العلوم والسياسة ، وقد صدر كتابه (الذى أسماه فى نواضع رسائل) وهو فى السادسة والثلاثين من عمره (وظهرت له طبعتان كل واحدة منهما أكبر من سابقتها) قبل وفاة بيكون . ولدى الاسبان (عميقى التفكير) كتاب « عراف الجيب » لمؤلفه بلتزار جراشيان. و يفخر الفرنسيون اللماحو الخاطر بـ « حكم » لاروشفوكولد، ويوجد فى كل لغة كتاب أو اثنان من هذ النوع .

وهى فى الواقع نصائح حكيمة ترسم لك طريقة الحياة... ولم أعثر على اسم صالح لها لتسميتها . فالمقالات إما بحوث أو تجارب (وهى تسمية لا تكفى

لإظهار حقيقة طبيعتها) وتسميتها « آراء متزنة » تسمية صادقة نوعا ماولكنها تقلل من قوة طبيعتها الإيجابية التهذيبية . ونسميتها بالأمثال تسمية ضعيفة لأن الأمثال تنشأ وتنتشر بفعل مجهول . ويسميها دارسو التوراة « كتب الحكمة » وهى تسمية تصلح كأى تسمية أخرى ، لأنها فى الواقع كتب حكمة عالمية ذات قيمة دائمة . إنها كتب تعليم على مستوى عال تطبق على نطاق واسع . إنها مختصرات تعلم الحياة العملية .

فمثلا : ما هو أفضل طريق للمفاوضة ، إذا أردت أن تصل إلى اتفاق مع شخص آخر،وأن تحصل منه على ميزة فماهوخير سبيل لذلك من الواضح أن من العسير إيجاد وسيلة واحدة تصلح لجميع الأوقات والظروف ، فالأغراض الإنسانية ليست كالكيميا ذات نسب وطاقات ثابتة . ولكن لابد من وجود قاعدة أساسية لها صفات مفهومة واستثناءات . وفى هذا يقول بيكون :

« التفاوض بالكلام أفضل فى أغلب الأحيان من الكتابة . والمفاوضة عن طريق شخص ثالث أفضل من التفاوض المباشر » .

وهو يقول أيضاً :

« الكتابة مفيدة إذا أدت إلى الحصول على إجابة مكتوبة .

أو إذا كان الغرض منها أن يبرر الإنسان — فيما بعد — تصرفه بإبراز صورة خطابه . أو إذا كان يخشى من خطر المقاطعة أو سماع حجته على دفعات » .

ثم يستمر فى تفصيل نصائحه — بفكره الثاقب — مبينا مزايا المفاوضة الشخصية والطريقة السليمة لاختيار الوسطاء . ويعتبر بعض الحكماء أن النقطة الأساسية هو أن يستطيع مفاوض أن يعرض بعض المزايا على الطرف الآخر .

« ساير الشخص الآخر فى خطته لتستميله إلى خطتك . إنها خطة ناجحة لأنك تعرض عليه المزايا كالطعم لتكسب رضاه . إذ بينما تبدو كأنك تخدم أغراضه تكون فى الحقيقة قد مهدت الطريق لتحقيق أغراضك » .

والفقرة التالية مباشرة من كتاب جراشيان — وإن كانت عن موضوع مختلف — تمدنا بنصيحة هامة وتبين أسلوبه بوضوح مما يدعونا لنقلها بنصها هنا :

« لا تظهر إصبعك المقروحة للآخرين فيضربوا عليها . ولا تشك لأن الحاقد يهاجم حيث الألم أوجع . ولا فائدة من أن تغضب لأن ذلك يزيد من مرح الآخرين . إن نية السوء تتسلل بألف طريق وطريق

لتكتشف نقطة الضعف وتنقض عليها . » ولكن كتب الحكمة التى تقدم نصائح بهذا التفصيل قليلة . لأن أغلب الحكماء يعرفون (كما قال بيكون) « أن فى الطبيعة البشرية من الخبل أكثر مما فيها من الاتزان » لذلك فإن نصائحهم عادة أكثر اقتضابا .

وهذا ما يقوله كتاب الأمثال عن المفاوضة :

الرسول البليد لمن أرسلوه كالخل للأسنان والدخان للعيون . الإنسان البسيط يصدق كل كلمة . أما الحريص فيتدبر موضع قدميه قبل أن يخطو خطوة واحدة وغالبية الحكم الموجودة فى هذه الكتب ليست على هيئة ترتيبات وأنظمة للسلوك بل مجرد نبذ تبدو أحيانا كبديهيات متعمق فيها وأحيانا كالشعر المنثور :

« الاعتدال قوة فى الرخاء والثبات قوة فى الشدة .

« اترك شيئا تتمناه لكيلا تتخم من السعادة .

« إن الرغبة فى أن نبدو بارعين كثيرا ما حالت دوننا والبراعة

« الشباب سكر مستمر .

وعلى معظم النبذ سمة التشاؤم والسخرية . فمؤلفوها يعلمون أن العقل يتحكم أحيانا فى الناس والعواطف أحيانا أخرى . وكثيرا ما تتحدى

العواطف العقل . أو تتخذ منه ستارا تتوارى خلفه . وهم — وقد جردوا أنفسهم للتفكير — قد برعوا فى تقصى العيوب المتوارية . فهم يقولون :

« إن فينا — جميعا — قدرة على تحمل مصائب الغير .

« الذى يرفض المديح يريد أن يمتدح ثانية

« لو لم تكن لنا عيوب لما سرّنا أن نكشف عيوب الغير .

وفى بعض الأوقات تكاد تلمس هؤلاء الكتاب وهم يفكرون . إنهم يوازنون بين فكرتين متعارضتين . فتراهم يقولون :

« لا تحدث المجنون وفقا لجنونه وإلا كنت مثله . » و « حدث المجنون تبعا لجنونه لئلا يكون عاقلا فى تصوره » . بهذه الفكرة صدّر مونتينى مقالاته . وجمع بيكون فى كتابه « تقدم المعرفة » المتناقضات والتأييدات والاعتراضات عن موضوعات مختلفة هامة .

والظاهر أن مؤلفى كتب الحكم يعرفون بعضهم بعضا ويقدر كل منهم أفكار الآخرين . إنهم يقتبسون نبذ الآخرين بشغف ويضمونها إلى نبذهم . وأنت إذ تقرأ كتب الأمثال المرة تلو المرة لتجد أن الفكرة الطيبة قد قيلت أربع أو خمس مرات من أربعة

أو خمسة كتاب مختلفين فى الظاهر . وكثيرا ما ذكر بيكون أمثلة سليمان وغيرها من الأقوال المأثورة من الأدب الكلاسيكى والأدب الحديث .

إن هذه الكتب لا تكتب — كما تكتب الروايات — دفعة واحدة . ولكنها تنمو ببطء . كل واحد يضع بذوره فى الآخر . وكثيرا ما يبدأ مؤلفوها بإطالة التفكير فى حكم الآخرين . وكم من كتب الحكم تولدت عن مجموعة أقوال مشهورة أو توسع فى أقوال جمعت من مؤلفين مختلفين (وجمع أمثال هذه الأقوال عادة مفيد جدا وتثقيف مستمر نتشبه فيه بعظماء من أمثال جيفرسون) و بعد أن يطيل الرجل الذكى التفكير فى هذه الحكم يبدأ فى خلق حكم تنبع من ذات نفسه، و يكتبها فى صيغ خالدة . وأفضل هذه الكتب وليد تفكير طويل باعتناء شديد،وكلما قرأتها أو فكرت فيها ذهب خاطرى إلى صناعة الجواهر — تكوين اللؤلؤة البطىء فى محارتها طبقة فوق طبقة و إلى قاطع الماس بعجلته وعدساته المكبرة .وأتصور لاروشفوكو الكهل المتهدم جالسا بقصره الريفى المنعزل يقدح زناد فكره وجراشيان فى هدوء ديره يجلى نصائحه بصبر الجزويتى الذى لا ينفد و بيكون يضع نصائحه الواحدة بعد الأخرى كصانع الساعات وهو يجمع آلته الدقيقة

إنها من الأدب الرفيع كتب الحكمة هذه . لقد أمدوا حديثنا اليومى بجمل أكثر من أى نوع آخر من الكتب ، أللهم إلا المآسى الكبرى . تدبر هذه الأقوال الجميلة وهى قلة بين كثرة من كتاب الأمثال وسفر الجامعة :

« إذا انعدم الخيال مات الناس » .

« سرور القلب يفيد كما يفيد الدواء » .

« رأس الحكمة مخافة الله » .

« كل ما تعمله يداك اعمله بقوة » .

« الذباب الميت يبث رائحة كريهة فى مرهم الصيدلى . كذلك تفعل الحماقة الصغيرة بسمعة الحكيم الشريف » .

« ألق بخبزك فوق الماء لأنك ستجده بعد عدة أيام » .

ودرة تمر بخاطرى دائماً وقت الإفطار تعلمتها عندما كنت أتنقل فى نيوجيرسى :

« إن الذى يبارك صديقه بصوت عال لنهوضه المبكر فى الصباح تحسب عليه لعنة » .

ومن بيكون :

« أول عمل عمله الخالق القدير أن زرع حديقة » .

« الانتقام عدالة المتوحشين » .

« الشكوك كالخفافيش تطير دائماً فى الظلام » .

« الصعود إلى الرتب العالية يكون دائماً على سلالم ملتوية »

« ما من جمال ممتاز إلا و به غرابة فى التنسيق» .

ومن جراشيان :

« الحكيم يعمل من أول وهلة ما يفعله الأحمق آخر الأمر » .

« اعمل دائماً كما لو كان الناس يرونك » .

« اعرف أيامك التعسة » .

« تنبيه الفكر عمل أعظم من تنبيه الذاكرة . لأن حمل الإنسان على التفكير يتطلب أكثر من حمله على التذكر » .

« جميع الناس يعبدون الأصنام . بعضهم فى سبيل الشرف . و بعضهم لتحقيق أطماع . وأغلبهم لإرضاء شهواتهم » .

« أنا والزمن ضد أى اثنين » .

ومن لاروشفوكولد :

« تحب المرأة فى أول حب لها حبيبها ، ثم تحب الحب » .

« لو أن الأخطاء كلها فى جانب واحد لما طال أمد الخصام » .

« سر البراعة الحقيقى معرفة قيمة الأشياء » .

« كثير من الناس قساة بدافع الغرور لا القسوة الطبيعية » .

« لسنا أبداً سعداء أو تعساء بالقدر الذى نتصوره » .

إن من المنعش أن نجد كل هذه الحكمة معروضة بإيجاز وقوة . وهى مع ذلك توهن العزم . فإننا نشعر أن من المستحيل علينا أن تتوافر لنا هذه الفطنة وهذه القوة وأن نترك العقل يسيطر على جميع أعمالنا ، ونرتب كل تصرف وننجح غالباً ونسيطر على الحياة . .

ولكن الذى يعزينا أن نذكر أن الذين كتبوا هذه الكتب لم يكونوا حكماء ناجحين كالكتب التى ألفوها . . . لقد نصحنا بيكون بتوفير نصف إيرادنا للمحافظة على مستوانا وثلثيه لنغتنى ، ولكنه هو نفسه كان مسرفاً بإفراط ومات مستغرقاً فى الدين . إنه يعظنا بالحذر والعناية والتفكير فى المستقبل ، ولكنه اتهم بالرشوة التى وصفها هو

نفسه بالضعف لا الفساد (أى إنه أراد أن يوصف بالغفلة لا الفساد) .
ولم يبدأ لاروشفوكولد كتابة حكمه إلا بعد أن أصبح رجلا مهزوماً، فقد انضم إلى الفريق الخاسر فى حرب أهلية فغلب وصودرت أمواله . أما جراشيان فقد كان أكثرهم تألماً ، فإنه فى سن الستين بعد أن ظل أربعين سنة تقريباً جزويتيا ناجحاً وشغل مركزاً مرموقاً فى الكلية الجزويتية و«شلح» لخطيئتين لا يتصور أن يقع فيهما رجل عاقل وجزويتى : عدم الاحتياط والعصيان . كان يصدر كتباً ناجحة باسم مستعار (وكان يحتفظ بمكاسبه لنفسه برغم نذره ألا تكون له ملكية خاصة) . فلما منع صراحة من نشر أى كتاب آخر لم يطع الأمر (كان الجزء الثالث من كتابه الكريتيكون — الناقد) فحرم من أستاذيته ووبخ علنا وحكم عليه بعقوبة العيش الحاف والماء . وأمره الرئيس بألا يغلق على نفسه باباً ، وأن يمنع من استعمال القلم والحبر والورق . فطلب الإذن بأن يترك جماعة الجزويت ويلتحق بجمعية أخرى . وبقى فى محنة لبضعة أشهر ثم مات منفياً مغضوباً عليه . وهو الذى كتب ذات مرة : « فكر دائماً فى الخاتمة السعيدة ، فإن الكاسب لا يحتاج لتبرير » و « فكر فيما هو آت . فإن المستعد لا تفاجئه الحوادث والذى نبه لا يتعرض للمخاطر » .

والملك سليمان -- أحكمهم -- وصل إلى مستوى من المجد لا يتصور، وثراء عريض وسلطان لا يجارى ، ورؤية وجه الرب . ومع ذلك فلما بلغ به الكبر حول زوجاته قلبه إلى آلهة آخرين . . . وغضب الرب على سليمان وقال: « سوف استرد الملك منك وأمنحه لخادمك » . وبعد موته ببضع سنوات انقسمت المملكة القوية التى أقامها هو وأبوه إلى أجزاء صغيرة. ولعله رأى انهيارها قبل موته . ووجد بعده متشائمون كتبوا حكماً متشائمة نسبوها إليه .

ربما كان من العسير أن يعيش الإنسان بالحكمة و يؤلف حكما عن السلوك . . . لأن العمل يحتاج إلى قوة إرادة لا يمكن أن تدرس فى كتاب ؛ أو لأن أحكم الناس هم الذين لم يبوحوا بأسرارهم قط .

Francis Bacon, Lord Verulam, Essays (ed. C.S. Northup, Houghton Mifflin, 1908)

Baltasar Gracian, the art of worldly wisdom (tr. j. Jacobs, Macmillan, 1892)

Baltasar Gracian, El Criticon (ed. M. Romera -Navarro, University of Pennsylvania. 1938)

Baltasar Gracian, the oracle (tr. L.B. Walton, Salloch, 1953)

Baltasar Gracian, A truthtelling manual (tr. M.Fischer, C. C. Thomas, 1945)

F. Guicciardini, Ricordi (tr.N.H. Thomson, Vanni 1949)

François duc de la Rochefoucauld, les Maximes (ed.by F. C. Green, Cambridge, England, 1945)

مؤرخ مرموق

توفى — منذ نحو عشرين سنة — كاتب من المقربين لمثقفى لندن . رجل نحيف ذولحية ، حاد الصوت ، ضامر الجسم جدا . شبيه — من صوره — بالقاضى شالو كما يصفه فالستاف فى رواية « هنرى الرابع » :

« إننى أذكره جيدا . . أشبه برجل مصنوع من بقايا الجبن بعد العشاء . ويتصوره العالم — عاريا — كقطعة من «الجزر» غرزت فى شوكة من فوقها رأس نحت بسكين ، نحيفا لدرجة أن قصير النظر لايكاد يرى حجمه . إنه التمثال الحى للجوع . »

فإذا استبعدنا من حسابنا أن القاضى شالو كان قصيرا، على حين كان صاحبنا طويلا مفكك المفاصل ، وجدناهما صنوين . وصفه عارفوه بصدق أنه يمثل الجوع . وكان يضيف إلى مظهره القاتم لحية طويلة حمراء ملساء ونظارات كبيرة ويدين باهتتين خاليتين من العظام . اسمه الكامل جايلز ليتون استراشى ، ولكنه أسقط منه جايلز الريفى

القوي وفضل أن يعرف باسم ليتون استراشى فقط .

كتب ليتون استراشى ست أو ثمانى سير ، وعددا كبيرا من مقالات النقد الأدبى . ولم تترك مقالاته فى النقد أثرا ملحوظا عند القراء . أما السير فكان تأثيرها هائلا ، جلبت له الثروة وأصبح بفضلها من أكثر الكتاب شيوعا ، كما جلبت عليه حقد الكثير من المؤرخين الجادين — فى هذه البلاد وفى إنجلترا — وكسبت له جيشا من المعجبين والأنصار . إنكم تعرفونهم . إنهم « الهدامون » .

فليتون استراشى هو الذى جعل الهدم بدعة « موضة » . وربما شجع كتاب من أمثال نكولن ستيفنز و . ه . منكن هذا النوع من الكتابة عندنا . ولكن استراشى هو الذى فتح له أبواب الأدب على مصاريعها . لقد كان كاتبا لماحا مبدعا . أما كمؤرخ فقد كان قاسيا وخبيثا .

أتراه مقروءا فى أيامنا ؟ إننى لا أسمع أحدا يتكلم عنه قط . وهذا لايدل على شىء . فكم من الكتاب بينهم من أعجب هو نفسه بهم ، لم ينالوا أى إعجاب إلى وقت طويل بعد موتهم . ربما لم يحن الزمن بعد للاستمتاع بقراءة كتبه . فإذا اتجهت مدنيتنا نحو التنظيم الحكومى وتولت الدولة جميع أوجه النشاط وتحتم أن يكون لكل

عمل تصريح يكتب فى استمارات من ثلاث أو أربع صور مع قيام مجموعة كبيرة من الموظفين فى الرياسة توجه حياة كل فرد ، عندئذ يقدر النقاد — طويلو الأنياب حادو الأسنان ـ أمثال استراشى ، لا كمؤرخين بل كهجائيين ـ وإذا سمح لمطبوعاتهم أن تنشر فسيقبل القراء عليها بتحمس مفرط . على الأقل حتى يكشف الحكام ... .

وحتى عام ١٩١٨ — أى السنة الأخيرة للحرب العالمية الأولى — لم يكن ليتون استراشى معروفا خارج دائرة الأخلاقيين والساخرين فى كمبردج وبلومزبرى . ثم أصدر مجموعة من أربع سير طويلة عنوانها « فكتوريون مرموقون» . وهو كتاب تجاهل الحرب القائمة تجاهلا كليا ولم يلق بالا إلى القرن العشرين ، وركز اهتمامه فى أربعة من قديسى أو أبطال القرن التاسع عشر . . اختار ثلاثة رجال وامرأة اشتهروا بتضحية أنفسهم وما تحملوا من آلام فى أربعة ميادين مختلفة وهامة . لقد اعتبروا فوق البشر وأقيمت لهم النصب لتعجب بها الأجيال القادمة . ولكن ليتون استراشى أقبل وفى يده زجاجات من الحمض فغير ملامح وجوههم وأحدث خروقا فى ملابسهم وأضاف جملا

مضحكة ومهينة إلى الجمل المحفورة على قواعد تماثيلهم . وأخذت أحماضه تذيب مواضع ارتكاز التماثيل حتى ترنحت بين عاصفة الضحك التي بدأت ترتفع وتهب بقوة متزايدة . ففلورانس نيتنجيل مؤسسة التمريض ونظام المستشفيات الحديث — فى نظر استراتشى ـ سيدة قادرة . نعم قادره لدرجة مؤلمة ، بل لدرجة قاتلة ، بها مس خفيف ونوع من اللوثة . ارتكبت أحيانا أخطاء بينة : وانتهى به الأمر إلى القول بأنها مجنونة نوعا . والكاردينالماننج ـ الرجل الذى يحمل مسئولية إعادة إقامة صرح الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا ـ عند استراتشى ـ دساس أشر ، ولذلك نجح أكثر من نيومان الأتقى . وماذا أفاده دسه ، إنك إذا نزلت إلى قبره وجدت أن كل ما تبقى منه قبعة الكاردينالية المهملة المعفرة . أما الجنرال بكور دون صاحب الماضى الطويل فى الفروسية والاستكشاف والنبوغ فى قيادة الجنود الأهليين ـ حسب قول استراشى ـ فإنه يتصنع التدين ويقوى نفسه بالاكثار من تعاطى البراندى . شجاع حقا ولكن لنقل ... إنه متوحش نوعا ما . والدكتور أرنولد الذى قوم نظم التعليم فى مدارس الإنجليز الخاصة بعمله الدائب وتدريسه الممتاز فى كلية رجبى طوال أربعة عشر عاما كان قصير الساقين جدا

يخلط بين آرائه وآراء الخالق . إنسان سخيف . لمثل هذا كرس استراشى كتاباته ذات الأسلوب الرشيق « فكتوريون مرموقون » فالعنوان نفسه ينطوى على إهانة . من الذى يريد أن يكون فكتوريا .. مرموقا، أى متعجرفا راضيا عن نفسه . « فكتوريون مرموقون » حقا .

ولكن الكتاب استقبل بنجاح - أيما نجاح . وأتبعه استراشى بعد ثلاث سنوات بسيرة مطولة للملكة فكتوريا . تأنق فى أسلوبها أكثر وحازت نجاحا أتم . وبدأ كل واحد يسخر من الفكتوريين . فالملكة فكتوريا نفسها التى بقيت تمثل الجدة الوقور ، كانت قصيرة بدينة لا تفكر إلا فى نفسها ، لها تكشيرة تنبىء عن غباء وتبويز يدلان على الغرور والعناد . وروى مناسبة مشهورة قضت فيها الملكة فكتوريا قضاء مبرما على شاب من حاشيتها . كان هذا الشاب يتقن تقليد حركاتها فى الاجتماعات الخاصة ، وصل ذلك إلى علم الملكة فأمرته فى حفلة رسمية أن يقوم بتقليدها . ففعل وهو أشد حالات الحرج . وطبعا لم يجرؤ واحد من الحاضرين على الضحك . وبقيت فكتوريا صامتة حتى انتهى . ثم يقول استراشى :

« تدلت أطراف الشفتين الملكيتين ، وحدقت العيون الملكية

فى دهشة، و بدأ المظهر الملكى كله فى الواقع فى أشد حالات الغضب ، وحطمت الملكة الرجل المازح بجملة واحدة : لسنا مسرورين » .

ولكن — بعد ظهور سيرة استراشى أصبح الكل مسروراً ، وأصبحت الملكة ڤكتوريا بذوقها العامى ، وترملها المغالى فيه . وقواعد سلوكها المقيدة ، موضع سخرية ، ولم تعد الملكة العظيمة .

ظهر هذان الكتابان فى عامى ١٩١٨ و ١٩٢١ فى منتصف حكم الملك جورج الخامس ، بعد أن كان جميع الڤكتوريين قد قضوا نحبهم من زمن طويل . وكان يفصل بين العهد الڤكتورى و بين استراشى وقرائه فرجة واسعة شغلت بحكم يختلف اختلافاً بيناً ، هو حكم ادوارد السابع ، وحروب كثيرة هامة ، وتغييرات سياسية . وفقدت الأفكار الفكتورية فى أنحاء بريطانيا مكانتها . ولا يرجع نجاح كتب استراشى إلى أنها أتت بجديد مدهش ، بل لأنها ترجمت أصدق ترجمة عن تحول أخذ طريقه فى العشرين السنة السابقة. لقد كان وريثاً لماكس بيرسوم ، وأوسكار وايلد .

كان استراشى — كبعض كتاب الإنجليز — لا يتورع عن النكات البذيئة التى يستلطفها من لهم اتصالات أرستقراطية وحساسية

رقيقة . . . كان يحب مثلا أن يسخر من الأسماء الدالة على التقعر أو البرجوازية ويقول أحد نقاده : إن هذه بعض التوابل فى فكاهاته. وأضاف أنه كان يذكر الأسماء الغريبة بطريقة قاتلة تغنيه عن التعليق. فهو يقول مثلا : «إن أرثر كلوح يكتب لزميل له فى الدراسة فى كلية رجبى»

« لا أحسب أن هذا جعلنى أنسى أصدقائى الشخصيين من أمثال جيل و بيربردج ووالدرون . وأنت نفسك يا صديقى العزيز سيمبكنسون بصفة خاصة » .

وتحتوى كتب استراشى على تناقضات مذهلة . إنها مليئة بالهجو والسخرية . ولكن كثيراً من المؤرخين يفعلون ذلك . ولكن أسوأ ما فى كتب استراشى أنها لا تحفل بالحقيقة . فمن وقت ظهور كتبه والناقدون يبينون من وقت لآخر كذب الواقعة تلو الأخرى، ويفضحون الأخطاء المتعمدة . فهو يغير فى الوقائع ، ولا يتورع عن الكذب. خذوا مثلا فقرة تصف كيف تحولماننج إلى الدين الكاثوليكى ، زار ماننج روما ، واستقبله البابا وهو لا يزال بروتستانتيا . ويقول استراشى: لا أحد يعرف ما جرى فى هذه المقابلة من حديث . ثم لا يلبث

أن يوهم أن البابا بيوس التاسع بنبوغه ودبلوماسيته رغب إلى مانتج اعتناق الكاثوليكية ووعده بنوع من الرشوة قال له :

« يا عزيزى السيد مانتج لم لاتأتى إلينا ؟ أتظن أننا غير قادرين على الحفاوة بك ؟ »

وهذا التاميح الحقير غير المستساغ يمهد له استراشى بقوله قبل ذلك: إن أحداً لا يدرى موضوع تلك المقابلة،ولا يستطيع الإنسان إلا أن يتخيل . . . ولكن هذا القول كذب مفضوح . لأننا نعرف موضوع المقابلة ، فقد وردت فى مذكرات مانتج المنشورة ، وهو يذكر بوضوح موضوع تلك المقابلة . . . وقد قرأ استراشى تلك المذكرات ، ولكن لاعتقاده أن أحداً غيره لن يفعل أسقط الدليل . وما هذه إلا واحدة من تغييرات فظيعة الحقيقة ارتكبها فى كتاباته التاريخية .

إلا أن بقية كتبه مختلفة جداً ومستساغة . إنها مجموعة من المقالات عن الكتب والمؤلفين فيها تقدير سليم ، ولا أثر للحقد تقريباً فيها . وأغلبها عن حقبة الزمن التى يفضلها على القرن التاسع عشر النشيط القبيح المتزمت . وهو يفضل فرنسا على إنجلترا بصفة عامة . ولا يكاد يوجد — عند استراشى ــ بلاد أو آداب أخرى . فلا

إيطاليا ، ولا الولايات المتحدة ، ولا إسبانيا ، ولا ألمانيا ، ولا النمسا ، لفتت نظره . ولكن ذوقه ـ في حدود هذا الإطار ـ سليم ، وفحصه العقلي عميق ، وأسلوبه يرتفع دائماً تقريباً إلى مستوى الموضوع . وقد جمعت هذه المقالات بعناوين مختلفة : « كتب وشخصيات » و « صور مصغرة » وهكذا . إنها نقد بديع ، وأنا أوصى بشدة كل دارس للأدب بقراءتها .

وقد أوجدت لنا هاتان المجموعتان المتباينتان من الكتب مشكلة غريبة . لماذا يستمسك استراشي بالصدق حين يكتب في الأدب ويجانبه في التاريخ ؟ لماذا نجده واقعياً ومعجباً بالقرن الثامن عشر ، مزدرياً للقرن التاسع عشر ؟ لماذا يرفع من قدر الذين قرأوا وكتبوا وخطبوا ويسخر من الذين عملوا ، إننا متى درسنا حياته وتصورناها بدقة نستطيع أن ندرك أسباب التناقض . فإن من الواضح أن هذا التناقض وليد متاعب لازمت حياته . لقد نشأ في أسرة كبيرة لامعة لها ماض طويل في الخدمة العامة – عدة قرون – تفخر به ، فأبوه نفسه من الفكتوريين المرموقين . جنرال من الذين أقاموا صرح الإمبراطورية البريطانية في الهند – قولا وعملا . فقد كان مهندسا مشهورا عاون على مد خطوط

السكك الحديدية الهندية وتنظيم العناية بالغابات . وزميلا بالجمعية الملكية ورئيسا للجمعية الملكية الجغرافية . حصل على لقب فارس لخدماته ، وأصبح سير ريتشارد استراشى . وهو — فى تقدير أغلب الناس — قد وصل إلى أربعة أضعاف ما يمكن لابنه أن يصبح أبدا وكان قد بلغ الثالثة والستين من عمره حين أنجب ليتون استراشى ، وعاش حتى بلغ الواحدة والتسعين . وابن مثل هذا الرجل قل أن يفلح ليأسه من بلوغ مستوى أبيه . وقد يندفع أحيانا فى عمل مرهق وينجح . ولكن فى عمل مختلف ،أو يقضى وقته فى التأنق والكسل وقرض الشعر والسخرية بأبيه ، أو بمن يشبهون أباه . (تذكروا صمويل باتلر الدودة الصغيرة الحقيرة) . وقد اختار ليتون استراشى أن يدافع عن نفسه عن طريق السخرية .

ومن تصرفاته الهامة ذات الدلالة إطالته لحيته . فقد أرخاها فى سن الواحدة والثلاثين ، أى بعد ثلاث أو أربع سنوات من وفاة أبيه ، وسمعنا أنه وهو فى كمبردج قرأ — لمجموعة من أصدقائه الحميمين مقالا فكها — قد يكون جادا فى مرماه - عنوانه : هل يجب

على الأدب أن يسبل لحيته ؟ وبوسعنا أن نقول إنه حاول فى مظهره أن يكون فكتوريا ومرموقا .

ولكتاباته باعث آخر . لقد كان استراشى ضعيف البنية وربته أمه بعناية فائقة . وأعلنت الحرب وهو فى الرابعة والثلاثين ، فسارع يعلن أن ضميره لا يسمح له بالاشتراك فيها . وقال فى بيانه للجنة الفحص إنه يعارض منذ مدة و بشدة النظام الاجتماعى ، وإن الحرب قوت عقيدته ضده . وليس ذلك لأنه فاشيستى أو شيوعى . كلا . إنه بعقيدته أرستقراطى . لقد كان يفضل أن يعيش فى زمن لا يطالب فيه الرجل المرهف الذوق بالعمل . إنه يكره فكرة الواجب و يعتبرها أحد اختراعات القرن التاسع عشر الآلية الكريهة . ولقد قال أوجدن ناش « حين يهمس الواجب : يجب عليك » ولكن استراشى يقول : « لا . لا أستطيع » . لذلك حين اختار أن يكتب فى التاريخ وجه نظره إلى العهد الفكتورى حيث الإحساس بالواجب الأخلاقى على أتمه ، وحيث نمت بسرعة المسئوليات الاجتماعية . وكان جميع الأشخاص الذين هزأ بهم من المصلحين ممن حاولوا تحقيق ماظنوه حقاً وشجعوا الآخرين على فعله . الواجب. المسئولية . الأخلاق . العمل . و كل ذلك فى قول ليتون استراشى هراء . حتى وصفه البديع لموت الجنرال جوردون

بحراب السودانيين وسخريته اللاذعة من الممثل الدبلوماسى لإنجلترا فى مصر (ايفيلين بارنج) يدلان على مدى كراهية استراأشىوعدم ثقته بالمفاوضين المسالمين من أمثال أبيه ، و إعجابه بالأبطال القساة الدمويين الذين عاشوا على عواطفهم .

فى هذا بعض الإجابة عن مشكلة استراشى . إن كانت مشا رك شخصية بحتة ، و كانت معرفتك بالعالم محدودة ، و كنت لاتعرف شيئاً عن السلطة والمسئولية وضرورة البت فعليك أن تكتب نقداً لاتاريخاً. فالنقد يجب أن يكون عاطفياً . أما التاريخ فلابد أن يكون صادقاً .

G.L.Strachey : « Landmarks in French Literature » (Oxford, 1912)

« Eminent Voctorians » (Putnam1918)

«Queen Victoria» (Harcourt,Brace 1921

Books and Characters (Harcourt, Brace, 1922)

Elizabeth and Essex (Harcourt, Brace, 1928)

Portraitas in Miniature (Harcourt, Brace, 1931)

Characters and Commentaries(Harcourt, Brace, 1933)

Max Beerbohm, Lytton Strachey (Knopf, 1943 ,

Guy Boas, Lytton Strachey (Oxford 1935)

C. R. Sanders,The Strachey Family (Duke University, 1953).

المرأة والحرب

ازداد انتشار الروايات التاريخية . لقد كانت منتشرة دائما — فيما أعتقد — ولكن انتشارها فى السنوات العشر الأخيرة ازداد عاما بعد عام . وراج نوع منها رواجا كبيرا فى الأيام الأخيرة : الروايات التاريخية للسيدات .

لنفكر أولا فى حقيقة قاسية واقعية : فيما عدا ظروفا نادرة صنع الرجال التاريخ دائما ، فالتاريخ إذاً مذكر .

والآن ننتقل إلى حقيقة رقيقة لينة : إن النساء مشغوفات بالخيال ، فالخيال مؤنث .

الرجال يصنعون التاريخ . والنساء يحببن قراءة الروايات التاريخية . وهن – بصفة عامة – مشغوفات بالقراءة عن النساء ، أكثر من القراءة عن الرجال . وهنا نجد أنفسنا أمام تناقض يساعدنا الخيال على الخروج منه . فالمؤلف الذى يريد أن يكتب رواية تاريخية للنساء

يختار واقعة تاريخية كبيرة مشوقة فيهذب الرجال فيها و يصقلهم و يجعلهم أكثر وسامة ورقة وإحساسا . ثم يبحث عن امرأة حقيقية يدير روايته حولها ، أو يخترع امرأة يضعها فى وسط الواقعة كلها ، و يتصور ما كان يمكن أن يحدث لو كانت قد وجدت حقا .

فمنذ وقت قريب مثلا ألفت سيدة نمساوية اسمها « آن مارى سيلنكو » رواية طويلة مليئة بالثرثرة عن عهد نابليون . ودارت الرواية كلها حول فتاة فرنسية لا تتميز بالجمال ، و إن كانت لها جاذبية برغم أنفها المتعجرف وللبطلة اسم عاطفى جميل (ديزيريه) (المشتهاة) . وهى تحيا حياة تطابق اسمها ، فقد عرض نابليون نفسه أن يتزوجها ، ومن بعده عدد من ضباطه ، وتزوجت أخيرا جنرالا كبيرا قويا هو جان بول برنادوت الذى انتخب بعد ذلك وليا لعهد السويد ، وأصبحت بمضى الوقت ملكة للسويد وعاشت فى استقرار وأمان .

فكرة جميلة فاتنة ، ولكنها فكرة نمساوية كما تعرفون : التفاؤل والخفة وعدم تقدير المسئولية والابتعاد عن أخذ المسائل جديا . أيجوز أن أكون أنا هذا ؟ إن هذه التغييرات محيرة ولكنها سارة كرقصة

الفالس السريعة التى تأتى فيها لحظة يبدل الراقص فيها زميلته أوملابسه فى حين أن الموسيقى والرقص مستمران ولاضرورة للتوقف.. أوالتفكير. إنه لشىء فاتن حقا. ولكن البون بينه وبين التاريخ شاسع، ومخالفته للحقيقة فاضحة. فقد كانت أياما عصيبة تلك التى كان نابليون يهدد فيها العالم كله. لم يكن نابليون سفاحا قاسيا كهتلر ولكنه كان مصابا بجنون السلطة مما جعل كثيرا من شعوب أوروبا تشعر — لفترة طويلة — أن مجنونا قويا حاد الذكاء لايعرف الرحمة يسيطر على أقدارهم. ولكنك لاتجد شيئا من ذلك فى كتاب الآنسة سيلنكو. لماذا، لقد عرفت بطلتها نابليون وهو معدم لايملك بزة مناسبة. وكانت ترسل إليه الطعام فى سجنه. وتتسابق معه فى الحديقة. فكيف كانت تستطيع أن تأخذه مأخذ الجد؟ إنه رجل فيه قدرة وطموح، ولكن هكذا هو التاريخ كما تراه روائية من الجنس اللطيف.

ومن الغريب أن تترك ديزيريه وتقرأ الفصول الجافة لتاريخ كتبه أحد الرجال عن تلك الأيام.. حياة نابليون لطومسون مثلا. هنا تبدو الأمور أكثر صعوبة وأكثر كآبة ويظهر الأشخاص فى أوضاعهم

المناسبة وسط الجموع الحافلة التى تؤثر فيهم أعمالهم وتشرح المشاكل وصلتها بالقرون السابقة واللاحقة وتدرس دقائقها . أما موسيقى الفالس فتصمت تاركة المجال لهمسات الدبلوماسيين وخدشات الأقلام التى لاتتوقف، وسير الجنود المستمر، ودوى المدافع .

خذ مثلا حادثا هاما واحدا فى معركة أوروبا ضد نابليون . ماذا كان مصيره بعد هزيمة واترلو، كان لايزال إمبراطورا ، وكان لابد من إقناعه بالتنازل عن العرش أو إجباره على ذلك وعلى الابتعاد من باريس ومن فرنسا كلها إن أمكن . إذا استطعت أن تتصور لعبة شطرنج إحدى قطعها الهامة محشوة بالمفرقعات يجب نقلها بحذر شديد، أمكنك أن تتصور وتفهم تحركات نابليون وزعماء أوروبا الآخرين فى صيف عام ١٨١٥ .

وقد روى طومسون الحوادث من وقت تنازل الإمبراطور . قال :

« أرسلت حكومة مؤقتة (يرأسها فوشيه) رسالة إلى الجنرال الألمانى بلوخر الذى كان يتقدم نحو باريس بأقصى سرعته ، تخطره بتنازل الإمبراطور وتطلب هدنة . ورفض بلوخر الطلب مالم يسلم نابليون

نفسه . وطلب فوشيه فى الخامس والعشرين من يونيو من نابليون مغادرة باريس ، وأذعن نابليون وقصد للمرة الأخيرة القصر الريفى (المالميزون) حيث شبح جوزفين . وفى اليوم التاسع والعشرين اقترب بلوخر لدرجة تمكنه من خطف غريمه .. وكان فى حالة معنوية تجعله يود لو أطلق عليه الرصاص . ولكن فوشيه سبقه مرة أخرى وأمر نابليون بالابتعاد إلى ميناء روشفور . ويوم وصوله إلى هناك قبل بلوخر الهدنة .

(ونحن نعلم — من مصادر أخرى كمذكرات بوريين — من الذى حمل إلى نابليون الرسالة التى تحوى الأمر بأن يغادر المالميزون ، كما نعرف طبعا أنه لم يأت ذكر لسانت هيلانة إلا بعد انتهاء المفاوضات جميعها) .

هذه هى الوقائع . أما عن الخيال ، فكان لامفر من إدخال امرأة تلعب دوراً هاما . لذلك جعلت الآنسة سيلنكو بطلتها ديزيريه تحمل الرسالة إلى نابليون وتتقبل استسلامه وتخبره بأن عليه أن يذهب إلى جزيرة سانت هيلانة ، وكل ذلك فى المقابلة القصيرة المؤثرة . وديزيريه نفسها تصف لنا تلك المقابلة فتقول إنها ركبت من باريس إلى المالميزون تحمل رسالة من الحكومة الفرنسية :

« وصحت به : « جوزيف . لابد — من فضلك — لابد أن أتحدث إلى أخيك فوراً » . فقال لى : « إن جلالته يجلس على مقعد فى البربى . . إنك تذكرين البربى ومقعده يا ديزيريه » . إننى أعرف مسالك البربى التى رتبتها جوزفين برشاقة وأعرف كيف ينحرف الشخص حتى لا يصدم بالحاجز ثم يجد نفسه فجأة ، وقبل أن يتوقع ، أمام المقعد الأبيض الذى لا يتسع إلا لاثنين متلاصقين . وكان نابليون يجلس على ذلك المقعد الصغير .

« ولم يسمعه أحد وهو يقول لى : « اوجينى » ولا رآه ينتقل إلى حرف المقعد الذى لا يتسع إلا لاثنين متلاصقين . ولما التصقت به التفت إلى وابتسم . « لقد مضى وقت طويل — سنون كثيرة منذ نظرنا — أنت وأنا — إلى هذا الحجز المتفتح الأزهار » .

وعند ذلك قلت له : « إن الحكومة الفرنسية طلبت منى أن أبلغك أن الحلفاء لن يقبلوا استسلام باريس إلا بعد مغادرتك « فرنسا »

« فقال : ياسيدتى — وكنت ملتصقة به لدرجة أنه كان « يتحتم على أن ألقى برأسى للخلف لأستطيع رؤية وجهه — تقولين إن

الحكومة الفرنسية تريدنى أن أرحل . والحلفاء ؟ . وامتقع وجهه وظهرت فقاقيع صغيرة فى أطراف فمه » .

فقلت : إن الحلفاء يصرون على أسرك يا جنرال » .

وتنفس بقوة : عندما رأيتك ياسيدتى منذ لحظة وعرفت وجهك تصورت لحظة أن شبابى قد عاد . لقد كنت مخطئاً » :

« فقلت : لماذا ؟ إننى لا أزال أذكر الليالى التى تقابلنا فيها وجهاً لوجه . كنت قد صرت جنرالا شاباً وسيما » .

« لقد كنت أتحدث كمن فى حلم . وكانت الكلمات تجرى من تلقاء نفسها على لسانى . وقلت له فى إحدى المرات وقد طال جلوسنا ، وأسود لون العشب تحت أقدامنا : إنك تعرف مصيرك ، وكان وجهك أبيض فى ضوء القمر . فقال : كان ذلك أول مرة قبلتك فيها يا أوجينى » .

وبعد لحظة قصيرة من هذه الجلسة العاطفية قدم نابليون سيفه للسيدة الساحرة ، واستسلم لديزيريه وللحلفاء .

ثم أبلغته أنه سوف يعتقل فى جزيرة سانت هيلانة : وهكذا سبقت التاريخ بما لا يقل عن شهر .

هذا هو الفرق بين التاريخ كما يكتبه الرجال، والخيال كما تتصوره النساء . أحدهما جاف كله منطق ونزاع على السلطة ، والآخر مشوق ولكنه سهل . أحدهما نثر والآخر يكاد يكون شعراً .

هل فى مقدورنا أن نوجد نموذجاً لبطلة تاريخية عاطفية . بلا شك . فلنحاول :

١ ـ إنهـا نشيطة تواجه دائمـاً أزمات لا يستطيع الرجال الصمود أمامها .

٢ ـ ليس لها برنامج ثابت أبداً ، ولكن عندها ـ بدله ـ مجموعة من المغامرات ورقصات الفالس بين كل أزمة وأخرى .

٣ ـ إنها جميلة أو على الأقل ذات جاذبية قوية .

٤ ـ إنها تلبس بأناقة ولا بد من وصف ملابسها بدقة وتفصيل .

٥ ـ إنها محبوبة تلهم الآخرين الحب وتستمتع به . وهى فى بعض الأحيان مايسميه بعض الناس شريرة ، ولكن باعثها دائماً حسن . وخير مثل على ذلك « عنبر » التى خلقتها كاثرين وندسور التى كان شعارها فيما يبدو : « الحب يقهر كل شىء » . ومثل آخر ، رواية مؤلمة تتصل بنشأة المسيحية اسمها « الجليليون » بطلتها مريم المجدلية التى تقوم

بخلع جميع ملابسها فى مسرح عام متسع ، ولـكن بباعث شريف هو إنقاذ أصدقائها من مذبحة . وبمجرد إتمام الإنقاذ « أحاط بها شعرها كرداء ودفنت وجهها بين يديها وكان ذلك هو الحل الوحيد » . وفى الخيال مهما بدت البطلة فاسدة فإن قلبها ـ فى خيال الـكاتبة ـ دائماً نقى . فهى رابحة على الحالين .

٦ ـ هى ماهرة جداً . إن بعض الفتيات لسن كذلك ، ولـكن البطلة فى الروايات الخيالية تحل دائما جميع المشا كل .

وهـكذا ترون كيف تختلف البطلة عن النساء العاديات . فليس المقصود وصف الطبيعة ورواية التجارب العادية . إنها نوع من تجربة أحلام المؤلفة والقراء ، نوع من تحويل الأمانى إلى حقائق ، وإتمام مالا يتوقع . إنها مجموعة متناقضات . إن بطلة « أبناء الجليل » مثل فاضح لهذا التفـكير . لقد عرفت مريم المجدلية على مدى القرون أنها امرأة سوء أنقذها المسيح بمعجزة . فـكان من الممكن كتابة رواية جميلة عن امرأة من هذا النوع وإن كانت تتطلب تحليلا نفسياً عويصاً وبخاصة الإحساس بالخطيئة وطريق التوبة . ولـكن المؤلفة تستبعد ـ بغير اكتراث ـ بواعث الرواية التى وردت فى التوراة ، وتأخذ على عاتقها أن تظهر لنا أن مريم المجدلية كانت فى الواقع سيدة طيبة طول

حياتها . ومعنى ذلك أنها لم تكن بحاجة لقوة المسيح لتتوب ، و بذلك تقضى على المعجزة التى تقول بها التوراة . ولكنه السرور العاطفى بالسماح لمريم أن تكون بطلة وأن تجمع بين المتناقضين .

وحين بلغ بى التفكير هذا المدى بدأت أعتقد أن التاريخ يحوى منجما ذهبياً لعشرات من الكتاب العاطفيين . فأنت تستطيع أن تبث الحياة فى كل حادث وأية فترة تاريخية بأن تضع امرأة فى وسطها . لنفرض أن نأخذ بطلة عاطفية مستكملة الصفات : عينان خضراوان ، وشعر أحمر ، شهوانية ، ولكنها طيبة القلب ، أنيقة فى ملبسها ، حادة الذكاء ، قوية الإرادة ، فيها طفولة ومرح وعدم مبالاة . ولنسمها : « موللى مادكاب » . إننا نستطيع أن نمضى ثلاثين سنة مربحة من عمرنا فى تأليف المغامرة تلو المغامرة عن البطلة نفسها .

تصوروا عناوين الكتب « موللى مادكاب والحرب الأهلية » لا . هذا قد سبقنا إليه كاتب آخر . أليس كذلك ؟ حسنا . إذا « موللى مادكاب وصلح ميسورى » أو « موللى مادكاب والحرب الصليبية الرابعة » إن فى وسعنا أن نجعلها أميرة من بيزنطة تسلطت على الصليبيين وجعلتهم يحاربون جميعاً من أجلها . « موللى مادكاب و يوليوس قيصر » لا . لقد كتبها برنارد شو ومثلتها فيفيان لى . حسنا .

إذا « موللى مادكاب وآل بورجيا الآخرين » أو هذه وهى أحسن الجميع « موللى مادكاب وسفينتها الصغيرة نينا » وتستطيع أن تضع فى السفينة كولومبس باعتباره شخصية ثانوية ، ولكن يجب أن نوضح أن جاذبية بطلتنا وقوة إرادتها هى التى أقنعت البحارة بالاستمرار والمواظبة . ربما ظن كولومبس أنه يفتح طريقا جديدا للهند ولكن بطلتنا العاطفية الكاملة الأوصاف موللى كانت تعلم جيداً أنها تكتشف أمريكا . فإنه لا يجوز أن نشك فى مقدرة واحدة من آل مادكاب .

Annemarie Selinko, Désirée (tr, Joy Gary, Morrow, 1952).
F. G. Slaughter, The Galileans (Doubleday, 1953).
J. M. Thompson Napoleon Bonaparte (Oxford, 1952).

الغريب

كان بغير بيت يأويه، ولا أصدقاء كثيرين . ولم يكن يحب أحدا ، ولا يثق بإنسان ، ولا حتى بنفسه . ومع ذلك كانت الإنسانية له أعز أصدقائه . فقد كان يحب الشعب .

وأغلبنا يعرف اسمه ، أو على الأقل الاسم الذى نشر به كتبه . لقد اتخذ لنفسه اسم « چورج أرويل » ، وهو اختيار لم يخالفه التوفيق لأن اسمه الحقيقى أقوى . لقد كان اسمه « اريك بلير » وهو اسم ينسجم نوعا مع وجهه الطويل النحيف القوى ذى العظام البارزة . فى حين أن « چورج أرويل » يوجه تفكيرنا إلى نوع من الرجال الضعفاء ذوى الشعر المتموج ، والذين يلبسون الصديريات الحريرية ونقابلهم فى بلومزبرى فى السنوات التى تلت ١٩٣٠ . ومع ذلك فلنسمه «چورج أرويل » ما دام هذا هو الاسم الذى اختاره لنفسه .

ولعلنا نعرف روايته القوية حول الطوباوية المقلوبة لمستقبل الدولة التوتاليتارية ١٩٨٤ وسخريته من الاستالينية (مزرعة الحيوان) .

ويمكننا أن نقول إن كل ما كتبه جدير أن يقرأه ويدرسه الكتاب الشبان . ولقد استمتعت أخيرا بقراءة ما أخشى أن يكون الكتاب الأخير لجورج أرويل مجموعة مقالات وضع لها عنوانا ساخرا : « هكذا . هكذا كانت المسرات » . هى مجموعة ملاحظات مسلية ممزوجة بالحزن ، تمتزج فيها سرعة الخاطر بالكآبة . وهى بصيرة نفاذة يخفف من حدتها قلب مرهف عطوف . خذ مثلا هذا الوصف البسيط له وهو يطعم غزالا فى حديقة مراكش .

تكاد الغزلان تكون الحيوانات الوحيدة التى تبدو صالحة لأن تؤكل وهى لا تزال حية . فلا تكاد تلقى نظرة علي فخذيها حتى يتجه تفكيرك إلى الصلصة بالنعناع . وربما كان الغزال الذى أطعمه قد أدرك هذا الخاطر الذى مر بذهنى ، فقد تناول كسرة العيش التى مددت له يدى بها ، ومع ذلك فكان واضحا أنه لا يحبنى . لقد أسرع يقضم لقمة العيش ثم خفض رأسه محاولا أن ينطحنى . ثم أخذ بسرعة قضمة أخرى ونطحنى مرة ثانية . لعله تصور أنه لو استطاع أن ينطحنى ويبعدنى تظل قطعة الخبز معلقة فى الهواء . وجاء أعرابى يعمل فى مكان قريب . ووضع جاروفه الثقيل على الأرض واتجه إلينا يقلب

النظر بين الغزالة وقطعة الخبز فى شىء من الدهشة وكأنه لم يسبق له رؤية مثل هذا المنظر . ثم قال فى استحياء بالفرنسية :

أستطيع أكل بعض هذا الخبز .

فناولته كسرة اختزنها شاكرا فى مكان خفى من أسماله »

كان أرويل نفسه فى ذلك الوقت فقيرا معدما ، ولكن كان عنده من الحنو والعطف ماجعله يقتسم القليل الذى يملكه مع رجل غريب وحيوان ويعطف على الخنوع والعداوة اللذين فرضهما عليه الجوع . لقد كان قلبه عطوفا .

إن أرويل فى عداد الغابرين الآن ، فقد توفى عام ١٩٥٠ وهو فى سن السابعة والأربعين بذات الصدر .

وربما كان ذلك نقلقه على الإنسانية، فقد كان يحب الناس ولكنه وجد أن أكثرهم لا يستأهلون الحب . وإنك لترى أنه كان يجمع بين الإحسان والنقد . والظاهر لى أن السر الذى وراء جورج أرويل أنه كان غريبا وليس فى موطنه . لقد أمضى أغلب

أيام حياته فى غربة يدير نظره إلى الداخل، وكان بقية أيام عمره مسجونا يسعى للهروب.

أسرته من أصل اسكتلندى ، ولكنه التحق بمدارس إنجليزية وحاول أن يصبح إنجليزيا ، فاسمه المستعار « أرويل » مشتق من نهير صغير بجنوب إنجلترا ، بالقرب من مكان تملكه أسرته . أما جورج فهو القديس الراعى لإنجلترا .

وكان مولده فى البنغال فى أقصى الجزء الشرقى من الهند ، وهى أغنى وأكثر المقاطعات الهندية خليطا. ومولده فى هذا المكان المزدحم المتعب جعله خارجا عن الصف . . منعزلا . شأن رديار كيبلنج بريطانى هندى ، لا هو بالبريطانى ولا بالهندى . وحدث له ما حدث لكيبلنج أرسل فى سن مبكرة جدا إلى إنجلترا فشعر أنه منفى أكثر من ذى قبل (وقد تذكرون أن كيبلنج وضع فى رعاية امرأة عجوز فظيعة تدير منزلا كان هو وأخته نزيليه الوحيدين، وأن المرأة وابنها عذباه وازداد تعذيبهما له لأنه كان وحيدا شاذ التصرفات ونصف أعمى) . وقد صرف أرويل خمس أو ست سنوات فى جهنم صغيرة ليست أقل عذابا بسبب صغرها. لقد عاش فى جهنم الوحدة والاضطهاد وجنون العظمة.

وكانت المدرسة نفسها لا تريده . اعتقد ناظرها أنه فقير معدم قبل لكفاياته من باب الشفقة ، وربما كسب للمدرسة سمعة طيبة بنيله جائزة تعليمية كبيرة . . يا للحطة والقذارة !! لقد ظل أرويل زمنا طويلا — جدا — يذكر أن الجوع اشتد به حتى إنه مشى على أطراف أصابعه ليسرق قطعة خبز يابسة من الكرار فى الساعة الثانية صباحا . وهو يذكر قذارة الآنية المعدنية التى كان الأطفال يأكلون فيها العصيدة وعلى أطرافها آثار الأكل المتروك من اليوم السابق والأسبق وهكذا .

وكانت المدرسة مع ذلك تؤدى عملها بطريقة ما . فقد كسب أرويل منحة دراسية فتحت أمامه باب أشهر الجامعات وأكثرها تشامخا « إيتون » والطالب الذى يلتحق بايتون عن طريق منحة دراسية يعتبر معزولا لأنه يعيش بمعزل عن الطلبة الذين يزيدون عنه يسارا وإن كانوا أقل منه ذكاء . وهو أيضاً منعزل بالنسبة لطلبة المدارس الأخرى لأنه يمتاز عليهم ، لأن « إيتون » عظيمة بسمعتها وقوة الدروس التى تدرسها لطلبتها . وقد أشار زملاء أرويل فى مذكراتهم الكثيرة إليه . يقول سيريل كوناللى عنه إنه كان شديد الغرور

منطويا على نفسه، فلم يكن من الثائرين الملحوظين . و إنه ولاشك كان أبعد ما يكون عن طلاب إيتون .

وكانت الخطوة الطبيعية التالية فى حياته أن يحصل على منحة أخرى ليلتحق بأكسفورد ، أو كمبردج ، ثم يسعى للعمل فى وزارة الخارجية، أو أى عمل حكومى آخر . فإما أن يكون قد فشل أو ثار أو حمله أهله على تغيير طريقه . فقد التحق فى عامه الثامن عشر بالبوليس الإمبراطورى الهندى وخدم فى بورما حيث زاد شعوره بالانعزال لأنه كان محاطا بأشخاص يخافونه أو يكرهونه أو يزدرونه . (ونجد صدى لهذه الفترة من حياته فى كتابين من كتبه : « أيام بورما» و « صيد فيل»). وأخيرا فى سن الرابعة والعشرين أفلت منه الزمام وعاد إلى أوروبا إنسانا فاشلا . . يعتبر كل هيئة اجتماعية منظمة عصابة . وغدا منبوذا يعيش و ينام بين القاذورات ، لاسكن له ولا أمل . وترك صورا مريعة لاتنسى عن هذه الفترة . مطاهى قذرة لأشهر مطاعم باريس ، تزدحم بالصراصير ، و الخرق القذرة ، والعرق المتساقط فى الطعام . وعن المطاهى البريطانية فى بيوت السكن البريطانية المتوسطة الأكثر قذارة . اقرأوا كتابه :

« فى أزقة باريس ولندن وما حولها » وكتابه الذى لم ينشر بعد فى الولايات المتحدة « الطريق إلى ويجان بير »

وفى الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين (وهى سن حرجة دائما فى أطوار الحياة) بدأ يصنع لنفسه حياة جديدة و يعمل على أن يصبح كاتبا وكان يقيم أوده من إدارة دكان صغير فى القرية . وكان قد استوعب قدرا كبيرا من نظريات ماركس (وأظنكم تذكرون أن سنوات ١٩٣٠ وما بعدها كانت سنوات انتشار النفوذ الشيوعى وازدياد معتنقيه) . فلما اندلعت نار الثورة الإسبانية سافر إلى إسبانيا وانضم للقوات اليسارية . ولكنه — حتى فى حربه هناك — لم يكن موفقا ، فقد انضم إلى قوة محاربة غير مرضى عنها من الشيوعيين (اتهمها بعد ذلك وحاربها عملاء ستالين وهكذا أصبح منعزلا ضمن منعزلين وسط منعزلين) .

وجرح فى إسبانيا . وقضى الشتاء فى مراكش ، وهنا بدأ يحس بأثر المرض الذى أدى فى النهاية إلى وفاته . وألف كتابا عن الحرب الإسبانية استقبله يساريو إنجلترا أسوأ استقبال وتجاهله الآخرون . ولم

ينشر فى هذه البلاد حتى العام الماضى بعد ماسقطت بعض الغشاوات عن أبصارنا واسمه « تحية إلى قطلونيا » .

عاد أرويل إلى بريطانيا وأعد نفسه ليصبح كاتبا محترفا . وكان له خصوم كثيرون . بذلت عصبة ستالين وأنصارهم أقصى جهودهم لوأد عمله . ولكن طريقته فى الكتابة تميزت لدرجة أن وجدت كتاباته طريقها للنشر بأكثر مما كانوا يودون . وخير ما كتب رواية مشهورة يصف فيها المستقبل الكالح للحياة الاشتراكية التى تخضع لعبادة الدولة وسلطان البوليس وطرق التعذيب العارية من الصدق والقيم الثابتة حين تحولت سيطرة طبقة إلى سيطرة عصابة . . . العهود المظلمة الجديدة المسماة « ١٩٨٤ » إنه كتاب عظيم جدير بأن يوضع بجوار كتاب فولتير « كانديد » أو كتاب سويفت « رحلات جوليفر » .

أما ما سيبقى من كتاباته الأخرى فنقده اللاذع جدا فى الأدب والاجتماع . إنه يكتب بوضوح ممتع ومقنع لا تقعر فيه ولا مراوغة . يا إلهى! . ما أصعب أن يكتب الإنسان بأسلوب واضح منتظم كحبات العقد المرتب ، نظيف كالقميص المغسول، مقتصد كعملية جراحية ناجحة،

لا يتوقف كالآلة الدقيقة ، رشيق رشاقة العداء السريع . وتزداد الصعوبة حين تكون الكتابة عن السياسة ؛ إذ أن الإنسان عند ذلك يندفع إلى الحماسة والجلجلة ، أو يهبط إلى المبتذل من التعابير عن القيم الديمقراطية والنزعات الطبقية ، والتراث التاريخي ، ورسالة الشعوب وما إلى ذلك من الأمشاق التي يتوارى وراءها عادة فقر التفكير ، فإذا كان الشخص وحيدا — شأن أرويل — فمن العسير عليه أن يتخلص من المرارة ، وألا يرد الصفعات لخصومه الشخصيين ، وأن يخلص كتاباته من السهام المسمومة للوصول إلى نتائج سلبية . ولكن أرويل استطاع أن يحافظ على اتزانه ، وأن يستمر في تفكيره السليم وعطفه على بني جنسه ، وأن يطرق ويصقل أسلوبا لاذعا مستقيما .

ثم استطاع بعد ذلك أن يحقق ما لم ينجح في تحقيقه إلا قليل من الكتاب المعاصرين ، وقد استطاع أن يؤلف بثلاثة أو أربعة أساليب كتابية مختلفة ويجمع بينها أحيانا : الرواية ، والذكريات الشخصية ، والنقد الأدبي والتعليقات الاجتماعية . فكثير من نقاد الأدب يكتبون كما لو لم يكن للشعر أو للنثر صلة بالعالم الذي كتبوا فيه أو الأشخاص الذين تحدثوا عنهم . وكم من مؤلفي الروايات يكتبون كما لو كان

أشخاص رواياتهم لم يسبق لهم أن قلبوا صفحات كتاب واحد . أو أن الأدب شيء مخجل . وإن تجارب الحياة الأخلاقية لاتستأهل ذكراً . ويبدو بعض كتاب علوم الاجتماع كما لو كانوا يعتقدون أن الفن ليس من ضروريات الحياة . وهم فى ذلك مخطئون . وأرويل محق فى الجمع بين طرق التفكير هذه وأنواع كتابته ، ولو أنه زاد فى صعوبة مأموريته .

وأميز صفاته قوة بصيرته . كان ينظر إلى كل شيء - حتى نفسه - بحيدة و بغير ما تحيز . و بذلك استطاع أن يرى الأشياء بوضوح . فنجده حتى النهاية يتغلب على أوهامه الأولى من أمثال تلك النظرية الماركسية التى تقول : إنه لايوجد فى العالم إلا طبقتان تكره كل منهما الأخرى . ونجده فى كتاباته الأخيرة يفضح بقوة مواطن الضعف العقلى والعاطفى فى أولئك الذين سيقرأونه ... أى المثقفين . تراه وهو يقوم بتحليل مرهق وثاقب عن الوطنية باعتبارها مخدرا أدمن عليه العقل . والوطنية فى تعريفه ليست مجرد التعصب للوطن ، بل تشمل الشيوعية والتعصب للون (الأسود والأبيض على حد سواء) والإحساس الطبقى (بنوعيه) ودعوة السلام وكراهية بعض الأجناس

والتروتسكية ، وبوجه عام أغلب الاعتقادات الجماعية التي يتمسك بها في هذه الأيام غالبية سكان العالم ضد ما يمليه العقل ، وكتابه « مذكرات عن الوطنية » جدير وحده بكل تقدير . ومما يلذ لنا أن نتابع أرويل في عطفه على الغرباء من أمثال هنري ميللر ورسامي البطاقات المسلية والأطفال (لأن الأطفال من الغرباء أيضا . . . وهم لذلك ينظرون إلى الأمور بوضوح) . وكثيرون منا يوافقونه على هذا العطف والتحليل ، ولكن القليل منا هم الذين يستطيعون أن يفكروا فيه من تلقاء أنفسهم ، وإن استطاعوا فما كانوا ليعبروا عنه بمثل هذا الوضوح والدقة. مسكين أرويل ! لقد كان إنسانا شقيا غير قانع ، كذلك الرجل الذي تحدث عنه شوبرت في أغنيته « غريب في كل مكان » ولكن شأنه في ذلك شأن آخرين من أمثال ثورو وبسكال . لقد مكنته هذه الغربة أن يرى بوضوح لأنه كان وحيدا يقف بمنأى عن الزحام ولكنه ما كان يشعر — مع ذلك — بكراهية للجموع الكثيرة الغبية ، أو الأفراد المعذبين المضطهدين .

G. Orwell, Animal Farm (Harcourt. Brace 1946)
Dickens, Dali, and Others (Reynal and Hitchcock 1946.) 1948 (Harcourt, Brace, 1949)
Burmese Days (Harcourt, Brace, 1950)
Coming Up for Air (Harcourt, Brace, 1950)
Down and Out in Paris and London (Harcourt, Brace 1950)
Shooting an Elephant (Harcourt, Brace, 1950)
Homage to Catalonia (Harcourt, Brace, 1952)
Such, Such Were the Joys (Harcourt Brace,1953)

المسيحيون والأسود

لا يزال حادث من أعظم حوادث العالم ينتظر الكاتب الملهم — كاتب يتميز بالنبوغ والعلم والإدراك — ليضعه فى كتاب . ووضعه فى تمثيلية ليس بالأمر الهين مالم يقيض له عبقرى من طراز فريد . إنه موضوع لرواية رائعة من طراز « الحرب والسلام » . وفى مقدور مؤرخ أن يكرس حياته كلها له . تعرضت بعض الأوبرات و بعض الأفلام ذات المناظر الخلابة لهذا الحادث ولكنها كلها سطحية لا عمق فيها . ولم ينل حقه من الشعر مع أنه يصلح أساساً لملحمة كملحمة توماس هاردى « ملوك بالوراثة » .

إنه موضوع فخم من أهم الموضوعات التى وجدت، يجمع بين الفزع والجمال . والوقائع الجامدة والتصوف الرفيع . العمل الجسمانى العنيف والدس السياسى المعقد والمناقشات الفلسفية العويصة . إنه يجمع الماضى بالحاضر ويجمعهما بالأزل. الموضوع هو اعتناق العالم القديم — اليونانيين والرومانيين — للمسيحية .

وقد كان الموضوع دائماً موضع اهتمامى العميق ، لأننى طالب علم

كلاسيكى ونشأت مسيحيا متعبدا ، قرأت عنه وفكرت فيه ما يقرب من ثلاثين عاماً . وكلنا نهتم به لأننا نعيش فى زمن يشهد تغيرات روحية قوية منتشرة و بناء عقائد وهدم عادات وتمذهب واعتناق أديان والتنكر لها واستشهاد ، وقد نستطيع أن نفهم أنفسنا وأزماننا لو أدركنا كيفية قيام المسيحية وفهمناه فهما أدق وأوضح .

والأمر الوحيد الذى أنا متأكد منه ووجدت له فائدة كبرى فى جميع المناقشات التاريخية والفلسفية هو أن « للحوادث المعقدة أسبابا معقدة » .

إنها فكرة بسيطة كما ترون، لكن كم من الناس أعملوا فكرهم ، وأجهدوا قريحتهم ، وأضاعوا وقتهم فى البحث عن تفسير واحد يخضعون له جميع المشاكل الأخرى ؟ إن الأمر أشبه بمحاولة البحث عن جذر أساسى ضرورى لحياة شجرة ضخمة والحق أنه ما من حقيقة واحدة منعزلة عن غيرها من الحقائق ، بل ما من معالجة الموضوع من جانب واحد يمكن أن تحل المشكلة العويصة أو تجيب عن السؤال المعقد : كيف ولماذا اعتنق العالم القديم المسيحية ؟

بعض التفسيرات الموجودة فى الروايات الحديثة والتاريخ ليست محدودة فحسب ، بل خطأ من أساسها . اذكر كتابا لماؤومى

متشيسون « دم الشهداء » أساسه أن المسيحية نجحت كثورة اجتماعية لتحسين حالة الفقراء الاقتصادية وتحرير العبيد . وهذا جميل فى مظهره ولكنه بعيد عن الحقيقة . لقد قال القديس بولس للعبيد بصراحة إنهم يجب أن يبقوا عبيدا . وكان المسيحيون الأوائل لا يلقون بالا لمثل هذه الأمور، فقد كانت مثلا كلهم من نوع آخر . والواقع أن الإمبراطور المسيحى الأول « قسطنطين » هو الذى أوجد نوعا من عبودية الأرض طبقه على الفقراء والفلاحين . إن الرق والقنانة والولاء كل هذه أمور هامة ولكنها لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقيام المسيحية .

ويدور التفسير المعتاد فى أفلام السينما وبعض الروايات الساذجة حول موضوع السود والبيض — تقليداً لروايات غرب الولايات المتحدة — ملخصه أن جميع الوثنيين كانوا فاسدين ، وحوشاً متعطشة للدماء اضطهدو المسيحيين بالنار والتعذيب والقتل الوحشى، وإن العالم لم يسبق له أن رأى رجالا ونساء يضحون بأرواحهم فى سبيل معتقداتهم، وإن منظر استشهادهم حمل النفوس السليمة على طرح الوثنية واعتناق المسيحية. وقد زيف الفيلم السينمائى المقتبس من رواية « كوفاديس » البولونية التاريخ ليحملنا على الاعتقاد أن ضباط نيرون ثاروا لما رأوا من تعذيب

المسيحيين وإن مظاهرة شعبية أطاحت بنيرون . وهذا كله هراء . فقد كان نيرون محبوباً من عامة الشعب وجاء سقوطه ـ الذى حدث بعد التعذيب بزمن طويل ـ لأسباب أخرى . واضطهاد لاحق سمح به ديوكليسيان هو موضوع رواية ـ نالت شهرة ـ للكردينال ويزمان وعرضت على الشاشة أكثر من مرة . والحقيقة أن المسيحية لم تضطهد بانتظام واطراد . فقد كانت هناك فترات طويلة لم يبذل فيها أى جهد لمنع انتشار المسيحية . وفى النهاية اتحد نظام الإمبراطورية مع نظام الكنيسة بدون صعوبة بعد مرور أقل من جيل على آخر اضطهاد .

ولن نستطيع فهم مثل هذا التصرف إلا إذا تصورنا كيف كانت الأمور معقدة . والرواية التى تبحثها البحث الكافى يجب أن تحوى عرضاً اجتماعياً وثقافياً ضخماً ، وتعرض حالات عدد كبير من الناس يقبلون على المسيحية أو ينفرون منها لأسباب متعددة مختلفة . ويجب أن تبين النزاع بين المسيحية والأنظمة الفلسفية الرفيعة التى كان يدين بها كثير من المثقفين . وما أقل الكتاب القادرين - فى زمننا - على الكتابة عن هذا الموضوع لندرة القادرين على استيعاب المبادىء الفلسفية من نوع فلسفة زينون والذين عندهم من قوة الخيال ما يمكنهم

من إدراك كيفية التسلط على عقل وعواطف رجل كامل النمو . وأكثر ندرة القادرون على شرح الموضوع فى رواية . وقد ظهرت فى القرن التاسع عشر رواية تنقل إلى أذهاننا جزءاً من قوة ذلك النزاع هى رواية «هيباشيا» لشارل كنجيسلى تحمل اسم الشابة الجميلة التى كانت تدرس فلسفة أفلاطون والتى مزقتها جموع المسيحيين شر تمزيق . ورواية أخرى تحاول أن تشرح العلاقة بين العقائد الفلسفية والمسيحية ، وهى رواية « ماريوس الأبيقورى » لمؤلفها باتر . ولكن ما من رواية فيها من الدقة ما يكفى لسبر أغوار تلك الفلسفات ومعارضيها .

كذلك يجب على من يتعرض لوصف المسيحية الأولى أن يبين كيف نافست الأديان المتصوفة الأخرى . لقد اهتم كيبلنج بهذا الموضوع وكتب عدة روايات قصيرة قيمة وصف فيها عبادة الشمس، تلك الديانة الفارسية التى ضمن طقوسها قربان الدم والغذاء الجماعى والتنظيم التصاعدى التدرجى الذى هو أشبه ما يكون بأنظمة الماسونية . ولكننى لا أعرف رواية أجادت التعبير عنها أو عن الأديان التصوفية الأخرى ومدى ارتباطها بالمسيحية . هل تعلمون أن ميلاد المسيح نفسه منقول من واحد أو أكثر منها . ؟ إن الكتاب المقدس لا يذكر فى

أى شهر ولد المسيح . أما الكنسية فقد تسلمت مهام الاحتفال بأعياد منقلب الشتاء -- الذى كان يحتفل فيه بمولد الشمس التى لاتقهر والذى لا يزال له آثار فى احتفالاتنا حين نعلق أكاليل الزهر الخضراء وننصب الأشجار الخضراء — وهى ترمز إلى الطبيعة وهى تنتصر على الشتاء — ولا علاقة مباشرة لذلك كله بالمذهب المسيحى .

ومسألة أخرى محيرة وهى أن جزءاً من المعارضة القوية للمسيحية جاءت من اليهود . وألاحظ أن هذا الأمر يكاد يكون مهملا إهمالا تاما فى أغلب الروايات الحديثة والأفلام التى تتعرض للقرون الثلاثة الأولى من عصرنا . ومع ذلك فإن الأمور اللافتة للنظر فى الدين المسيحى أنه نقل — إلى العالم اليونانى والرومانى — بعض المعتقدات اليهودية وترك البعض الآخر . فلم يكن اليونان ولا الرومان يعرفون الأسبوع ذا السبعة الأيام ولم يكن لهم يوم راحة ثابت ، فالأسبوع ويوم السبت إنما جاءا نقلا عن اليهودية . أما الختان وقوانين الصيام فلم ينقلوها . وفى فترة الانتقال هذه درست على مستوى عال جدا . ولا مفر لكل من يريد أن يكتب فى هذا الموضوع من التفكير الطويل العميق فى أمر القديس بولس الذى جلده اليهود ثلاث مرات ، وفى الصلة الخلابة بين الفكرة اليهودية والفلسفة اليونانية .

ولقد كانت نوايا بعض الوثنيين الذين عارضوا الدين الجديد طيبة ؛ لم يكونوا أبالسة . وكانوا يصرون على أن العالم اليونانى الرومانى يستند إلى عادات مستقرة من زمن طويل . وبدت المسيحية تعارض تلك العادات ، وهى فى نظرهم دعوة إلى الفوضى وديانة جماعة سذج من المتصوفين يتوقعون قرب فناء العالم . وهم لذلك لا يهتمون بالواجبات والمسئوليات التى تلقى على عاتق الإدارة فى جماعة متمدنة : الصحة العامة ، والتعليم ، والضرائب ، والتجارة ، والدفاع ، واطراد التقدم . كانوا يرون أن روما كلما اقتربت من المسيحية ازداد ضعفها أمام طعنات الهمجيين . وقال بعضهم إن المسيحية معناها التنصل من إرادة الحياة . لقد كانوا مخطئين ومحقين فى نفس الوقت . ولكن الكاتب الروائى أو المؤرخ الذى يتعرض لمثل هذا الموضوع يتحتم عليه أن يشرح بوضوح مخاوفهم وشجاعتهم .

وموضوع الهمجيين الذين تسربوا عبر الحدود يقطعون الطرق وينهبون المدن ويحاصرونها . وصاحبت جهودهم ضد الإمبراطورية الغربية بعض المحاولات المسيحية . لقد شرح لنا المؤرخ توينبى العلاقة بين الأمرين ، وقد أسماها البروليتارية الداخلية والخارجية . ولكن من الأمور التى

تدعو إلى الاستغراب أن كثيراً من الهمجيين لم يكونوا وثنيين ، بل كانوا مسيحيين بسطاء — بسطاء جدا — وصموا بالهرطقة ، لأنهم اعتقدوا أن الله فوق كل شيء ، وأن المسيح مخلوق . وقد زال هذا الاعتقاد مع مرور الزمن (إلا عند الوحدانيين الآن) ، ولكنه اعتقاد لا يمكن أن يوصف بالوثنية .

لو أنني حاولت تأليف كتاب عن هذا الموضوع فإن المشكلة التي أوجه لها اهتمامي هي أن المسيحية بنيت على إحساس بالخطيئة. فالمسيحي يعتقد أننا جميعاً مرتكبون للخطيئة — كل امرأة وكل رجل — وأن التوبة الخالصة لا تكفي ، وحدها ، لخلاصنا . أما غالبية الوثنيين — من يونان ورومان — فيشعرون بالواجب ولا يعتورهم أي إحساس بالخطيئة الشاملة المتسلطة . وما داموا قد أدوا واجبهم فلا يجدون غضاضة في الاستمتاع بأوقات فراغهم . ولكن كيف أحلت المسيحية ما تمليه من شعور بالنقص والخطيئة محل هذا الإحساس؟ كان اليونانيون والرومانيون مثلا يحبون التردد على المسرح، فكيف استطاع المسيحيون إقناعهم بأن ذلك مفسد للأخلاق وحملهم على إلغاء المسرح طوال ألف سنة ؟ وكذلك الحال في كثير من مظاهر الحياة .

كيف استطاع المسيحيون أن يخلقوا إحساسا جديدا بالخطيئة ، أو يزيدوا من إحساس قائم ؟ إن اعتناق دين فى هذه الأيام مفهوم ، لأن معتنق الدين ينتقل مما يعرف (عن طريق الدراسة أو الميل أو المثل) فساده إلى ما يعرف طهارته . ولكن ما معنى اعتناق الدين فى فى العالم الوثنى ؟ لقد شرح ا.د. نوك من جامعة هارفارد فى كتاب عميق البحث أسماه « الهداية » — بعض تلك الأمور وإن لم يكن بتفصيل كاف .

وقد ظهرت أخيراً روايات كثيرة عن نشأة المسيحية وكثير غيرها فى طريقها للظهور على مر الشهور . . بعضها سخيف لدرجة فظيعة . رواية كوستين « الكأس الفضية » تعالج فترة لاحقة مباشرة لصلب المسيح . ومع أنها مليئة بالحياة فإنها سطحية وغير مستساغة . وغيرها أسوأ منها غاصة بالأخطاء المخزية فى اللغة وفى وقائع التاريخ . ورواية جلاديز شميت « المعترفون بالاسم » هى الرواية الحديثة الوحيدة التى أعتبرها قد أحاطت بالموضوع إحاطة لا بأس بها .

والحق أنه ليس من السهل الكتابة عن نشأة المسيحية من غير

تفكير طويل وأنيق فى أعمال آباء الكنيسة الأول ، ومن غير دراسة ودية لهذا الموضوع الساحر ، الفن المسيحى . (هل تعلمون أن بعض الصور الأولى للمسيح أظهرته على هيئة أورفيوس وهرمس ؟) ومن غير الإحاطة بالكثير من طبائع اليهود ومن غير فهم للفلسفات اليونانية والرومانية المعارضة والتى جاءت المسيحية للقضاء على بعضها ولتحل محل بعضها الآخر أو تستوعبه . . وما دمنا نظن أن اعتناق العالم الغربى للمسيحية حكاية بسيطة -- اضطهاد تلاه انتصار — فإننا نسىء الفهم... اتركوا جانباً الأسود واذكروا الرجال والنساء . إنهم اليونانيون والرومانيون الذين أصبحوا مسيحين فى تأن وتدرج وعلى مر أجيال متعددة من التفكير والتجربة . وهكذا على مدى خمسين جيلا أصبحنا نحن ما نحن عليه .

Thomas Costain, The Silver Chalice (Doubleday1952)
Naomi Mitchison, Blood of the Martyrs (Whittlesey House, 1948)
A. D. Nock, Conversion (Oxford 1933)
Galdys Schmitt, Confessors of the Name (Dial,1952)

خطاب جتسبرج

منذ حقبة وسبع سنوات مضت . . .

هذه الكلمات الخمس هى البداية لأجمل أثر معروف فى النثر الأمريكى . خطبة تمثل قمة البلاغة فى اللغة كلها ، وهى ولا شك تعتبر بحق من أعظم الخطب فى التاريخ كله . والعظمة كالصوان تصهره النار ويبقى على مر الزمن . منذ حقبة وسبع سنوات مضت . من الغريب أن الرئيس لنكولن كان يعود بتفكيره إلى اليوم الرابع من شهر يوليو ١٧٧٦ وأنه وخطابه أبعد عنا مما كان هو عن جورج واشنطون و إعلان وثيقة الاستقلال . فقد وقع مجموعة صغيرة من الوطنيين وثيقة الاستقلال قبل خطاب جتسبرج بحقبة وسبع سنوات . وبعد خطاب جتسبرج بحقبة وسبع سنوات كنا فى عام ١٩٥٠ وقد بدأ هذا التاريخ يتقلص بسرعة فى ماضينا المضطرب الملىء بالمغامرات ومظاهر الشجاعة .

كان تكريس جبانة جتسبرج حدثا من أعظم أحداث تاريخ أمريكا ، وإن لم يبذل فى إعداده العناية الواجبة ، ولم يقدر فى حينه

حق قدره . لقد كانت المعركة نفسها نقطة تحول فى الحرب . ففى ٤ من يوليو ١٨٦٣ صد الجنرال « ميد » غزو « لى » لبنسلفانيا . ومع أنه لم يتابع انتصاره إلا أنه كسر حدة إحدى الهجمات المريعة للجيوش المتحالفة . وترك فى الميدان آلاف القتلى ومات آلاف من الجرحى فى أيام الحر التى تلت المعركة . وكان دفنهم قد ترك فى بادىء الأمر للمصادفات ، ولكن أهل الفكر بدءوا يدركون مع الزمن أن الواجب يقضى بإعداد جبانة و إقامة أثر يليق بهم ، وأعدت لجنة اختيرت من بين الولايات — فى ذلك الخريف — جميع الترتيبات ودعت أبلغ خطيب فى الولايات الشمالية ليكرسها . كان ذلك الخطيب هو العالم السياسى « إدوارد ايفيريت » من جامعة هارفارد ، وقد أعد خطابا ممتازا لايزال موجودا . لم يكن خطابا أكاديميا ولكنه ملأه بالتحليل الاستراتيجى والفهم العميق للتاريخ .

ولم يكن لنكولن فى بادىء الأمر مدعوا للخطابة ؛ فقد كان الناس — وإن عرفوه مجادلا قوى الحجة — لايثقون بقدرته على إلقاء خطاب جاد فى مثل هذه المناسبة الوقور . ولكن المعروف أن لنكولن — فى جميع أطوار حياته — لايفوت فرصة تسمح له بالتفوق.

لقد كان راغبا فى أن يظهر فى هذه المناسبة ويقول كلاما يليق بها . (ويقال إنه أراد أن يقضى على فكرة أنه لايستطيع أن يتصرف تصرفا لائقا . وهى فكرة نبتت وقويت بسبب تصرف سيء وموقف ساخر وقفه فى ميدان معركة « انتيتام » فى العام السابق) . فلما دعى إلى بذل عناية خاصة فى خطابه . كتب نصفه فى البيت الأبيض قبل أن يغادره وأتمه فى الفندق فى جتسبرج فى الليلة السابقة على الاحتفال (لا فى القطار كما قيل أحيانا) ثم كتب صورة واضحة منه فى صباح الغد .

وقد تعددت الروايات عن حوادث يوم ١٩ من نوفمبر ١٨٦٣ نفسه، كما تعددت الصور لموقف لنكولن ، وكلها تبين ذلك المزيج الغريب من العظمة والارتباك والتخلى عن الوقار — أو لعل الأفضل أن نسميها التصاغر — ركب لنكولن فى الموكب حصانا . رجل طويل فى قبعة طويلة يجلس على حصان قصير تتدلى قدماه على مقربة من من الأرض . ووصل قبل أن يصل الخطيب الأول . وانتظر فى صبر نصف ساعة أو أكثر . وألقى خطابه فى نهاية حفل طويل مرهق ، واستغرق إلقاء الخطاب أقل من ثلاث دقائق ، وكان أثره فى السامعين

لا يكاد يذكر . من جهة لأنهم كانوا متعبين ، ومن جهة أخرى كما قال أحد شهود الرؤية لأنه أتمه قبل أن يدركوا أنه بدأه ، ومن جهة ثالثة لأنه لم يرتجل الخطاب بل قرأه ببطء وبصوت رفيع عال ولهجة كنتوكية يطيل فيها المقاطع ويسقط الراءات الأخيرة .

ولكن بعض المستمعين كانوا متنبهين بكل أسماعهم فتأثروا بخطابه وسارع ايفيريت بتهنئته . ولكن أغلب الصحفيين لم يلقوا بالا للخطاب . وتهكم عليه بعضهم . . فقالت جريدة « باتريوت آند يونيون » من هاريسبورج : « إننا نمر كراما على الملاحظات السخيفة التى ألقاها الرئيس ، ونود — لسمعة الأمة — .. ألا تتكرر أو يفكر فيها » . وقالت جريدة التايمز اللندنية : « لقد تحول الاحتفال إلى حفلة هزيلة بسبب بعض نكات الرئيس المسكين لنكولن » . وقالت عن ملاحظاته : إنها « كئيبة وعادية » . أما أول ثناء على الخطاب فقد ورد فى جملة واحدة فى الشيكاجو تريبيون ، وظهر تقريظ مطول فى جريدة «الريبابلكان» بمدينة سبرنجفيلد والجورنال فى بروفيدانس ونشرة فيلادلفيا . ولكن بعد الاحتفال بثلاثة أسابيع وفى الربيع التالى نشرت مجلة « هاربر » الأسبوعية تقريظا كاملا للخطاب ، وسرعان

ما احتل مكانه كقطعة فريدة من الأدب

ولم يكن لنكولن يعنى كثيرا — فى ذلك الوقت — بالطريقة التى قوبل بها خطابه. فقد كان مريضا منهوكا ورقد فى القطار فى طريق عودته إلى واشنطون واضعا منشفة مبتلة على رأسه ؛ فقد ظهرت عليه أعراض الجديرى الذى كان مكروبه فى دور الحضانة ، ووقع فريسة له بمجرد وصوله للبيت الأبيض. وكانت إصابته بسيطة لحسن الحظ سمحت له بأن يقول إحدى نكاته الظريفة إذ قال لزواره : « وأخيرا لدى ما أستطيع أن أعطيه لكل إنسان » .

لقد كان لديه أكثر من ذلك يعطيه للآخرين . كان إنسانا فريدا أعظم بكثير مما يستطيع أغلب الناس تصوره مالم يقرأوا تاريخ حياته بدقة ، فإن حكمته السياسية ومصادر قدرته على إدارة أمور الدولة أصعب من أن تناقش فى رسالة قصيرة .

إنها عمل من أعمال الفن . أجل . فقد كان لنكولن أديبا فنانا تعلم من الآخرين كما علم نفسه . وكانت الكتب التى درس فيها وهو صغير تزخر بالتمارين والاستنباطات الصعبة والبارعة فى فنون البلاغة

وقوى خطاباته بمامرن نفسه عليه وأتقنه من استعمال الطباق والمقابلة والملاءمة اللفظية وقرأ وأكثر من قراءة نماذج ممتازة من التعبير والتفكير : توراة الملك جيمس ورسائل بيكون وأبدع تمثيليات شكسبير — وكانت تمثيلياته المفضلة هاملت ولير وماكبث وريتشارد الثالث وهنرى الثامن — التى قرأها عشرات المرات . وكان يميل للقراءة بصوت عال جدا ، ويمضى الساعات يقرأ الأشعار لأصدقائه . قال لشريكه هرندون: « إنه يفهم المستندات أحسن حين يقرؤها بصوت عال» . وعلى ذلك فخطبه الجادة تأخذ مكانها بين الخطب الكلاسيكية النبيلة العريقة التى تبدأ بخطب اليونان مارة بالرومان إلى يومنا هذا ، ذلك الفن الذى يستطيع إذا لم نهمله أن يخلق قطعة أدبية فريدة .

وأول الأدلة على ذلك أن خطاب جتسبرج ملىء بالمقتطفات — أو بالأصح التطبيقات — التى تزيد فى قوته . بعضها دينى وبعضها بالمعنى الرفيع سياسى . وهو لذلك مطعم بمقتبسات من التوراة ومن التاريخ الأمريكى . فالجملتان الأولى والأخيرة مقتبستان من التوراة . فلنكولن لا يقول عادة « حقبة » حين يعنى ثمانين . ولكنه فى هذه

المناسبة الوقور تذكر التواريخ الهامة فى التوراة كعمر إبراهيم حين رزق بابنه الأول، فقد كان عمره « حقبة وست سنوات» . كذلك لم يقل إن فى إمكان الديمقراطية أن تموت ، بل ذكر الجملة الحزينة من كتاب أيوب حين تحدث بلداد عن القضاء على إنسان يتلاشى من غير أن يترك أثرا حيث يقول « إن فروعه سوف تبتر وذكراه تنقرض من على الأرض » . كذلك فإن الوصف المشهور لدولتنا « حكومة الشعب بالشعب وللشعب » أشار إليه دانييل وبستر عام ١٨٣٠ عندما تحدث عن (حكومة الشعب التى عملت من أجل الشعب وكونها الشعب ومسئولة أمام الشعب) . وقد حسنها تيودور باركر المطالب بتحرير الزنوج إلى « حكومة جميع أفراد الشعب من كل الشعب لكل الشعب » . ولدينا ما يدعو للاعتقاد أن لنكولن اقتبس الجملة الهامة « تحت نظر الخالق » التى أضافها فى آخر لحظة من وايمز كاتب سيرة واشنطون ، كما نعرف أن واشنطون نفسه استعملها مرة واحدة على الأقل .

فإذا تعمقنا فى تحليل الخطبة وجدناها ترتكز على أساس من الخيال أو أسس من الخيال . الموضوع هو — ترى كيف نقوله دون أن نغمطه حقه ؟

— الموضوع هو الارتباط الوثيق بين الحياة والموت ؛ ذلك الارتباط الخفى نشاهده أحيانا التعاقب المشاهد بين الولادة والموت ،وأحيانا ذلك التضارب الذى قد يكون وحدة بين الموت والخلود . فالجملة الأولى تتحدث عن الولادة :

لقد أنجب آباؤنا أمة جديدة تم حملها وفصالها فى جو من الحرية .

والجملة السابقة للأخيرة تعبر عن الأمل فى أن :

هذه الأمة — بتوفيق من الله — سوف تحقق بعثا جديدا للحرية

وتتحدث الجملة الأخيرة عن استمرار الحياة فى انتصارها على الموت. وخلال الخطاب تتكرر مرة ومرة المقابلات الصوفية والطباقات : «إن الذين ماتوا مضحين بحياتهم لكى تحيا هذه الأمة «الرجال الشجعان الأحياء منهم والأموات — قد كرسوا مكان دفنهم » و بالمثل فى التوكيد الذى جاء فى وسط الخطاب « فى حين يقع على عاتقنا نحن الأحياء أن نكرس أنفسنا للواجب العظيم الباقى » . . . إن خطاب جتسبرج شعر منثور . إنه يلحق بعالم المراثى الكبرى وموسيقى بيتهوفن .

أما بناؤه فبناء خطاب منظم بمهارة ؛ الترتيب الخطابى واضح

فيه . فلنكولن يصف المناسبة ويكرس الأرض ويتوسع فى الخاتمة فيدعو سامعيه لتكريس أنفسهم للمحافظة على الاتحاد ولكننا نستطيع خلال ذلك أن نتبين استعماله لحيلتين خطابيتين هامتين :

الأولى الطباق — التباين والتضاد – والخطاب زاخر بها . انظروا :

إن العالم سوف لا يلحظ إلا قليلا
ولا يذكر طويلا ما نقـــوله هنا
ولكنه لن ينسى أبداً ما عملوه هنا

وهكذا فى كل جملة تقريبا « الرجال الشجعان الأحياء والأموات » « ليضيف أو ينتقص » . وهناك الطباق بين « الآباء المؤسسين ورجال زمن لنكولن » .

« إن آباءنا أنجبوا أمة جديدة »

« ونحن الآن نختبر ما إذا كانت هذه الأمة ... ستعيش طويلا »

وهناك الطباق المريح بين الذين ماتوا والذين لا يزالون أحياء ليقوموا بواجبهم . والطباق نوع من البديع يجمع بين متضادين فى جملة . ولا غرو أن يستخدمه لنكولن ، فقد كان يتحدث فى وسط حرب أهلية كبيرة .

أما النوع الأول فمختلف . إنه مما يسمى فنيا — المثلث — أى تقسيم الفكرة إلى ثلاثة أقسام متناسقة — لها قوة متزايدة عادة وأشهر جملة مثلثة فى الخطاب هى قوله :

« حكومة الشعب

من الشعب

وللشعب »

وأكثر جملة اتزانا مثلث آخر :

« لا نستطيع أن نكرس

لا نستطيع أن ندشن

لا نستطيع أن نبارك هذه الأرض »

وفوق ذلك كله الجملة الأخيرة التى انتقدت أحيانا بأنها معقدة جداً ، وهى فى الحقيقة جملتان متوازيتان مع جملة مثلثة اندمجت فى وسط الجملة الثانية وأنتجت جملة مثلثة أخرى ، أى إنها جذع وثلاثة فروع وعنقود من الأزهار .

إن لنكولن يقول : إن على سامعيه أن يكرسوا أنفسهم للواجب الكبير الباقى أمامهم . ثم يستمر فى القول :

« إن من هؤلاء الأموات المكرمين »

ويبدو أنه يقصد « أن نعمل بطريقة ما لكى نستوحى من هؤلاء المكرمين ما نستمد به إخلاصا أصدق لهذه القضية »

ثم يكرر ذلك فى إيجاز :

« إننا هنا نقرر ... »

ثم يأتى القرار الفعلى فى ثلاثة أجزاء فى قوة متزايدة :

« إن هؤلاء الأموات لم يموتوا عبثا »

« وإن هذه الأمة — بعناية من الله — سوف تبعث مولدا جديدا للحرية ».

(وهنا مثلث جديد)

« حكومة الشعب

بالشعب

وللشعب »

« لن تفنى من فوق الأرض »

والمثلث ضرب من البديع يزيد عن طريق التقسيم فى العبارة

قوة الانسجام فى الوحدة فيها . ولقد لجأ لنكولن للطباق لأنه كان يوجه حديثه إلى شعب يحارب ، واستعان بالمثلث لأنه كان يؤمل ويخطط ويصلى لتحقيق السلام .

وما من أحد يتصور أن لنكولن ــ وهو يعد خطاب جتسبرج ــ قد بحث عامدا عن هذه الاستشهادات ، وأنه اختار هذا الفرق من البيان عن قصد . لا . إنه اختار الفكرة ،ومن تتبعها ومن الإحساس العاطفى للمناسبة كلها واتاه الأسلوب ونما عن طريق الحذف والإضافة اللذين هما أساس الخلق الفنى . وتحليل مثل هذا الأثر الفنى بمثل هذه الدقة ــ كما فعلنا ــ لا ضرر منه ، بل إنه مفيد لأنه يساعدنا على تذوق المعانى الفنية فى الخطاب . ويمكننا من أن نتابع عن قرب تفاعل عقل راجح لرجل عظيم .

W.E.Barton, Lincoln at Gettysburg (Bobbs-Merril,1930)

R.P.Basler, 'Abraham Lincoln's Rhetoric, American Litterature 11 (1939-40),167-82.

L.E. Robinson, Abraham Lincoln as a Man of Letters (Chicago, 1918)

جنون هاملت

دخل الأمير هاملت بصحبة خير صديق له — صديقه الوحيد — إلى صحن الكنيسة . ووقف يراقب رجلا يحفر قبراً ، وكان الرجل يغنى وهو يستخرج الجماجم . و بعد لحظة سأل الرجل عن مدة اشتغاله فى حفر القبور ، وأجابه الرجل دون أن يعرفه :

« من بين أيام السنة جميعها بدأت عملى فى نفس اليوم الذى ولد فيه هاملت الشاب . . ذلك المجنون » .

و يمضى المشهد — وهو من أمتع فصول الدراما - تتخلله نكات قارصة وتوريات و بذاءات إلى أن تستخرج جمجمة المهرج يوريك . و يوجه هاملت الحديث للجمجمة فى حزن وتفكير ولكن بغير مظاهر الجنون . ولكننا نجده نفسه — بعد دقائق معدودة — داخل القبر يتعارك مع « لايرتيس » ثم يقف يهذى بجواره و يصرخ كالمجانين . وأخيراً و بعد مظاهر عنيفة من الجنون الفظيع يبتعد جريا متمتماً بألفاظ لا معنى لها . إنه مشهد من أصعب المشاهد تمثيلا لأنه يحتم على الممثل أن ينتقل ـ فى لحظات معدودة ـ من أسلوب القصور الرشيق (لا تنسوا

أن ضمن صفات هاملت الأخرى أنه كان شاعراً وفكها حاضر النكتة وأشياء أخرى) إلى الندب الحزين والسخرية المريرة . ثم بعد انتظار طويل — يكاد يكون صمتاً مطبقاً — ينتقل عندما يقع نظره على جثة حبيبة قلبه تحمل لتدفن إلى نشاط أمير مستبد ثم إلى صرخات مفجعة وهلوسة ولعنات تنتهى بجمل غامضة هى خليط من الأسى والجنون . وهذا الفصل مع صعوبة تمثيله وإرهاقه لمتتبعيه ينطوى على بعض المشكلات الأساسية فى التمثيلية . وتتركز فيه أكثرها تعقيداً . حافر القبور يقول إن هاملت مجنون . وهاملت يتصرف فى نهاية الفصل بطريقة غريبة عنيفة . ترى أمجنون هو أم لا ؟

هذه مشكلة دقيقة جذابة تلاحق جميع أشخاص المسرحية تقريباً . إنهم يفكرون فيها باستمرار ويتحدثون عنها كل على طريقته . وهى تفتن كل من شاهد التمثيلية أو قام بدور فيها . والظاهر أن سير لورنس أوليفييه لم يعرها أى تفكير فى الظاهر بطريقة أو بأخرى . وجاءنا بنظريته الجميلة التى تجمع بين الخيال والغباء التى نعتها بأنها حكاية رجل لا يجد طريقه للبت فى الأمور . والواقع أن الصلة بين العقل والجنون كانت تشغل بال شكسبير نفسه ، فإننا نجد — فى كل تمثيلية من

تمثيلياته تقريباً — شخصية غريبة الأطوار جداً أو مخبولة أو حزينة . وفى مآسيه الكبرى الأخرى نجد ليدى ماكبث تسير ببطء نحو الجنون ، وتيمون الأثينى حالة عقلية ميئوسا منها ، والملك لير تمثيلية مملوءة بالجنون المفتعل والحقيقى ، القاسى والبرىء . ولكن هذه المسرحيات لا تترك مجالا للشك على الرغم مما فيها من فظاعة وحزن . إننا نتبين المجنون من العاقل . أما فى هاملت فإننا لا ندرى . حبكة الرواية وشخصية البطل غامضتان تسحراننا بما تبثان فينا من حيرة ومن خلط غريب من الخوف والمرح . وقد كتب عشرات وعشرات من النقاد عن هذا السر بتفوق ، وهو مع ذلك لا يزال موغلا فى الظلام . . . تخترقه — من وقت لآخر — أشعة أضواء تغشى عيوننا .

ونحن — من جانبنا — لا نتوقع أن نجد التفسير الكامل . فإن أحد مقومات رسم الشخصية عند شكسبير ، وأحد أصول الشعر التراجيدى إنما هو صعوبة التفسير . فلا الحياة فيها منطقية ولا المنطق يوجه أو يفسر الحياة . وكثير من أجمل الفنون يقوم على سؤال لا جواب له هو لماذا ؟

ولكننا نستطيع على وجه التأكيد أن نزيح الستار عن جزء من

الغرض إذا قرأنا المسرحية بعناية . إنها من أعمال شكسبير التى أحس بها إحساساً عميقاً وراجعها أكثر من مرة وكتبها بتفصيل وعناية أكثر من غيرها . (كان ابنه الوحيد الذى مات طفلا يسمى هامنت) لو لم يكن شكسبير قد فكر فى هذه التمثيلية بشدة فقد أرادنا أن نفكر فيها مثله . وهاملت نفسه — فى الكلمات الفريدة التى قالها وهو يحتضر — طالب أصدقاءه بأن يفسروا حياته للعالم .

أكان مجنوناً إذاً ؟ لقد سمعت من يقول إنه إذا كان هاملت مجنوناً لما كانت هناك مسرحية . وهو قول غير صحيح على إطلاقه . فظهر رجل قوى — أميراً كان أو عملاقاً أو نابغة — ينقلب إلى مجنون خطر يصلح أساساً لمسرحية مشوقة ممتعة . ولكنها مسرحية من طابع يختلف عن طابع مسرحية هاملت وتمثل نموذجاً آخر . إن أساس هذه المسرحية هو الشك . ولو علمنا من بداية العرض أن البطل مجنون ميئوس منه لأحسسنا بالتوتر ، ولكنه توتر من نوع آخر واضح وسطحى .

وإذا نظرنا للحالة العكسية واعتبرنا هاملت ليس سليم العقل . أى إنه إنسان ذكى ولكنه ليس عاقلا مائة فى المائة . رجل داهية يتظاهر

بالجنون ليتآمر فى أمان ضد ملك غاصب . كان هذا هو موضوع الرواية الأصلية لهاملت الدانماركى ابن قرصان البحر — ملحمة دامية بدائية من عهود الظلام . ومع أن رواية شكسبير تحدثت كثيراً عن التظاهر وفى ثناياها ترتيبات كثيرة تدل على الدهاء ، لكن المغامرة الأساسية ليست مغامرة تخف وتآمر وانتقام ناجح . فغالبية حبكاته المتقنةلاتوصل إلى نتيجة أو لم نكن نحتاج إليها .وقتل أعدائه ـ بولونيوس ولايرتيس وكلوديوس تكاد تحدث كلها مصادفة ، وهوراشيو يسميها أحكاما عارضة ومذابح كيفما اتفق .

وأخيراً . تعالوا نوجه التفاتنا إلى التمثيلية نفسها . ما حكم أشخاصها على هاملت ؟

البسطاء جميعا يعتبرونه مجنونا جنونا مطبقا (البسطاء يعتبرون المعقدين مجانين).فحافر القبور يقول ذلك وأوفيليا المسكينة مقتنعة بذلك كل الاقتناع ، وكذلك والدهاپولونيوس (مع قليل من الشك) ،وجرترود والدة هاملت نفسها . إنهم يعتبرون أن جنونه يأتى ويذهب فى فترات متقطعة من العنف ويجدون صعوبة فى استنباط السبب أو المصدر الحقيقى لجنونه فيما عدا الحب الذى لايعتقدون فيه اعتقادا

كاملا . وهم — على كل حال — موقنون أن هاملت غير مسئول عن تصرفاته .

وصديقه هوراشيو يعامله باستمرار على أنه سليم العقل وإن كان سريع الهيجان ، وكان يكبح من تصرفاته من وقت لآخر ، ولكنه لم يشك فيه أبدا لفرط إخلاصه حتى ليحاول أن يموت معه .

أما الملك ؟ آه . الملك . من أمتع ما فى التمثيلية المبارزة التى تدور بين الملك وهاملت (بين مغتصب مخاتل وهاو ذكى) إن كلوديوس شرير نبيل أوتوقراطى فى كل خلجة من خلجاته . كان يكسب المباراة ويخرج منتصرا مع أى منافس آخر . وهو يتحدث إلى هاملت بكياسة وثبات جأش وبحزم حكيم حين يتطلب الأمر بل وحتى بما يشبه الحنو ، على حين أن هاملت يتجاهله باستمرار ولا يتورع عن إهانته وتعمد استفزازه والسخرية منه مما كان يفقد أى رجل أقل منه اتزانه . فى حين كان الملك يتقبل كل إهانة بهدوء تام فيما عدا إعادة تمثيل جريمته ... ولكنه فى نفس الوقت يراقب هاملت مراقبة لاهوادة فيها . فهو يعده — فى بادىء الأمر — عنصر مشاغبة واحتجاجا صامتا . وفى

النهاية شخصا غير مفهوم ولـكنه خطر ، أى إنه رجل عاقل فى كل ما يتصل بترتيب المقاصد والتنظيمات .

وماذا عن هاملت نفسه؟ هل كان يعتقد فى نفسه الجنون ؟ لاشك أن هذا هو مفتاح التمثيلية ، لقد اعتدنا أن نرى على خشبه المسرح شخصيات عاقلة متزنة ممتلئة يقينا لدرجة أننا نفترض أن البطل لا بـد أن يـكون مؤمنا برجاحة عقله . ولـكن حينما نراقب هاملت حين ينفرد بنفسه ونستمع إلى أفكاره ونراه يفـكر مرتين فى الانتحار ويلوم نفسه مرتين بمرارة للأخطاء غير الطبيعية وغير المفهومة ويتحدث عن ضعفه وحزنه أو يحذر نفسه من قتل أمه ، أو حين نراه فى حالة أكثر اتزانا يحدث الآخرين عن أحـلامه المزعجـة وجنونه نجـد أنفسنا أمام حالة خاصة نادرة — حالة الرجل النابه الذى يخشى أن يفقد عقله ويستمتع فى الوقت نفسه بتلك الحالة . إنه لا يستطيع عمل ما يجب عليه عمله ولا يقوى على التصرف حين يكون التصرف ضروريا. لا يستطيع أن يحس بما يجب أن يحس به . إن حياته منقسمة شطرين : أحدهما غامض معتم يبدو عليه الخوف ، والآخر هياج شديد يتصرف فيه

بدون تفكير . ويكاد هذان الشطران من حياته يكونان منفصلين كل الانفصال .

ومع ذلك فثمت بين الحالين فترات يكون فيها هادئا متزنا حازما وذكيا جدا لا أثر للجنون عنده . إنه ناقد واع (وإن كان قاسيا) للدراما وناقد اجتماعى لاذع ومفكر مهذب ومصلح كأفضل المصلحين . فهو — على ظهر السفينة — يتجسس بمفرده على الوكلاء المكلفين بقتله ويغير أوامرهم السرية جدا فيموتون بدلا منه ثم يقود هجوما مضادا على سفينة قرصان ويؤسر وينجح فى إقناعهم بفك وثاقه من غير أن يدفع فدية . وبهذه الطريقة ينجو من مؤامرة لا رحمة فيها ومصادفة مريعة .

وإذا فهاملت مصاب بجنون متقطع ، أو كما نقول الآن (اضطراب عقلى) ويحدث هذا الاضطراب فى ظروف معينة محدودة . وحين يقع عليه نظرنا لأول مرة نجد أن حياته قد تبلبلت من جراء الترتيب المتقن المفاجىء الذى مكن عمه من اعتلاء العرش (عرش الدنمارك) ويجعله — وهو الوارث الطبيعى — مجرد مطالب بالعرش أو منتظر ، أى إنسان منزوع من مكانه . إنه كئيب يحاول أن يعود إلى الجامعة

حيث عرف صديقه هوراشيو . ثم يتبين بعد ذلك أن والده لم يمت بميتة طبيعية وأنه قتل ، وأن أمه زنت مع أحد محارمها كلوديوس من قبل موت أبيه ،وهكذا وجد أن أقرب المقربين إليه ، إما ضحية ، أو مجرما ، أو شريكه فى الإجرام . وخاصة أمه — التى بعد أن ولدته — حطمته حيا بأن قضت على وجود أبيه كما قضت على وجوده هو نفسه كوريث للعرش . ومن ذلك الوقت وهو كلما وجد نفسه وجها لوجه مع وقائع حياته : قتل أبيه ، وخيانة عمه ، وخطيئة أمه ، يتأرجح بين الحزن العميق والهياج القاتل . وعند ذلك يشك فى كل من يعترض طريقه و يسبه .. حتى محبو بته . إنه عاقل فقط حين يكون بعيدا عن البلاط وحين لايواجه تلك المشكلة التى يجد فيها من القسوة ما لاقبل له بمواجهتها ، فضلا عن إيجاد حل لها . وهو بين هذا القيد كالعصفور المحاصر يتخبط بوحشية حينا ، و يستسلم و ينهار (كما تقول أمه) أحيانا أخرى .

وهذا نوع نعرفه أيضاً ونسميه الانهيار الجنونى وقد عرفه شكسبير من تجارب الحياة ومن الكتب . فقد كان تصرف إيرل اسكس الشاب قريباً جداً من الانهيار الجنونى وكان يتأرجح بين الهياج الجنونى والجرأة البعيدة عن المنطق مع فترات من الصمت الطويل

والسبات العميق (لقد أعدم اسكس عام ١٦٠١ وظهرت رواية هاملت عام ١٦٠٢) ولكن هناك نماذج فى الأدب للجنون المتقلب للأبطال الذين يصدمون بمشكلات لا قبل لهم بحلها. ولا شك أن شكسبير عرف مأساة سنيكا (هرقل المجنون) ولا بد أنه قد سمع عن أورست الذى قتل أمه لأنها دبرت قتل أبيه ثم جن. كما فكر أيضاً فى حياة الإجرام الجنونى لنيرون الذى قتل أمه وأباه بالتبنى.

إن لمأساة هاملت جذورا متعددة: رذيلة أمه وجريمة عمه جذران هامان، ولكن توجد جذور أخرى قوية وعميقة. فالعالم النفسى الإنجليزى إرنست جونز يرى أن هاملت نوع من أوديب وأنه فكر طويلا فى جرائم القتل والزنا بالمحارم، وصدمه فى عقله، وشل تفكيره، أنها ارتكبت لحسابه ولكن الحقيقة أبسط من ذلك. إنها تنحصر فى أن هاملت ليس ضعيفاً ولا مختل الأعصاب، ولا نبتاً حساساً لا لا يحتمل قسوة هذا العالم كما تصوره جوته، ولا إنساناً شاذ الأطوار فاسداً كما وصفه لافورج. ولا الرجل القوى المفكر المحاط بأشخاص شاذى الأطوار لا يفهمونه ومتآمرين أشرار كما يبدو أن أوليفييه تصوره. إن شأنه شأن لير وماكبث وعطيل مزيج من القوة والضعف، أو إنسان أضعف أو جرح (لذلك فإن الممثل القادر على إظهار شخصيته إظهاراً

كاملا يجب أن يكون فى الوقت نفسه موريس ايفانز وجون جيلجود مع صفات متنوعة أخرى . وربما كان باريمور أقرب شخصية له) إنه مجنون وعاقل فى نفس الوقت . وتألمه — كما هو الحال مع ما كبث وسواه — ناتج من أن جرمه يفضحه ويخرجه من نفسه، حتى ليرى عقله الذى كان راجحاً ينهار فى بعض نواحيه . والشخص الضعيف فى مثل هذه الظروف يسلم بلا إبطاء أو يتحلل بسرعة كما حدث للأمير شارل الطيب عقب هزيمته . ولكن أرفع وأعمق مظاهر المأساة هو الجهاد المحكوم عليه بالفشل بين النفس المضيئة والنفس المظلمة . وعندنا تمثيليات رائعة تدور حول هذه الفكرة ، ولكن ليس منها ما يرتفع إلى تلك التى يجلس فيها إمبراطور بجوار القبر الذى يحفر لمعبودته ويتحدث فى حب ورعب إلى جمجمة مهرج .

الشاعر والموسيقى

كثيراً ما نسمع أن من الخطر عقد المقارنات بين الفنون المختلفة. ولست أدرى لماذا؟ فذلك فى نظرى نوع من النقد المشروع. إن له نواحى خطرة، ولكنه يعيننا كثيرا على التقدير. فلكى نفهم مطالع ديبوسى يكاد يكون من المحتم علينا أن نطيل النظر فيما أنتجه المصورون الفرنسيون الانطباعيون. وإذا وجدت صعوبة فى استساغة فن البناء غير المنتظم (الشوه) سهل الأمر عليك إذا وازنته بترتيبات باخ الكورالية.

وهذه المقارنات تقحم نفسها عليك فى بعض الأوقات. ويصبح من المفيد تتبعها. وقد اعترضتنى أخيرا إحدى هذه المقارنات وفتحت أمامى أبوابا جديدة للفهم. تلك هى المقارنة بين رجلين لم يعرف أحدهما الآخر وإن كانت أخلاقهما قد تشابهت لدرجة مذهلة. لقد عاشا حياتين متشابهتين وأنتجا عملين متشابهين فى ميدانين مختلفين... أحدهما شاعر، والآخر موسيقى.

أما الموسيقى فهو جوهانز برامز . حاولت فى الصيف الماضى أن أعزف بعض قطعه الموسيقية القصيرة — تلك القطع الجميلة التى ألفها فى أخريات أيام حياته وأطلق عليها اسما متواضعا « انترميزو ». إن جمالها ساحر ، وكل نغمة فيها موضوعة بعناية فائقة . ولما تذكرت صور برامز وجدت عسيرا على أن أفهم كيف أن رجلا قصيرا بدينا يقضم السيجار يمكن أن ينتج أنغاما بهذا السحر والإحساس الرقيق تقريبا وتبرز مع ذلك شخصيته ، لأنه ألف أكثر من ثلثمائة أغنية كثير منها فى خفة الأثير . ثم فكرت فى خماسيات الكلارينت بنغماتها وتواضعها ورقتها ، ومر بخاطرى وجه برامز بلحيته الكثة وعينيه المفكرتين .وفجأة حل محله وجه آخر عميق التفكير مثله أقل منه صفاء وأكثر غموضا ، وله أيضا لحية كثة . كان الوجه الجديد وجه الشاعر الفريد تنيسون ، وتذكرت لساعتى بعض أشعاره الوجدانية العاطفية :

حيث تهبط الشمس

يتوقف النسيم ويموت . . .

هنا أصوات موسيقية جميلة تهبط بخفة

أخف من أوراق الأزهار على العشب ...

وتتدلى أوراق الخبيزة بثقل

ويتدلى السوسن بثقل أيضاً ..

وكثير غيرها بهذه الرقة لدرجة أن النقاد كانوا يستهزئون به فى البداية . ولما كبر لم تعد هذه الأشعار تنسجم مع ضخامة صوته وقوة شخصيته .

وانتقل عقلى إلى تشابه آخر بين الرجلين ... باعتبارهما خالقين . إن سيمفونيات برامز مؤثرة بقوة . إننا نذكر افتتاحيته الأولى مع ضربات الطبل المتكررة أو التعبيرات القوية التى تختم الرابعة . إن من العواطف الغالبة ، الإحساس بالنضال المتولد من جانب آخر من طبيعة الرجل . ولتنيسون أيضاً جانبه البطولى الذى يزداد وضوحاً فى أشعاره عن أساطير الملك آرثر حيث يحدثنا عن رجال أقوياء يأكلون بشهية ويتعاركون مع غيرهم أو مع أنفسهم ويجعل أشعاره تقعقع كالدرع ، أو تصفر كالقوس .

ربما كانت هذه مجرد مصادفة بين شخصين يعملان فى محيطين

مختلفين ، أو قد تدل على صلة وثيقة . لذلك رأيت أن أقرأ تاريخ حياة برامز وتنيسون لأتبين مدى التشابه بينهما .

بدأت حياة كل منهما بداية مختلفة ولكنهما سارا فى خطوط متشابهة بطريقة مدهشة . كان برامز قد نشأ فى شارع من أفقر شوارع هامبورج فى حى قذر واضطر أن يعمل فى سن مبكرة بجهد ليعيش . أخذ يعزف على البيانو فى مراقص رخيصة . فى حين كانت أسرة تنيسون فى بحبوحة من العيش ، وما من شك فى أن بعض متاعبه كان نتيجة عدم احتياجه قط للعمل ، مما اضطره لبذل جهد كبير ليتخلص من أحلامه ويتغلب على كسله . وقد بدأ كل من برامز وتنيسون يؤلف فى سن مبكرة جداً ، وقوبلت أعمالهما الأولى بحماسة زائدة . فقد وصف شومان برامز بأنه « عبقرى الموسيقى الجديد » . وقرظ هالام ـ صديق تنيسون ـ كتابه الذى ظهر سنة ١٨٣٠ (أشعار أخصها الغنائى) بمقال طويل يتحدث فيه عن عبقرية تنيسون . كانت النتيجة واحدة قام نقاد متزنون ليقولوا : إن الوقت لم يحن بعد للحكم بينما توافر نقاد حاقدون للبحث عن الأخطاء التى أمكنهم العثور عليها ليخففوا من حدة المغالاة فى المديح . وأحس كل من برامز وتنيسون بجرح عميق

ولم يستطيعا إلى آخر أيامهما احتمال النقد العدائى ، وقد كان نصيب كل منهما من نقد الناقدين ـ لسوء الحظ ـ وفيرا . فقد ظهر مجلد كامل ـ كله هزليات ـ على غرار شعر تنيسون . بعضها فى منتهى الظرف ، ولكن تنيسون لم يستسغها . وجعلته إحدى توريباته فى أشد حالات الغيظ . فأنتم تعرفون بيت الشعر الجميل الذى يصف فيه الصباح المبكر حين يسمع :

الصفير المبكر للطيور التى لم تستيقظ بعد . . .

وذات يوم خرج تنيسون إلى الحديقة يدخن غليونه قبل الإفطار فقابله رجل وقال له : « آه . إننى أرى . . . الغليون الأول للشعراء الذين لم يستيقظوا بعد » (ولم يبتسم تنيسون للنكتة بل أغضبته) .

" Ah, I see, the earliest pipe of half – awakened birds "

كذلك وجد برامز نفسه فى مناقشة عنيفة نظرا لمكانة ريتشارد فاجنر . فقد هاجم المعجبون بفاجنر برامز ووصفوه بأنه مقلد محافظ كل

أعماله حشو . ونعته واجنر « بالعازف اليهودى للشارداس » (النشيد أو الرقصة المجرية) . ورد أنصار برامز على هذا الهجوم ، ولذلك أغمطت كفاية برامز الفنية حقها لدى عدد كبير من الجمهور لعـــدة سنوات .

ووصل كل من برامز وتنيسون — فى أواخر أيامهما — إلى الشهرة فأصبح تنيسون من النبلاء وشاعر الملك ومنح الملوك برامز النياشين وأصبح الملحن المحبوب لمدينة فينا الرقيقة (حتى أصبح قائد أوركسترا هامبورج التى طالما طمع فيها) . لقد عرف غيرهما بأنهم من المجربين اللامعين ، أما هما — كل على طريقته — فقد أصبحا من أساتذة القرن التاسع عشر الـكلاسيكيين .

و بالإضافة إلى تشابه نهجيهما فى الحياة فقد تشابه الرجلان أخلاقا أساسها العميق طيبة القلب . وتظهرهما صورهما فى مطلع حياتهما وسيمين حليقين واضحى الملامح ، صافيي النظرات ، أرق وأنبل من هذا العالم الخشن . ولـكنهما أصبحا بعد ذلك عبوسين متجهمين وفى بعض الأحيان سمجين . اكتسب برامز مقت من حوله وانتشرت الحـكايات عن سوء طبعه حتى ليقال إنه توقف قبل انصرافه من

إحدى الحفلات وقال : « إذا كان بين الحاضرين شخص لم أوجه إليه إهانة فإنى أعتذر له » . والواقع أنه كان قادراً على أن يتخاصم حتى مع أقرب الأصدقاء اليه . كذلك كان تنيسون يجد صعوبة كبيرة فى أن يبدو مهذباً مع من لا يعرفهم . ومع ذلك فقد كانا ـ كلاهما ـ فى غاية الرقة مع الفتيات الصغيرات الخجولات وكانت اللحية التى أرخاها كل منهما فى كهولته مقصوداً بها التظاهر بالنضج وإخفاء طيبة القلب التى تظهر على الفم والشفتين .

ولم يتزوج برامز قط . أما تنيسون فتزوج . ولكن عرف كل منهما فى شبابه حباً عميقاً انتهى بالفشل . وقع برامز فى حب كلارا شومان ـ أرملة الملحن ـ بالرغم من أنها كانت تكبره بأربع عشرة سنة . كانت تفهمه وتعجب بإنتاجه وأحبته لدرجة أنها كانت تغار عليه. وقراره بقطع صلته بها سبب لهما آلاما شديدة . وبالرغم من أنه أحب بعد ذلك فقد مات وحيدا . وتغيرت حياة تنيسون بسبب موت أعز أصدقائه ـ هالام ـ فجأة . كان هالام شابا ظريفا وكاتبا ممتازا ،وكان قد خطب أخت تنيسون وقد قضى موته العنيف المفاجىء غير المنتظر على هناء أسرتين . وبعد انقضاء سبع عشرة سنة كانت الصدمة

لا تزال تحز فى نفس تنيسون، ولكنه ـ كفنان ناجح ـ وضع شعوره فى عمله فأنتج تلك المرثية النبيلة « للذكرى » .

وكان الرجلان متشابهين حتى فى طريقة عملهما . كان كل واحد منهما يكتب بسهولة و يلقى فى مهب الريح بكثير من إنتاجه وكان تنيسون يصقل القصيدة و يعيد صقلها لمدة طويلة بينما يكون غيره قد نشر قصيدته وانتقل لنظم غيرها . وكثير من أفضل قصائده نمت ببطء من مسودات فكر فيها قبل ذلك بسنوات طويلة (فمثلا « مود » كانت فى الأصل توسعا فى أغنية واحدة « آه لو كان من الممكن » قصيدة من قصائد الشباب نمت لتصبح تمثيلية كاملة) .وكان برامز يراجع أعماله بلا توقف . بدأت إحدى قطعه المشهورة كخماسية وترية ثم أصبحت سونانا لبيانين وانتهت إلى خماسية بيانو (أو بوس ٣٤) . وقال هو نفسه إنه أحرق عشرين رباعية قبل أن يسمح لنفسه بنشرها . وبعد أن ذاع صيته وأصبح على كل لسان كان لا يزال يتلف من موسيقاه ما كان لا يرتفع ـ فى ظنه ـ إلى مستواه .

وأخيرا تتشابه أعمال الرجلين العملية تشابها كبيراً . توجد طبعاً بعض الخلافات . لم يكن برامز يستسيغ المأساة ولم يحاول كتابة

أوبرا بينما نظم تنيسون تمثيليات شعرية . ولكن التشابه لافت للنظر. لقد قارنا سيمفونيات برامز بأشعار تنيسون البطولية وأغانيه وتلحين أغانى تنيسون . وكتب كل واحد منهما فى كهولته مرثية طويلة لموت عزيز قريب من قلبه . فقصيدة تنيسون « للذكرى » تطابق ولا شك « صلاة الجنازة الألمانية المقصود منها — كما يقول جيرنجر : « التوفيق بين الأحياء وفكرة الألم والموت » وستذكرون ولا شك — من جهة أخرى — رقصات برامز المجرية النارية ، ورقصات الفالس الڤينية الرشيقة .

وفى أعمال تنيسون قطع مشابهة بأسلوب عريض فيه لمسات من الفكاهة الخشنة والملح المكشوفة وخاصة فى « فلاح الشمال » وبين هذين الطرفين — فى عمل كل منهما ـ تتميز قطعة فريدة غريبة « مود » لتنيسون ، وهى مايسميه مأساة فريدة ، مجموعة من الأشعار الغنائية يقولها رجل واحد يروى فجيعة حب . وقد فقد برامز عام ١٨٦٩ الفتاة الجميلة جولى شومان ، وكانت النتيجة « الالتو رابسودى » الشهيرة ، مأساة عاطفية طويلة تروى آلام قلب وحيد ظامىء للحب .

والقرن التاسع عشر عهد انتعاش الفكرة القومية ، فكتب كل

من برامز وتنيسون قصائد تدور حول ما نسميه فى هذه الأيام التعصب للقومية ، وقلما تمثل أو تقرأ الآن ولكنها جزء من الصورة . وأشهر ما ألفه برامز أغنية النصر عقب غزو ألمانيا لفرنسا . أما تنيسون فقد نظم « هجوم الفرقة الخفيفة » وأشعارا أخرى صاخبة رامحة .

والتشابه وثيق فى كتاباتهما الذهنية الراجحة . فمناجاة تنيسون الهادئة العميقة التفكير من أمثال « تيتونوس » و « يوليسيز » و « أو ينون » تضم كل منها من الموضوعات مايكفى لرواية كاملة ، وهى مركزة فى صفحات قليلة من الشعر الرخيم . كلما قرأتها اليوم أكاد أسمع الانسجام الفنى والتقاسيم البديعة لأنغام برامز .

وأخيرا ختم تنيسون حياته بقصيدته العاطفية الخاشعة (اختراق الحاجز) كما كان آخر عمل لبرامز مجموعة بديعة من « أربع أغان جدية » أملتها عليه ذكرى موت كلارا شومان ولم يكن باقيا له من العمر (ولعله لم يكن يعرف) إلا بضعة شهور . ولم يكن يحب أن يستمع إلى تلك الأغنيات لأنها كانت تهيج من لواعج الحزن فوق ما يحتمل .

والمعجبون بتنيسون و برامز سوف يجدون ـ ولا شك ـ أوجها

أخرى للتشابه بين هذين الفنانين الرقيقين . والذين يعجبون بأحدهما دون الآخر يزدادون معرفة بتتبع التشابه بين الاثنين . ولم يقل برامز بقدر علمي شيئاً عن الشعر وإن كان قد أبدى إعجابه الشديد به فى أغانيه .أما تنيسون فقدنظم بيتين عن الفن الشقيق (الموسيقى) لامثيل لهما من حيث قوة التعبير . لقد مدح الموسيقى بقوله :

الموسيقى التى تحنو على الروح بخفة

أخف من حنو الجفون على العيون المتعبة

H. I' A. Fausset , Tennyson , a Modern Portrait (Appleton , 1923)

K . Geiringer, Brahms, His Life and Work (second edition , Oxford, 1947)

H . Nicolson , Tennyson (Houghton , Mifflin , 1925)

Jelle Postma , Tennyson as Seen by His Parodists,, (Amsterdam , 1926)

خمريات

تعيش الفكرة الطيبة — فى الشعر أو الفن أو الفلسفة — دهورا و يقتبسها مختلف الخالقين وتلهم كل واحد منهم بطريقة مختلفة. ومن أكبر المتع الأدبية أن تتتبع أثر كاتب جيد فى إنتاج كاتب آخر. وليس هذا نوعا من السرقة بل هو صدى و إعجاب.

وأمامى صدى صغير جميل استمر رنينه ستة عشر قرناً. بدأ فى اليونانية وعبر اللغتين الفرنسية والإنجليزية إنها أغنية خمر تحولت فى الآخر إلى أغنية حب.

كاتبها الأصلى غير معروف، وقد نستطيع أن نستنتج العهد الذى كتبت فيه. إنها من بحر فى الشعر فيه مرح ورقص :

الأرض السوداء تشرب وتشرب
والأشجار بدورها تشرب من الأرض
والبحر يشرب الهواء العليل
والشمس فى السماء تشرب البحر
والقمر بدوره يشرب الشمس المضيئة

فقولوا لى يا أصدقائى لماذا تظنون
أننى أنا وحدى الذى يجب ألا أشرب ؟

شعر صغير بسيط مؤسس على فكرة طيبة ، ظن الناس لمدة طويلة أن كاتبه هو الشاعر اليونانى الشهير « أناكريون » الذى كان مغرماً بالحفلات والغانيات والشراب ونظم أشعاراً جميلة فى ذلك كله . وهو من أحد البحور التى كان يفضلها . ولكن الخبراء يعتقدون الآن أنه ليس له وإنما لأحد مقلديه . والذى يمكن توكيده بخصوص هذا الشعر هو أنه يرجع إلى زمن متأخر من تاريخ اليونان لأنه مبنى على فكرة فلسفية متقدمة ـ فكرة أن العالم كله وحدة منتظمة متماسكة فى تبادل مستمر . . الشمس تسبب التبخر والقمر يستمد ضوءه منعكساً من الشمس وهكذا . . وحين يقول الشاعر :

والبحر يشرب الهواء العليل

يتجه تفكيره إلى أمطار السحاب التى تغذى البحر . وقد يتجه تفكيرنا نحن إلى الأنهار ، ولكن الأنهار الكبيرة نادرة فى اليونان ولا تتدفق بمثل قوة وانتظام أنهارنا .

وفى رأى عالم ألمانى أن هذا الشعر من نظم شاعر يهودى معروف

اسمه « اريستوبولس » عاش فى القرن الثانى قبل المسيح وكان من أوائل من طبقوا الآراء الفلسفية اليونانية على العهد القديم . وفى كتاباته المسلم بهـا آراء شبيهة بهـذه وإن كانت أقل منها استهتارا . ولـكن علماء ألمانيين آخرين قضـوا على هـــذا الرأى ، ونسبوا الشعر إلى نتائج قرائح المؤلفين المجهولى الاسم الأكثر شيوعا وتنوعا .

وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية — فى القرون المظلمة — نسى غرب أوروبا اللغة اليونانية وبقى « أناكريون » لعدة قرون مجرد اسم . ومضت أجيال . وفى أواخر القرون الوسطى بدأت اليونان تعود تدريجيا إلى الغرب وبدأ العلماء والشعراء يستمتعون بالشعر اليونانى الذى لم يكونوا يعرفونه إلا بطريق غير مباشر عن طريق التقليد والإشارات من الـكتاب الرومانيين . وأخذ الخبراء — من أمثال آل ميديتشى — يوفدون الوكلاء للشرق لاقتناء مخطوطات الـكتب اليونانية . وهكذا أخذ كبار كتاب الأدب اليونانى يبزغون من ثنايا الظلام الطويل الذى ختم عليهم . لقد كان العهد عهد اكتشافات ممتعة . وكان الناس يستقبلون ظهور كتاب كلاسيكى جديد بنفس

اللذة التى يشعرون بها لاكتشاف جزء من تمثال مشهور يستخرجونه من باطن الأرض بعد مضى ألف سنة على دفنه و بنفس الإحساس الذى غمر منذ سنوات قليلة الصيادين اليونانيين الذين وجدوا فى شباكهم تمثالا رائعا للاله « زيوس » نحته جدودهم الأقدمون وعبدوه .

طبعت أشعار « أناكريون » فى بادىء الأمر فى باريس . طبعها هنرى استين سنة ١٥٥٤ . . ومن ضمنها هذه الخمرية لأنهم اعتقدوا أنها من نظمه . وغمر الفرح الشعراء الشبان الفرنسيين بهذا الاكتشاف . وهل يسر الفرنسيون لشىء أكثر من سرورهم بأشعار تتحدث عن النبيذ المعتق والحب ؟ وأسرع الشاعر الفرنسى « ريمى بللو » بنشر ترجمة شعرية . وقبل ذلك نظم زعيم شعراء فرنسا « بيير دى رونسار » محاكاة لهذا الشعر نفسه فى مجموعة أناشيده الفخمة ، وأضاف شطرا جديدا ليجعل منها موشحين :

تشرب الأرض المياه الجارية

وتشرب الشجرة الماء بجذورها

و يشرب البحر المالح الريح

و تشرب الشمس البحر

والشمس يشربها القمر

والعالم كله - عاليه ودانيه — يشرب

إنها لقاعدة عامة

فلماذا لا نشرب نحن إذاً ؟

(الكتاب الرابع للأناشيد ٣١)

وهذا كلام واضح لا يكاد يختلف عن الأصل اليونانى ، رتب على شكل موشحات منظومة لا شعر منثور ، و به إضافة واحدة . فقد حرص رونسار على أن يشرح - أو كما قال :

والعالم كله — عاليه ودانيه — يشرب

إنها لقاعدة عامة . . .

ومع ذلك فهذا الشعر أقل رقة . لقد نظم الشاعر اليونانى — أياً كان — خمسة أبيات ووصف فيها الظواهر المتشابكة وترك لسامعيه أن يستنتجوا - بأنفسهم — ما يحلو لهم . و كثير من خير ما فى

للأدب اليونانى متروك للاستنتاج. ولكن رونسار كان أكثر وضوحاً وأقرب إلى الكلام المنثور.

ومضت مائة سنة أخرى وانتقلت الفكرة إلى إنجلترا. وفى هذه المرة تناولها شاعر ممتاز ظهر نبوغه منذ الطفولة، فقد نشر - وهو لا يزال بالمدرسة - مجموعة أشعار قيمة. إنه إبراهام كاولى المولود عام ١٦١٨. ولا أظن قراءه الآن إلا قليلين. فعهده - فى نظرنا - هو عهد ميلتون ودرايدن - ولكنه كان طموحاً جداً، ومن بين مظاهر طموحه معارضته لكبار الشعراء العاطفيين اليونانيين والرومانيين، ففى عام ١٦٥٦ نشر القصائد المنسوبة إلى « انا كريون » على طريقته هو. وإليكم الخمرية بأسلوبه :

الأرض الظمآى تشرب المطر
تشرب وتتلهف للشرب
والنباتات تمتص من الأرض
وهى - لدوام شربها - غضة وناضرة أبدا
وحتى البحر - الذى قد يظن الإنسان أنه فى

غير حاجة للشر .
يشرب عشرة آلاف نهر
مملوءة بالماء حتى تفيض
والشمس المشغولة (ويستطيع الإنسان أن يدرك
من احمرار وجهها واستدارته) تشرب بشره
تشرب البحر . وعندما تنتهى
يشرب القمر والنجوم والشمس
إنها تشرب وترقص بضوئها
تشرب وتمرح الليل بطوله
ولست واجدا فى الطبيعة شيئاً قانعاً (لا يشرب)
ومع ذلك فالصحة تغمر الجميع
املأ الكأس إذاً . املأها للثمالة
املأ جميع الكؤوس هنا . إذ لماذا
كل مخلوق يشرب إلا أنا

لماذا ، يارجل الأخلاق ـ قل لى لماذا ؟

ألا ترون معى أن هـــذا الشعر جميل ؟ ولـكن انظروا مدى التغييرات التى أدخلها كاولى . كان الأصل اليونانى من سبعة أبيات . القدر الـكافى لشرب نخب . . كما هى حقيقته . أما ترجمة كاولى فقد بلغت عشرين بيتاً . ففى الأصل الاقتصاد اليونانى . وهنا التوسع المصطنع . إننا نتصور المغنى اليونانى ورأسه مكسو بشعر قصير أجعد وفوقه ضفيرة من الأزهار . أما كاولى فيبدو بجمة (باروكة)ذات شعر مرسل يكسو كتفيه وتحيط عنقه ياقة كبيرة من الدانتيلا .

ولـكن كاولى جعل الأغنية أكثر مرحاً من الأصل .أو كما قال الدكتور جونسون بأسلوبه الصارخ المعروف :« يبدو أن قدرته تـكون أكثر قوة فى المسرات والأمور المألوفة» .وهذا الرأى الجديد يؤيده قول كاولى على سبيل المزاح أن الشمس تبدو سكرى لوجهها الأحمر المرح . وقوله إن القمر والنجوم ترقص بدافع من نور ذاتها وهو خيال شاعرى مرح . ولم يكن فى مقدور اليونانيين أن يقولوا : « لا شىء فى الطبيعة قانع » ولـكن كاولى صحح الوضع بعد ذلك بطريقة جميلة فريدة حين أضاف : « ومع ذلك فالصحة تغمر الجميع » .

ومما يلفت النظر خطأ صغير فى الترجمة أو لعله تغير مقصود . فالشاعر اليونانى يتحدث عن شرب البحر للهـواء أى للسحاب والطل . على حين جعلها كاولى — بتعبير لفظى غنى — « عشرة آلاف نهر » .

وكذلك تفصيلات كثيرة تذكرنا بوصف بدء الخليقة الذى نظمه ملتون بعد ذلك بإحدى عشرة سنة فى « الجنة المفقودة » . لقد قال الشاعر اليونانى » والأشجار بدورها تشرب من الأرض»فى حين قال كاولى بألفاظ أكثر حيوية ، وأضاف نـكتة ظريفة :

والنباتات تمتص من الأرض

وهى — لدوام شربها — غضة وناضرة أبدا

وأخيرا لعلنا نستطيع أن نتتبع الفرق بـين الوثنية والمسيحية أو على الأقل « الحنبلية الدينية » فى ختام القصيدتين . فأصدقاء اليونانى يطلبون منه عدم الإسراف فى الشرب . ما كاولى — فى القرن السابع عشر — فيواجهه رقيب صارم ، وهو لذلك يصرخ فيه : « قل لى يا رجل الأخلاق . . قل لى لماذا . . . لا أشرب »

ومضت مائة سنة وخمسون أو نحو ذلك ، وقرأ القصيدة شاعر إنجليزى شاب فى السابعة والعشرين من عمره يعيش فى إيطاليا غريب الأطوار مرهف الإحساس ، و بالرغم من أن بعضهم يقول عنه إنه رومانتيكى إلا إنه كان دارساً مخلصاً للشعر الكلاسيكى — هو شيللى الذى لو لم يقتل قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره لكان قد منح أدبنا نتاجاً فى مستوى مسرحيات شكسبير . درس اليونانية دراسة كاملة وعرف هذا الشعر منسوبا إلى « أناكريون » قصيدة خمرية . ولكنه هو لم يكن يأبه بالخمر . فقد كان الماء القراح وخياله الرماح يكفيان لإسكاره . لقد كان يشبه الشاعر الذى وصفه « كولريدج » فى « كوبلاخان » « تغذى بندى العسل وشرب من لبن الجنة » . وكان للفتيات الجميلات سلطان عليه . لقد تزوج مرتين وكان له محبات كثيرات . كان الجمال ملهم شيللى القوى، لذلك حول الخمرية القديمة إلى أغنية حب سماها « فلسفة الحب » .

تختلط الجداول بالنهر

والأنهار بالمحيط

ورياح السماء فى اختلاط دائم

بإحساس جميل

ليس فى العالم شىء وحيد

جميع الأشياء نزولا على قانون الإله

تتقابل وتمتزج فى روح واحدة فلماذا لا تمتزج روحى بروحك ؟

انظرى ، إن الجبال تقبل السماء العالية

والأمواج تحتضن كل واحدة منها الأخرى

وما من زهرة يغتفر لها

إذا هى أهملت أختها

وضوء الشمس يحتضن الأرض

وأشعة القمر تقبل البحر

ما قيمة كل هذا الجهد الجميل

إذا أنت لم تقبلينى ؟

وللمرة الأولى تحولت القصيدة الصغيرة إلى إحدى الروائع الشعرية

الممتازة . لقد كان شيلى كاتبا متفوقا يفوق ـ بمراحل ـ مقلد أناكريون اليونانى والشاعر الفرنسى رونسار برغم كل كفاياته والمقلد المزخرف كاولى،وكان أكثر عاطفية ، ولذلك تناول فكرة من الدرجة الثانية وجعلها من الدرجة الأولى بقوة شخصيته الملحة . وكان يصعب علينا أن ننسبها إلى الأصل اليونانى لو لم يصر هو نفسه على تسميتها « أناكرونية » .

وفلسفة الحب هذه قصيدة جميلة حقا . إننا لانعرف من كانت ملهمته ولكننا نعرف أن شيلى كتب صورة منها بخط يده وأهداها للآنسة صوفيا ستاسى ، كما أن هناك قصيدة أخرى فى السنة نفسها عنوانها « إلى صوفيا » تتحدث عن الأطراف الناعمة والعيون الجميلة العميقة ، وهذه القصيدة — بالذات — لم تنشرها زوجة شيلى كما فعلت بقصائده الأخرى ... إذا ... فربما .

وهى مع ذلك طرفة فريدة . وللمرة الثانية بدل الشاعر الأساس الأصلى وطريقة معالجة القصيدة . فتلميذ أناكريون قال فى بساطة : « إن كل شىء يشرب فلماذا لا أشرب ؟ » أما شيلى فقد حولها إلى

الحب ، ثم حلل الحب إلى مظهرين مختلفين ، كل منهما فى بيت من الشعر . الحب متعة روحين تندمجان ، لذلك نجد شيلى يقول :

ليس فى العالم شىء وحيد
جميع الأشياء نزولا على قانون الإله
تتقابل وتمتزج فى روح واحدة
فلماذا لا تمتزج روحى بروحك ؟

ولـكن الحب أيضا متعة شخصين ، كل منهما بجسم الآخر ... قوة الرجل وجمال المرأة . لذلك يختم شيلى قصيدته بصورة عناق :

ضوء الشمس يحتضن الأرض
وأشعة القمر تقبل البحر
ما قيمة كل هذا الجهد الجميل
إذا أنت لم تقبلينى ؟

لقد رسم صورتين من أصل واحد هو الوحدة المتشابكة فى الطبيعة .

ولأنه شيلى فقد قضى على وحدة السياق المملة فى الشعر الأصلى

الذى تحدث بشىء من البدائية عن الشرب ، والشرب ، والشرب . وبدلا من ذلك منحنا (أو على الأصح منح حبيبته) الاختلاط والتمازج والتقابل والقبلة والعناق . وحقق بجد واتزان ما أراده كاولى هزلا . لقد أدخل على الموضوع وحدة الوجود ، ففى الصورة التى رسمها كاولى الطبيعة سكرى ، والصحة تغمر الجميع ، أما فى الصورة التى رسمها شيلى فالله يحكم الطبيعة وهى سعيدة :

رياح السماء فى اختلاط دائم
بإحساس جميل

ثم جملة رقيقة تسجل الحركة والانفعال النفسى :

ليس فى العالم شىء وحيد
جميع الأشياء نزولا على قانون الإله
تتقابل وتمتزج فى روح واحدة

أليس من المدهش أن نجد قصيدة من سبعة أسطر ينظمها يونانى مقلدا شاعراً يونانيا مشهورا تعيش نحو ألفى سنة ، ثم تتحول

فى عصر النهضة إلى أغنية ، ثم إلى شعر فكاهى مفرط ، وأخيرا إلى قصيدة حب عاطفية (رومانتيكية) مقصود بها إقناع فتاة لتعجب بجمال الطبيعة . وهكذا كلما أصبحت النظرة الأخلاقية عسيرة ضيقة الحدود ، امتاز الشعر . أم ترانا نعتبر الخمر أقل أهمية من الحب ؟ أم أن اليونانيين كانوا أكثر اتزانا ؟

الساحر العجوز

ساحر عراف صوفى . يكشف الغيب . هذه كلها صفات تناسب شاعرا من أكبر شعرائنا المحدثين .

رأيته وتحدثت إليه مرة واحدة وكان قد أشرف على السبعين . والذى أذكره عنه أنه كان طويلا مهيبا متجهما . وكان يرتدى حلة رمادية مهلهلة ورباط عنق من الصوف وحذاء عاليا يصل إلى ركبتيه وشكله يدل على المغامرة كما لو كان معتزما السفر فى رحلة طويلة خطيرة . ويدل على أنه يكره أن يحبس بين جدران وسقف هادئة . وأخبرنى مضيفنا أن الساحر يشكو من مرض معين ، وأن هذا الحذاء يخفف من آلامه . ولكنه جعله أشبه بقرصان وغد ، أو كما وصف هو نفسه : « رجلا متوحشا هرما شريرا » . وبدا لى قاسيا فى حديثه عنيفا مع مضيفنا وحملت ذلك — وقتذاك — على صغر سنى وضعف إدراكى . ولكننى أدرك الآن أن الرجل الهرم الشرير كان تعسا يجد صعوبة فى أن يترفق حتى بنفسه . إنه الشاعر وليم بتلر ييتس . كان يكره الشيخوخة ويكره جسمه وأغلب مظاهر الحياة

المحيطة به .

ولقد قال فى ذلك قصيدة تثير الشجون، نظمها فى السنوات الأخيرة من حياته المعذبة :

من الناس من يظن أن من الطبيعى
أن يجيع الحظ الطيبين ويقدم الأشرار
وأنه إذا ظهر الجيران فى وضوح
كما لو كانوا على شاشة مضاءة
لن يجدوا حكاية واحدة
عن عقل سعيد لاثلمة فيه
وهى خاتمة تتفق مع البداية
والشباب لايعرفون شيئا عن هذا الأمر
على حين يعرفه الكبار المتنبهون حق المعرفة
وحين يعرفون ما تقوله الكتب القديمة
وأن إدراك ما هو أفضل غير ميسور
يفهمون لماذا يصيب الجنون الرجل العجوز

لقد كان هو نفسه فى تلك السنين على حافة الجنون . إن جنون الشباب مؤلم ولكنه محتمل . أما جنون الشيخوخة فلا يحتمل ، لأنه معركة : معركة بين مبدأ الحياة ومبدأ الموت . بين الروح القوية والجسم المتحلل . بين السمعة العامة والشهوة الخاصة . بين الواجب والشخصية . بين اللياقة والاندفاع . بين الضرورة المحدودة وأمل الخلود . كان هذا هو الجنون الذى كافحه ييتس عند اقتراب النهاية . وإنك لتجد أصداء عنيفة لهذا الكفاح فى قصائده الأخيرة . وتوجد دراسة دقيقة لها فى كتاب فيفيين كوخ « الشكل المفجع » . ولكن القصائد نفسها تسمو على كل تحليل .

ولد ييتس منذ قرابة قرن عام ١٨٦٥ وتوفى عام ١٩٣٩ من أبوين من البروتستانت ، والظاهر أن جدوده مثل سويفت وشو وكتاب إنجليز أيرلنديين كانوا خليطا مؤلما من الإنجليز والسلتيين . من الفقر والغنى . من العلم والجهل . من استقامة الرأى وغرابة الأطوار . من الواجب والتمرد . وقال ييتس : إن والديه كانا يحملان الاسم الكورنوالى « بوليكسفن » والاسم الإنجليزى « ميدلتون » . ويذكر أنه سمع حكايات عن جدود له حاربوا فى سبيل التاج البريطانى . ومات أحد أعمامه فى معركة أورليان الجديدة . وآخرين كانوا من

أنصار الوطنيين الأرلنديين وكانت مربيانه ورفقاء لعبه من السلتيين الارلنديين، ولكن أبويه كانا يشعران بأن موطنهما الثقافى هو لندن التى نشأ فيها ييتس وأمضى بعض سنوات حياته العاملة. وكان يكتب بالإنجليزية وأنا أشك فى أنه درس اللغة الأيرلندية السلتية. ولقد صرف جزءاً كبيراً من جهده فى سد الثغرة بين الإنجليز والأيرلنديين، وخاصة بمحاولته خلق مسرح أيرلندى باللغة الأرلندية الإنجليزية. لقد اشتهر الأيرلنديون بتفوقهم فى رواية الحوادث ولكن لم تكن لهم تمثيليات أهلية ولا كتاب أهليون إلى أن بدأ ييتس وأصدقاؤه يكتبون. لقد قرر هو وبعض كتاب قلائل أن يضيفوا جديدا إلى الأدب الأيرلندى مجموعة تمثيليات عن أحداث بطولية وخيالية من الأساطير والتاريخ الأيرلندى باللغة الإنجليزية. وأعدت أغلب كتاباته — فى البداية — لسرد الوقائع لا للتمثيل، إذ ما السبيل لإخراج تمثيلية عقدتها معركة تدور بين أمير محارب وأمواج البحر الهائج؟ وكان يكتفى بمجرد وصفها، ومعنى ذلك أن ترد التمثيلية إلى الشكل الروائى الذى اقتبست منه ولم يكن من السهل على العالم المتحدث باللغة الإنجليزية أن يتذوق تمثيليات ييتس. ولم يكن سكان إنجلترا نفسها ولا المتفرجون فى تورنتو وأدنبره ونيويورك يخفون دهشتهم وحيرتهم من هذه الحكايات الوحشية المقتبسة عن العصر السلتى الحديدى الذى سبق التاريخ المسيحى بسنوات طويلة. ومن جهه

أخرى كان إعجاب الوطنيين الايرلنديين بها محدودا لأنها مكتوبة بالإنجليزية وصلتها واضحة بالأسلوب الشعرى الإنجليزى . ويقول ييتس إن الأشعار الأولى التى تأثر بها هى مجموعة أشعار أورنج وكتاب ما كولى عن « أوضاع روما القديمة » ومنها انتقل إلى سكوت وشكسبير ثم إلى بيزون وشيلى وتنيسون و براوننج وسبنسر، وفى كثير من نتاجه الناضج صدى لأوزان سوينبرن . وكان لامفر لكتاباته التمثيلية من أن تخلق — أو تعبر — عن تضارب ليس من السهل تفسيره .

وكان ييتس رجل المتناقضات . ما من أحد يعرف بوضوح — إلى يومنا هذا — ماذا كان يحاول عمله ويأمل تحقيقه فى حياته العملية وبكفايته الخارقة . ولا كان هو نفسه يعرف . كان يظن أحيانا أن واجبه أن يكتب لأقلية صغيرة من الأرستقراطيين المثقفين مهملا رأى الدهماء . ومع ذلك فحين أساء الجمهور استقبال كتاباته جرح فى كرامته جرحاً عميقا . وبعد ذلك عندما منح جائزة نوبل وذاع صيته فى جميع الأرجاء كان كثير الدهشة لايبدو عليه الارتياح .

وقد نظم هو نفسه :

لطالما حنقت وأنا صغير
حين كان العالم يضطهدنى
ولـكنى أراه الآن يودع بلسان الملق
فى الضيف المنصرف

ولما قامت الجمهورية الأيرلندية عمل جاهدا فى تقوية ثقافتها . وهو — مع ذلك — كان يزدرى كل ما يتصل بالدول والجمهوريات والحكومات ، وكان يعتبرها كلها سخافات إذا قيست بحياة الفرد وتجارب الروح . وبين أشعاره الأخيرة قصيدة وجدانية صغيرة غريبة تعبر عن بعض سخطه هـذا وتشرح بعض متاعبه ، عنوانها « السياسة » ، وفى مقدمتها ملاحظة مزورة خاوية من كل معنى لتوماس مان :

مستقبل الإنسان — فى أيامنا هذه — يقاس بتعبيرات سياسية .

وكان ييتس يكره أمثال هذه الأقوال والاستنتاجات الشاملة المهلهلة ، ويحتقر النشاط السياسى لذاته . كان شهوانيا ذا عين وقادة .. وإليكم حكمه على المناقشات السياسية :

كيف أستطيع وهذه الغانية تقف أمامى

أن أحول اهتمامى

إلى سياسة رومانيا أو روسيا أو إسبانيا

ومع ذلك فها هو رحالة يعرف

ما يتحدث عنه

وهناك سياسى

قرأ وفكر

وربما كان ما يقولونه صادقا

عن الحرب وأخطار الحرب

ولكن أواه ! وددت لو عاد لى شبابى

وأمسكتها بين ذراعى

مسكين ييتس . إنه يشبه فى هذا الإحساس تولستوى العجوز .. ومع ذلك فالرجلان يختلفان فى أمور حيوية . لقد أصبح ييتس وطنيا فى حين انتهى تولستوى إلى إهدار الوطنية . وكان تولستوى مهتماً جدا بالديانة المسيحية، حاول أن يتشبه بالقديسين ، بينما وجه ييتس أغاب

تفكيره الديني إلى عبادات ما قبل التاريخ من الوثنية الأيرلندية وفلسفات آسيا الغامضة . وجه تولستوى اهتمامه للفلاحين وحاول أن يقلد بساطتهم . أما ييتس فلم يكن يأبه بمعيشة العمال الزراعيين ويعتزل في برج ليتجنبهم . هل تتصورونه يعمل فى الغيط ويعود فى المساء للعشاء . كما كان يفعل تولستوى حافى القدمين والعرق يتصبب منه ؟ وقد أحب ييتس حبا يائسا غير موفق . أحب امرأة جميلة مترفعة ، بينما يقولون لنا إن تولستوى كان يتجه بحبه إلى نساء الغجر والفلاحات ،حتى إن زوجته — حين تقدمت به السنون — كانت تختفى فى ملابس الفلاحات وتتبعه إلى الغابة .. على أمل ... أنه ربما ... وبدأ ييتس حياته فى الطبقة المتوسطة، ثم أصبح أرستقراطيا بينما بدأ تولستوى نبيلا وحاول أن ينهى حياته فلاحا روسيا . ولكن كلا منهما كان واسع الخيال متجها بقوة للجنس ، يتعذبان بسبب مطالب الجسم والأعصاب وقرب انتهاء حياتيهما ، كانا « شقيين متهورين » كالملك لير تعربد العاصفة بقوة فى شغاف قلبيهما .

وأمثال هذه العواصف لا يمكن تهدئتها إلا عن طريق الدين والفلسفة . لذلك نجد ييتس يشتغل — طول حياته — بالتفكير

الفلسفى ، فرسائله إلى استورج مور غاصة بمحاورات جدلية دقيقة فى مسائل فلسفية معقدة ومنها محاورة ممتعة عن مشكلة واحدة تبدو نوعا من الجنون وإن كانت قيمة حقا . يقول ييتس إن راسكين أمسك مرة بشبح قطة وقذف به من النافذة. ويقول إنه — هو نفسه — رأى صورة حقيقية وشبحها متجاورين. ويتساءل كيف يمكن القول بأن كلا من الصورتين حقيقى . وهى طبعا مشكلة لاتقبل الحل — مشكلة المظهر والحقيقة . ولكنك تستمتع بمتابعة عراك ييتس معها لأنه — أكثر من سواه — كان يؤمن بوجود طبقات ومستويات مختلفة فى الحياة ، وكان يعيش — مثلنا — فى عالمين فى نفس الوقت .

وحتى فى المسائل السياسية كان ييتس يعيش فى عالم ويتبع عالما آخر . ولا أحسبه اعتقد — فى أى وقت — أن الديمقراطية نظام حياة معقول يستحق الإعجاب . فرسائله تظهره لنا يقرأ شبنجلر بإعجاب ويتحمس للفيلسوف الإنجليزى وندهام لويس . إن قرا وندهام ليويس الآن قليلون لأن أسلوبه جاف وعبارته منفرة وأفكاره لا تمضى على وتيرة واحدة . ولكنه ناقد مؤمن ومن الكثير من

المبادىء الديمقراطية . وتبعه ييتس، لا إلى حد الفاشية ، ولـكن لدرجة الإعجاب بالإنسان الأسمى و بأن عالمنا يستند و يكتسب وجوده من أعمال الأسر النبيلة والجماعات المنتقاة . إن أغلبنا يعيش فى حاضره وسط الزحام ، ولـكن ييتس كان وحيدا لا يخالط إلا القليل من الأصدقاء وقضى حياته فى الماضى وفى المجهول .

لـكن الأشياء التى ملأت عقله وأضفت على شعره القوة لم تـكن لا مجادلاته الفلسفية ولا تفكيره السياسى . فقد كان يشعر أن أغلب الخلافات التى تقلقه فى نفسه أو فى عالمه مما لا يستطاع حله عن طريق العقل وحده . ولذلك يبدو أنه كان يعتبر نفسه ساحرا لا شاعراً . فالكثير من أقوى أشعاره يختص بالسحر . والبعض من أفضل أشعاره لا يخرج عن أن يكون نوعا من السحر . ومتى قرأت تاريخ حياته أدركت على الفور أن تفكيره فى المقومات الأدبية أقل بكثير من تفكيره فى مقومات السحر . ولا أعنى مجرد تصوف — وهو نوع من التفكير فى طبيعة الخالق، ومجهود من نوع جديد للاتصال به — وإنما أقصد السحر الفعلى الواقعى من أعمال وأقوال لاستحضار وللسيطرة على قوى غير طبيعية . وكانت زوجة ييتس تعطف عليه

وتشاركه في عمله فقد كانت وسيطته ... ومن خلال ما أوحت به إليه زوجته في أثناء تنويمها كتب أغرب وأعمق أشعاره وأكثرها تماسكا الوصف السري لعالم الأرواح المسمى « الرؤيا » .

وطبيعي أن أكثرنا لا يدعي السحر ولا يميل إلى التصوف ويجد صعوبة في أن يحمل أمثال هذه الأمور محمل الجد وقد يحتملها فقط لمجرد أنها تساعد على خلق شعر جيد . ولكن أمامنا طريقة أخرى لفهمها وإقرارها ، وهي أن ننظر إلى جهود ييتس السحرية من خلال تحليل العالم النفسي كارل يونج . فهو في تحليل بديع لمصنفات كيمويي القرون الوسطى يلفت النظر إلى أن الكيمويين (وكثيرا من السحرة ضمنا) في تلك القرون كانوا يشتغلون فعلا بأبحاث تتصل بأرواح . ولم يكن غرضهم مجرد الحصول على الثروة أو النجاح المادي، وإنما لتخفيف النزعات في الروح الإنسانية والوصول بها إلى درجة الانسجام. ومن أعمق دروس يونج قوله إنه يجب على الإنسان ليصبح عظيما أن يتقبل الآلام على أنها ضرورة . وهذا ما لم يكن ييتس يقبله أبدا .. ولأنه أبى أن يتفهم المأساة تفهما كاملا لم يحاول قط أن ينتج عملا شعريا ضخما واحدا . وكل ما استطاعه ييتس — عن

طريق الشعر ـ هو شرح النزعات التي عذبته . ولكنه استطاع ـ عن طريق السحر لفترة ما على الأقل ـ أن يستعلي عليها .

The Autobiography of William Butler Yeats (Macmillan, 1953)

The Collected Plays of W.B.Yeats (Macmillan,1953)

The Collected Poems of W.B. Yeats (Macmillan,1951)

W.B. Yeats and T. Sturge Moore,Their Correspondence 1901—1937 (ed. U. Bridge, Oxford,1953)

C. G. Jung Psychology & Alchemy (tr. R. F. C. Hull, Bollingen, Series xx, Pantheon, 1953)

Vivienne Koch, W. B. Yeats, The Tragic Phase (Johna Hopkins, 1952)

أستاذ المتناقضات

تتدلى على حائط مكتبي صورتان لعالمين كلاسيكيين . يبدو من إحداهما وجه عطوف له رأس مستدير كبير وعينان هادئتان تنظران إلى الفضاء البعيد كما لو كانتا تنصتان إلى أنغام موسيقية . تلك صورة جلبرت موراى . ومن الثانية وجه كريه ولكنه يتوقد ذكاء تحسبه محامى أرياف بريطانيا ، وخلفه نضد عليه أكوام من الكتب ومكتبة مزدحمة بها وهو يرتدى بزة قديمة ذات بنيقة مفردة ، ورباط عنق عريضا . إنه أبيض الشعر أسود الحاجبين له شارب كث يتدلى عند طرفيه ويستدير ليخفى صرامة الفم . وبين حاجبيه تقطيبة ثابتة ونظرة حادة — ولا نقول متخشبة — وفيها تعبير مترفع . . ذلك هو ا . ا . هوسمان .

كان هوسمان إنساناً متناقضاً . لقد بقيت أفكر فيه من وقت لآخر طوال ثلاثين سنة ، وما زلت لا أستطيع فهم شخصيته الكاملة ولا عمله كله . ولن يفهم أحد الآن بعض الأمور المتصلة به . . ومع ذلك لا أستطيع صرف تفكيرى عنه أو أن أتوقف عن أن أتساءل عن

بواعث بعض تصرفاته . إن صورته تواجهنى كل يوم ـ منفـــرة بغيضة ـ على عكس ما فى صورة جلبرت موراى من جاذبية وتشجيع . إن الجزء الأكبر من منهاج حياته كان كعالم جدير بالإعجاب . كان أكبر خبير بريطانى فى اللغة اللاتينية وأحد ثلاثة معتبرين أكبر خبراء العالم فيها . وله شعر جميل منشور فى ثلاثة مجلدات صغيرة « غلام شروبشاير » و « الأشعار الأخيرة » والمجلد الذى طبع بعد وفاته « أشعار أخرى » . رجل ممتاز ولـكنه صعب .

وقد أنتجت هذه الحياة الطويلة ، ١٨٥٩ ـ ١٩٣٦ ، المجدة ثلاث مجموعات أشعار صغيرة عاطفية لا تتجاوز مائة وخمسين تدور كلها تقريباً حول الشباب . . . وبعضها عن الجندية ، وعن الجريمة ، والموت والانتحار . وكلها عالج بطريقة تنبض بالشباب وصور الشباب (أزهار الربيع والموسيقى الشعبية والرقص الريفى والرياضة وتسلق التلال) وبالاتصال بالطبيعة . إنها لا تحدثنا عن الرجال والنساء وإنما عن الأولاد والبنات . وحتى أوزانها . . فهى أوزان المدائح والأغانى الشعبية ، ليس فيها تصنع ولا تعقيد . إنها خلابة . ولـكن أليس من التناقض أن الشاعر الذى نظمها كان فى نظر العالم أستاذاً بارداً ، مرا

سريع الغضب ، متجهماً ، يبدو كما لو كان ولد شيخاً . يخشاه أقرب المقربين من أصدقائه، واعتاد أخوه أن يتسلم منه خطابات قاسية جارحة. وإن هـذا الرجل احتفظ بكشكول ممتلىء بالأهاجى (وفيه أسماء ضحاياه على بياض) لينشرها فى المجلات أو يقحمها فى أحاديثه كلما واتته الفرصة ليسبب ألماً ؟

ولم يخل إنتاجه فى الموضوعات الـكلاسيكية من التناقض . إنك تتوقع ـ إذا سمعت عن أستاذ فى اللغات الـكلاسيكية كتب مجموعة أشعار أذاعت اسمه فى جميع أنحاء العالم المتحدث بالإنجليزية ـ أن يكرس ذلك الأستاذ نفسه لدراسة أدبيةمتعمقة عن اليونانية واللاتينية. وأن تضم كتبه إيضاحات لأسلوبهم الفنى ، ومفرداتهم اللغوية الغنية، ومعانيهم المتعددة وجميع ما فى كتبهم من دراسة صعبة للإنسانية . ولـكن لا كذلك هوسمان . إن أهم إنتاج له كعالم كلاسيكى طبعة من خمسة مجلدات لمانيليوس ، وهو شاعرلاتينى مغمور ، تضم أشعاراً عن الفلك وعلم التنجيم . وقد قضى هوسمان ثلاثين سنة فى هذا البحث ووجه جهده إلى أمرين ـ لا شاعرية فيهما ـ شرح ما فى نظرية التنجيم اليونانية الرومانية من غموض ، وتصحيح الأخطاء التى أدخلها كتاب القرون الوسطى على النص الأصلى .

وفى أشعاره تناقض آخر ، وخاصة حين تقرأ كلها من أولها لآخرها . وهذا هو التناقض . إن الأشعار كلها مستقيمة ومباشرة كما يلى :

تتدلى الآن شجرة الكرز أجمل الأشجار
مزهرة على طول غصنها
وتقف فى طريق أرض الغابة
متشحة بالبياض احتفالا بأسبوع القيامة

الوزن فى هذه الرباعية هو وزن الأغنية الشعبية ، والقافية بسيطة، والكلمات (وإن كانت غنية بالشاعرية) لا غرابة فيها ، والرباعية كلها جملة واحدة هادئة ، والفكرة ببساطة وصف مضاف إليه تشبيه . والأمر كذلك فى كل رباعيات وكل أشعار هوسمان العاطفية .

إنها واضحة . وفهمها ــ متفرقة ــ سهل . ولكن يصعب معرفة المراد منها مجتمعة . يسهل عليك فهم قصيدة بذاتها . وثانية وثالثة ، لكنك تفشل إذا حاولت أن تفهم المقصود منها كمجموعة . . . ومع ذلك فإن هوسمان نشرها فى مجموعات مرتبة .

لقد أريد للأشعار أن تكون مفهومة ولكنها لم تفهم . إنها واضحة وغامضة فى الوقت نفسه . ألفاظ صريحة ولكنها محدودة المرمى . إنها تخفى سراً وتفشيه فى ذات الوقت . ويزداد هذا الازدواج وضوحاً حين تقرأ بعض الأشعار التى نشرها أخوه بعد مماته لأنها أكثر صراحة من أشعار هوسمان الأولى كما لو كان قد أتعبه الاحتفاظ بسره .

وفى هذا المجال أرجو ألا يظن ظان أن واجبنا ألا نناقش ما تخفيه هذه الأشعار . إن كل من ينشر كتاباً إنما يقول شيئاً للناس يود أن يسمعوه . إنه يريد لكلماته وأفكاره أن تناقش وأن تذكر . كان هوسمان أستاذ اللغة اللاتينية . وكان يدرك أن العلماء سيفحصون بدقة أمثلة ، ووسائل ، وفن وإلهام وفلسفة أى شاعر يستحق أن يقرأ . كان يعرف ذلك حق المعرفة ، فقد وضع فى الصفحة الأولى لأحد كتبه النثرية كلمة هوراس « الكلمة التى تقال لا تسترجع » . فلو أنه أراد ألا يفضح شيئاً يتصل به فما كان عليه إلا أن ينشره أو يوزعه بين أصدقائه القليلين . وكان يستطيع نظراً لأنه عالم كلاسيكى مبرز أن يوجد لنفسه اسما بطرق أخرى ، ولكنه نشر « غلام

شرو بشاير » على نفقته الخاصة بعد أن رفضه ناشرون كثيرون . وإذاً فقد أراد لأشعاره ومعانيه أن توضع على بساط المناقشة .

وقد كان شعره وحياه يجمعان الضدين : العلانية والسرية فى ذات الوقت . إن كلا منهما يضىء الآخر .

ولد ا . ا . هوسمان عام ١٨٥٩ فى غرب إنجلترا ـ لا فى شرو بشاير . وحاول أيام دراسته فى كلية سان جون بأكسفورد أن يحصل على جوائز جامعية ولكنه لم يفلح . وللشهادة الجامعية التى كان يطمع فى الحصول عليها درجتان : الأولى (اللغات الكلاسيكية والآداب) وقد حصل فيها على مرتبة الشرف الأولى ، والثانية (الفلسفةوالتاريخ) سقط فيها سقوطاً فاحشاً . وترك أكسفورد وقد تضاءل أمله فى المستقبل عما كان قبل التحاقه بالجامعة . وسودت هذه الخيبة المرة حياته كلها .

وقد أمضى السنوات العشر التالية فى التفكير عنها ، والتحق بوظيفة حكومية صغيرة ليقيم أوده . كان يعمل فى وظيفته يومياً ويمضى أمسياته فى المتحف البريطانى يجرى فيه بحوثاً خاصة عن الشعر الكلاسيكى وانتقاد النصوص . وكون لنفسه ـ تدريجياً ـ اسماً معروفاً بنشر بحوث مدروسة وضعته فى مصاف أكثر علماء ذلك الزمن

مستقبلا . وهكذا أصبح ـ عام ١٨٩٢ ـ فى الثالثة والثلاثين أستاذ اللغة اللاتينية بجامعة لندن حيث درس كثيراً وعلم قليلا ونشر بحوثا أكثر وأعمق فى المجالات الفنية للبحوث الكلاسيكية ، إلى أن عين عام ١٩٠٥ لكرسى كندلى فى كمبردج للدراسات اللاتينية وظل يشغله إلى أن توفى عام ١٩٣٦ .

ظهر كتابه « غلام شروبشاير » عام ١٨٩٦ حين كان فى السابعة والثلاثين ، وكتابه « الأشعار الأخيرة » عام ١٩٢٢ وهو فى الثالثة والستين ، ثم مجموعة ثالثة صغيرة نشرها أخوه لورانس هوسمان .

وتناقض آخر يظهر فى شعره : إن القصائد فى هذه المجلدات الثلاثة مقبضة بصفة عامة ، وحزينة مؤلمة أحيانا . وكان مظهر هوسمان مظهر رجل متجهم متضايق قلما ابتسم . ومع ذلك فقد نظم أشعارا مرحة ومعارضات وهجاء . فكتابه « مقتطفات من مأساة يونانية » من أبرع المعارضات الشعرية وأعمقها . . انظر إلى هذا الهجوم الذى جال بخاطره وهو يحلق ذقنه ذات صباح . كان قد قرأ عن انتخاب بابا جديد . وهو انتخاب مرهق يتطلب إجراءات طويلة فكتب :

إنه لشىء مخيف أن تكون

بابا

إنى أرجو ألا يوضع هذا الصليب

فوقى .

وكثيراً ما يقول البابا نفسه

وهو يتطلع إلى عمل اليوم :

إنه لشىء مخيف أن أكون

أنا .

والواقع أن هوسمان كان يمثل شخصيتى أستاذ وشاعر . وهو كأستاذ كتب كثيرا وحاضر بانتظام . أما كشاعر فقد كان مقل النظم ، مقل الظهور . . وهذا الجانب الثانى منه قلما عرفه الذين عاشوا بعده ليتحدثوا عنه . . . بما فيهم أخوه لورانس وناشر كتبه جرانت ريتشارد وزملاؤه فى المدرسة . فليس من بينهم من كان يفهمه على حقيقته . وقد صوروا شخصيته بصور متعددة . ولكنهم جميعا عرفوه فى وقت متأخر من حياته بعد أن استكمل التجارب

التى خلقت شاعريته (على حد قوله) . وهؤلاء المعارف (أو الأصدقاء) يتحدثون عنه بعد ما بلغ الخامسة والثلاثين أو نحوها فحسب .

وتدور جميع أشعاره تقريبا حول الشباب . أى إنها تشير إلى أمر حدث له فى شبابه . إن مأساته الكبرى - فى شبابه - فشله فى أن يحسن استعمال عقله ويجد طريقه المباشر إلى منهج ممتاز بوصفه أستاذا . وربما بدا أن فشله فى أكسفورد هو الذى خلق معظم شعره . . . رغبة الفناء وكراهية العالم والوحدة التى لا سبيل لمعالجتها . . هذه كلها معقبات الفشل .

ولكن لا : إن فشله لم يكن من هذا النوع . إنك حين تقرأ أشعاره تكتشف أن الفشل لا يتصل بالأطماع ، ولكن بالحب . إنه يتحدث المرة تلو المرة عن الحب المفقود ، الحب المساء فهمه الذى ينتهى بالانفصال المر ؛ الحب الذى ينتهى بالموت أو اشتهاء الصوت . لذلك يتساءل : أتراه يكون قد وقع فى حب فتاة أساءت معاملته وخاصة حين نسمع أنه كان يتحدث عن النساء عادة بكراهية ويكره مقابلتهن ولكن يعود المرء لقراءة دواوين شعره الثلاثة فيجد أن الحب فيها -- أحيانا وليس دائما — يدور حول حب فتاة : إنه غالبا ما

يكون حب صديق لم يفهمه ولم يصغ إليه وهجره أو ابتعد عنه إما متطوعا في الجيش ، أو مات فجة ، وإما اختفى في جهة نائية : وإليكم قصيدة من هذا القبيل :

لأنني أحببتك أكثر

مما يليق برجل أن يقول

آلمك ذلك ووعدت

أن أنحى الفكر جانبا

ولكي نضع العالم بيننا

افترقنا في برود وجفاء

قلت لي : « مع السلامة انسني »

وأجبت أنا : « سوف أنسى . لاتخف »

ولكنه لم ينس وما كان يستطيع .

وقد عثرنا مرتين أو ثلاث مرات — وخاصة في الأشعار التي نشرت بعد موت هوسمان — على أشعار يقول فيها إنه لا يمكن احترام قوانين الله وقوانين البشر ، وإنه لامعنى لها عند الشاعر . وله

قصيدة غريبة عن شاب شنق لجرد « لون شعره » بالرغم من أنه حاول إخفاءه بالصبغة .

وحين ندقق فى دراسة سيرة هوسمان نجد أن له صديقاخاصا هجره فيما بعد ولم يكن يستطيع التحدث عنه إلا بإحساس قوى . هو العالم الشاب موزيس جاكسون . تشاركا فى غرفة واحدة حين كانا فى أكسفورد . ويبدو أنه تعلم منه الكسل وكيف يخسر المرء مرتبة الشرف الأولى فى الامتحان . وحتى بعد ذلك عاش فى لندن مع جاكسون وأخيه الصغير . وقد انتابته الأزمة التى تتحدث عنها أشعاره وهو ما بين الرابعة والعشرين والخامسة والعشرين . وقد انتقل جاكسون — فى واقع الحياة — إلى بيت آخر فى سن السابعة والعشرين ليعيش بمفرده ، و بعد مضى سنة حصل جاكسون على عمل فى الهند ورحل إليها .

ما أطول الفراسخ التى باعدت بيننا إلى أطراف العالم !

و يبدو أننا لن نلتقى أبدا .

وكان لقاؤهما نادرا ، قتلت حمى التيفود جاكسون الصغير بعد سنوات قليلة ، ولكن هوسمان لم ينسهما أبدا . فقد أهدى أعظم مؤلفاته — طبعة مانيليوس — بشعر لاتينى رشيق — إلى م.ج

جاكسون الذى يحتقر هذه البحوث . وعثر أخوه — بعد موته — ضمن أوراقه على آخر خطاب وصله من جاكسون وهو فى الستين من عمره وقد حبرت فيه كل كلمة مكتوبة بالرصاص لإطالة عمرها . .

وهكذا يمكن القول بأنه فى تلك السنوات المبكرة يكمن السر الذى أراد هوسمان أن يخفيه ويظهره فى نفس الوقت . وكل ما بقى له — بعد أن انتقل جاكسون إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية ومات أخوه الصغير — قلب بارد مملوء مرارة تزداد على مر السنين ، وذكرى صداقة تختلط بالألم وبإحساس بخطيئة غير مستحقة ، ومشاعر حارة لم يكن يباح إظهارها إلا من وقت لآخر . وبارتباك وكبت وندم وعطف أحيانا على شاب صغير مرح صريح الوجه مفتح القلب وكثير من القسوة على النساء ورغبة فى الإباحية تظهر من وقت لآخر فى رسائله الخاصة . (أرسلت إحداها إلى المجلة الكلاسيكية البريطانية الكبرى بها ما يقزز ، حتى إن الناشرين رفضوها برغم أنها مكتوبة باللغة اللاتينية ، واغتاظ هوسمان ونشرها فى مجلة ألمانية) إنها جشع شخصى متعمد واعتراف واضح بتفضيل الأبيقورية على فلسفة زينون والقورينائية — ذلك المذهب الكابى القائل بأنه لاشىء يهم فى الحياة إلا لذة الساعة . على المذهبين السابقين — وطبعا لا أثر للشعور الدينى المسيحى ، ووراء ذلك كله ما أسماه هو نفسه :

المرض القاتل لعقل

أشد تعاسة من أن يكون عطوفا

ذلك مبعث الوجه القاسي المرير الصامت الذي يطل من صورته لو لم يكن قد كتب بهذه الكفاية ، وفكر بهذا العمق ، وغنى بهذه الرقة ، لأنزلت صورته من موضعها . ومع ذلك فكلما نظرت لهذه العيون القاسية بدا لى أننى أرى شجاعة ، وألما ، ورقة قلب قسته ظروف مؤلمة وجنون صاحبه . ومع أن هوسمان أنكر أنه يدين بفلسفة زينون فإن فى أحد أشعاره التى نظمها فى أسوأ أوقاته شجاعة زينونية وأعنى القصيدة التى تتحدث عن الربيع الذى فسد والأمطار التى أتلفت الأزهار الصغيرة والتى تنتهى بقوله :

إن متاعب ترابنا الفخور الغاضب

متاعب خالدة لن تتوقف أبدا

فى استطاعتنا أن نتحملها ، ومادام احتمالها مستطاعا فقد غدا لزاما

فهيا احمل السماء على كاهلك يا بنى ثم اشرب خمرتك .

لقد قال هوسمان ـ ذات مرة ـ إن الغرض من الشعر هو ترتيب آلامنا . والحق أنه بغير شعره عسير علينا فهم آلامه وآلامنا ، بل

وعسير علينا بغير هذا الشعر أن نحتمل آلام هذه الحياة أو أن نصفح عنها .

A. E. Housman, Collected Poems (Holt, c. 1940)
A.E. Housman 'Praefanda, Hermes 66 (1931), 402 f.
A.S.F. Gow, A. E. Housman : A Sketch together with a List of His Writings and Indexes to His Classical Papers (Cambridge University Press, 1936).
L.Housman,My Brother A-E. Housman (Scribner,1938).
Grant Richar,ds Housman 1897—19 6 (Oxford, 1942).
P. Withers, A Buried Life (Cape,London, 1940)

فن الهجاء

أصدر ناشر كتب نيويوركى — فى خريف سنة ١٩٥٣ — كتابا عن الزعيم الدينى الأسود الأب ديفاين ، من تأليف سيدتين بذلتا جهدا ووقتا فى دراسة شخصية الأب ديفاين الغريبة وقوة تأثيره . وفى استطاعتنا أن نقول إنه كتاب نقد قاس : وأمثال هذه الكتب تؤدى إلى خطابات احتجاج من أصحاب الشأن ، وأحيانا إلى رفع قضايا : ولكن هذا الكتاب قوبل بلعنة : فقد لعن الأب ديفاين علنا الكتاب وكل من يقرؤه أو يؤمن به : ويبدو أن لعنته هذه انصبت فى أحد الاجتماعات الدينية التى يعقدها وأحدثت هياجا وصيحات بين أتباعه ثم نشرت فى جريدته « اليوم الجديد » ووضع لها عنوان كبير فى الصفحة الأولى ، كما ملأت أعمدة صفحتين بداخل الجريدة كتب أغلبها بأحرف كبيرة كأنها دوى الرعد . كانت لعنة مثيرة حقا عند قراءتها : كم من مؤلف لعن ناشرين عرضاً وبدون اكترات ، ولكن لم يسبق أن حدث ذلك بمثل هذا العنف والإتقان منذ عهد بعيد قبل لعنة الأب ديفاين لهذا الناشر ولكتابه .

ولقد أخذت أخيراً فى قراءة هذه اللعنة على اثنين من أصدقائى فلم يعيراها فى بادىء الأمر اهتماماً ، ولـكن عندما بدأت تزداد حدة وقسوة شعورهما ، وظهر عليهما الجد ، وهزا رأسيهما ، و بدت عليهما علائم الاحتجاج؛ لا لأنهما يعطفان على الناشر ، ولا لأنهما من أنصار الأب ديفاين . لا . ولـكنهما ضعفا أمام قوة الهجاء . وورد على خاطرى ساعتها مناسبة شبيهة فى رواية مشهورة . كتاب لا أحبه بصفة خاصة ، ولـكننى لا أستطيع نسيانه « ترسترام شاندى » . وأظنـكم تذكرون الواقعة . . الولد يحاول حل رباط كيسه . فيجد العقدة محـكمة . فيحاول قطعها فيجرح إصبعه ويبدأ يلعن الخادم الذى أوثق الرباط . ولـكن والده يجد أن اللعن غير كاف ، وأن الحادث يتطلب أسلوباً أقوى ، فيتناول صورة من تعبير الحرمان الـكنسى و يأخذ فى تلاوتها بصوت عال . إنها لغة قوية تهز المشاعر ، ويستمع إليها عم ترسترام الضابط القديم المتقاعد فى رعب متزايد . وبينما اللعنة تستمر تضيف تفصيلا إلى تفصيل بقوة لا هوادة فيها يصيح العم : « لقد كانت جيوشنا فى الفلاندر تلعن ولـكن ليس بمثل هذا العنف » .

إن اللعن فن قوى . فن مهمل جداً . أو هو جزء مهمل من ذلك الفن المسكين المساء فهمه والمساء استعماله : « علم البيان » قليلون هم

الذين يستطيعون فى هذه الأيام إلقاء خطاب متقن لأننا لم نعد نعرف مبادىء الخطابة . وأقل منهم من يستطيعون الهجو حتى ضد أشخاص مكروهين يستحقون أسوأ ما يمكن أن يقال فيهم . إن عندنا — طبعاً الكثير من ألفاظ السباب ولكن ليس منها ما يثبت و ينفذ إلى الأعماق و يجرح فعلا . تذكروا أدولف هتلر ، لقد نشر له كثير من الصور والكاريكاتير يبين جوانب الهزء والسوء فيه ، ولكن ما من أحد استطاع أن يقول فيه قولا يجرحه بنسبة واحد على عشرة مما كان يستحق ، وأحسن ما استطاع تشرشل أن ينعته به أنه « مصاص دماء » وهو قول ضعيف .

إننا نستطيع أن نعتبر الهجاء فناً قائماً بذاته ، بصرف النظر عن صفات أو عيوب المهجو التعيس . فحين نقرأ قصيدة غزل جميلة لا نجد فى أنفسنا الرغبة فى التحقق من جمال المحبوبة أو عدمه ، ولا نحتاج أن نعرف أهى كريمة تستأهل حب الشاعر أم لا كذلك حين نقرأ هجاء قوياً لا نحتاج للعطف على المتكلم أو الدفاع عن المتألم أو معارضته ، و إنما نحكم على مهارة التعبير عن الفكرة القوية .

وللهجاء فيما يبدو هدفان لا هدف واحد : الأول واضح هو تسويىء سمعة الخصم و إقصاؤه عن الأوساط المحترمة و إلصاق وصمة به لا يستطيع

منها فكاكا . ولو أن أحداً استطاع أن يقول شيئاً دامغاً فى هتلر لا يقوى أصدقاؤه — وحتى أتباعه — على نسيانه أو إنكاره فلعل وجه التاريخ كان قد تغير وتغير إلى أحسن . فالكلمات أسلحة قاتلة . وهدف الهجاء الثانى أقل وضوحاً هو السيطرة على الخصم حتى يجعله عاجزاً عن الكلام مضيع السند لا يستطيع رد الضربات ولا الدفاع عن نفسه، فيقف عاجزاً محتاراً كالثور حين يلعب به « الميتادور » بقطعة القماش الحمراء ،فيقف مبهوتاً لا يدرى إلى أى جهة يتحرك .

ونستطيع أن نبين فعل الهجاء ببعض الأمثلة : أقبل أحدهم على الكاتب الأيرلندى الفكه كاران وسأله : هل سمعت خطابى الأخير ؟ فأجابه كاران : « أرجو أن أكون قد سمعته » . وختم مارك توين مقالا له عن سيسل رودس سياسى جنوب أفريقيا بقوله : « إننى شديد الإعجاب به . وأعترف بذلك بكل صراحة . وحين تأتى ساعته سأشترى قطعة من الحبل لكيلا أنساه » . واستطاع مارك توين مرة أن يسب مدينة بأسرها هى شيكاجو ؛ فقد تصور إبليساً ينظر إلى قادم جديد لجهنم ويقول له : « إنكم يا أهل شيكاجو تتصورون أنكم أفضل سكان هذا المكان ،مع أن كل ما فى الأمر أنكم مجرد أغلبية » وأوسكار وايلد الذى نبغ فى الهجاء فى مواضع كثيرة لم يقل من

تعبيرات الهجاء التى أريد بها أن تجرح ـ فيما عدا مبارزته مع ويسلر ـ إلا القليل . ولكننا لا نستطيع أن نغفل وصفه لصيد الثعلب بأنه : « مطاردة الذين لا يستأهلون التحدث عنهم لما لا يؤكل » . وملاحظته عن جو لندن : « إنك لاتدرى أهو الضباب الذى خلق الناس ؟ أم أن الناس هم الذين خلقوا الضباب » . ولدزرائيلى ملاحظة لا مثيل لها عن معارضة العجوز لورد بالمرستون ؛ فقد وجه إليه الحديث فى البرلمان قائلا : « إنك مدين للأحرار بالكثير من عرفان الجميل ، لذلك أعتقد أنك سوف تغدر بهم » . ومثل هذا القول يفحم ولا يقابل إلا بالصمت .

وفى الشعر أمثلة من هذا النوع . وها كم ما قاله روى كامبل عن بعض الروائيين المتحذلقين :

إنك تمتدح التحفظ الدقيق الذى يكتبون به
وأنا طبعاً معك فى ذلك
إنهم يحسنون استعمال الشكيمة واللجام
ولكن أين هو يا ترى الحصان الملعون ؟

وشعراء أيرلندا يتقنون هذا الفن لأن لهم ماضياً عريقاً فى اللعن من

أيام جدودهم المداحين السلتيين . وقد هجا الكاتب الروائى ج . م . سنج سيدة من النقاد بقوله :

يا إلهى ، اخز هذه الأخت المشاكسة
لطخ جبينها بآفات البثرات والفقاقيع
شل حنجرتها ورئتيها وكبدها
واملأ أحشاءها بالجرب
ثم دعها تعش لتكسب قوت يومها
فى جبل اللذة مع المرضى الخاطئين
يا إلهى ، أسرع بهذا الحكم
وأنا

خادمك

ج م . سنج

وهذا نوع آخر أكثر خشونة ولكنه أوسع خيالا لجيمس ستيفنز :

إن اليد الهزيلة للحرمة فى تلك الحانة هناك
كادت تقتلنى حين طلبت كأس جعة على الحساب
أرجو أن يقبض إبليس على ذلك الوجه القذر من شعرها
ويطرد منها سوء الخلق ؛ بأن يضربها سنة كاملة
إن وجه القرد المسلوخ ذا الفك القاسى الذى يبدو لك
فى طريق الفضيلة . والصوت الذى يرد الموتى إلى الحياة مرعوبين
اتجه إلى مزمجراً مهدراً بمجرد أن وقع نظرى عليه
وقذف بى فى الطريق على أم رأسى
ولو طلبت إلى سيدها لأعطانى كل يوم برميلا
ولكنها ــ والجعة فى يدها ــ تبخل على بربع كأس
ليتها تتزوج شبحاً ، وتنجب له قطيطة ، وأن يسمح
ملك المجد العالى بأن يبتليها بالجرب .

إن اللعن يشبه الملاكمة . فقلما تكسب الملاكمة بضربة مباشرة من القبضة اليسرى ، لظهورها وسهولة تجنبها . وأفضل الضربات

– كأفضل اللعنات – تتأتى بضربات قصيرة مفاجئة قاتلة غير متوقعة ، أوبضربات متلاحقة تمهد بالضربة الأولى . فإذا اقترب وجه خصمك من قبضتك الثانية عاجلته بها وهكذا : واحداثنين . والنتيجة مضمونة لأى من النوعين ، ولكن لا يقوى عليهما إلا فنان متمكن مصمم حقا على القضاء على خصمه .

والأمثلة التى ضربناها من نوع الضربات القصيرة المحطمة ، ولكن غالبية الهجو المعروف يستمر وقتا طويلا ويقضى على الخصم ، إنه لا يفارن بالضربة الواحدة أو الضربات المزدوجة ، إنه كمطر الضربات المتساقطة التى يستطيع ملاكم ماهرأن يسددها إلى خصمه حين تبلغ الملاكمة أشدها لدرجة أن الخصم يعجز عن رفع يده فضلا عن أن يرد اللكمات ، وإذا لم يدق الحكم الجرس قضى عليه .

وإليكم أمثلة قويه لهذه الضربات المتلاحقة ، أولها وصف دزرائيلى الشهير لجلادستون :

« خطيب سفسطائى ، يسكره انسياب ألفاظه ، له موهبة خيال شخصى خصب تفيض عليه فى جميع الأوقات بمجموعة لا تنقطع من الحجج المتناقضة للافتراء على خصومه وتمجيد نفسه » .

ثم الصورة التى صورها الهجاء درايدن لخصمه الحقير الشاعر البدين الخشن شادويل تحت اسم مستعار من التوراة « أوج » :

والآن سدوا أنوفكم أيها القراء أفرادا وجماعات
فها هو ذا برميل من مخلفات نصف الليل يتقدم نحوكم
خرج « أوج » من حانة الغدر يتدحرج نحو منزله
مستديراً كالكرة ، مملوءاً بالخمر فى كل فتحة من فتحات جسمه
إنه يعوم بقوة وعظمة خلف وثاقه
ومع كل ذلك الحجم فإن «أوج » لم يفقد شيئا
لأن كل بوصة فيه ليست مجنونة ، فهى خبيثة
كما لو أن جميع الأبالسة قد قاءت لإنتاج تلك العجينة
وحين تمده الخمر بالشجاعة ليكفر
يلعن الخالق . ولكن الخالق سبق بلعنته .
وإذا كان يحق لإنسان شيئا فهو قد استحق
أن جعل كرشه غنية وشخصه فقيرا
وإذا كانت السماء قد خلقته فقيرا فإنه — وأعوذ بالله من من سوء التعبير —

لم يكن أبدا شاعرا من صنع الله

يوم مولده مدت القابلة يدها على رأسه الغليظ

وباركته بهذه النبوءة : « كن غبيا »

ونذكر — بهذه المناسبة — أن شادويل خلف درايدن فى عام ١٦٨٨ فى وظيفة شاعر الملك .

وإليكم جملة واحدة قذف بها فى وجه كروموبل جمهورى معارض يدعى ساكسبى(فشل فى التسبب فى اغتيال كرومويل باعتباره دكتاتورا) إنه ينعت كرومويل « بالسمو » كما لو كان كرومويل قيصرا فيقول :

« ألم يكن نسموه القدرة على جعل دموعه تسيل ، وشتائمه تتدفق ؟ أليست عيناه من الاسفنج وضميره مرنا ؟ وهو مع ذلك يعامل شعبا كبير الإيمان قليل الذكاء . ومع ذلك فشجاعته وما تبقى من فضائله الأخلاقية ، بمعاونة انكشارييه ، لم تستطع قط أن تبعده عن متناول العدالة ، ولا حاجة بنا إلى يد أخرى للخلاص منه إلا يد الجلاد »

ننتقل الآن إلى أستاذ الإنجليزية شكسبير . لعنة واحدة طالت حتى بلغت الأربعين بيتا فى رواية « تيمون الأثينى » إنها تحيط ببغض

الإنسان والحقد على الإنسانية وتنتهى بوصف جبار للحياة الإنسانية تنعتها بالفساد و بأنها تستحق أن تفنى عن طريق انتشار الوباء :

« أيها الطاعون . ابتل بالحمى الخبيثة القاتلة أثينا التى نضجت للفناء . واجعل عرق النسا البارد يشل نوابنا ويخشب مفاصلهم و يجعلهم يعرجون كما تعرج أخلاقهم . واجعل الشهوات والحرية تزحف إلى عقول شبابنا لعلهم يسبحون ضد تيار الفضائل فيلاقوا حتفهم فى العراك .ولتصب البثرات والحكات جميع أجسام الأثينيين ومحصولاتهم ويعمهم البرص ، ولكى تعدى الأنفاس الأنفاس لتنقلب اجتماعاتهم كصداقاتهم لاشىء إلا سمازعافا » .

وتلاحظون شيئين على هذه الأمثلة الجميلة من الهجو . إنها كلها منسجمة ومدروسة بعناية . الجملة تتبع الجملة وتستند عليها وترتفع لتنصب على رأس الضحية . والسيطرة على الأعصاب أساس من أسس الهجو كتبه أو نطق به أناس كانوا فى حالة أعصاب متوترة . إنها أقرب إلى نصيحة ووردزورث عن كيفية نظم الشعر . إذا أردت أن تهجو وعثرت على الشخص الذي يستحق فابدأ بإهاجة نفسك ، وفى ثورة غضبك اغل هذه الآراء والأوصاف القاتلة واخلطها بسيل الألفاظ المهينة ثم عد إلى هدوئك ووجهها فى بساطة إلى خصمك ، إما جملة

واحدة ، وإما ضربة مزدوجة ، وإما سيلا من البلاغة تحيله إلى رماد .

ولكننا نلاحظ صفة أخرى فى جميع قطع الهجاء البليغة . فإنها — مع ما تحويه من إهانة — يفترض أغلبها أن المهاجم والضحية ذكيان مهذبان مثقفان (وربما كان هذا هو السبب فى أن هتلر لم يلق نصيبه الحق من الهجو) . إنهم يدخلون فى حسابهم أن الطرفين والسامعين يفهمون التعبيرات المعقدة والتوريات الصعبة . فقد استطاع ويسلر أن يشبه رسكن بالحمار الذى جاء ذكره فى التوراة والذى تحدث فجأة إلى النبى بلعام لأنه رأى ملاكا فى الطريق . قال :

« إن انتقاد رسكن يصيب تيتيان بنفس الصدمة التى أدهشت بلعام عندما أظهر الناقد الكبير الأول رأيه » .

ولكن كم منا من يستطيع الآن أن يفهم التورية ؟

أغلب الفن وليد الشدة . والظاهر أن فن الهجاء بلغ أشده حين اجتمع له عاملان متضاربان : الحقد الوحشى والسيطرة على اللغة . الهياج البدائى . والتقدير الهادىء للتكتيك الهجومى . الآراء الفجة والمخجلة مع غنى التعبيرات المهذبة الرقيقة . ومن الهجو ما لا يمكن نشره ، وهو مع ذلك — لجمال أسلوبه — مقبول . هاجم سوينبرن رالف

والدو إمرسون المسكين الذى كان قد اتهم سوينبرن بأنه ينظم أشعاراً خليعة . ولم يكن سوينبرن يعرف إمرسون لدرجة أنه لم يكن يعرف أنه حليق الذقن ، ولكن رده المتقن الذى أجهده وصف إمرسون والصحفيين الذين اقتبسوا عنه بأنهم مجموعة قردة قذرة . وهو بهذا الإيجاز يفقد قيمته . ولكن انظروا قوته حين يوضع فى مثل هذه التعبيرات الماردة .

« إن الفم الخبيث يناسب اللحية البيضاء لدرجة أننى لا أعتقد بسهولة أن كتاب الصحف وحدهم هم المسئولون عن الألفاظ الحيوانية التى يزعمون أنها صدرت عن أستاذ يعرضها أمثال هؤلاء الأتباع على مسرحهم القذر ليقززونا بها وكأنها آخر ما وصلت إليه حيل لسان فى فم قرد فقد أسنانه وشاب شعر رأسه، حمل أول الأمر على أكتاف كارليل ، وهو الآن فى شيخوخته يخرف ويثرثر من فوق غصن من اكتشافه وخبثه كأنه قائد مساطيل من قبيلته البلغارية ينتجون القاذورات التى يتغذون بها » .

ربما صعب علينا الآن تذوق هذا الانفجار اللغوى ، ولكننى أستطيع أن أتجه بتفكيرى إلى معاصرين لنا يستحقون ما أصاب

أمرسون وأكثر قضوا حياتهم فى هدوء نسبي . ترى هل سيصبح الهجاء فنا آخر من الفنون الكثيرة التي فقدناها ؟

Roy Campbell, 'On Some South African Novelists Adamastor (Faber and Faber, London 1930), 104.

M . J. Herzberg Insults, a Practical Anthology (Greystone Press, 1941).

H. Kingsmill An Anthology of Invective and Abuse (Eyre and Spottiswoode, London 1929).

H. Read and B. Dobree, The London Book of Englis Prose (Eyre and Spottiswoode. London 1931).

N. Slonimsky, A Lexicon of Musicai Invective (Coleman- Ross 1953).

James Stephens, Collected Poems (Macmillan, London, 1926).

J. M. Synge Collected Poems (Random House,1935)

L. Untermeyer A Treasury of Laughter (Simon & Schuster, I946).

S. Vines, Whips and Scorpions (Wishart,London,1932).

سأرنو ببصري إلى الجبال

نمر في حياتنا بتجارب هائلة أحياناً . كأن تتزوج أو ترزق طفلا أو ترى بزوغ الشمس أو تمر بعاطفة مرعدة . وثمة تجارب أخرى عظيمة إنسانية بكل معنى الكلمة ولكنها غير مألوفة ، صعبة وخطرة غالباً وتبعد بنا عن الحياة العادية لمعظم الناس . يجمع الشعراء بعض هذه التجارب ولكنهم لا يخلدون منها إلا القليل . ويقع نظر الفنانين على الكثير منها و يخلدون بعضها . وقلماً يدخل الفلاسفة مثل هذه التجارب في نظرياتهم . إنهم يتركونها لغيرهم يستمتعون بها وقد يكتبون عنها

وتسلق الجبال إحدى هذه التجارب .

يقول الشاعر سوفوكليس : « ما أكثر عجائب الدنيا . ولكن أعجبها هو الإنسان الذي يتصور وينفذ أمثال هذه المشروعات » وأكثرها شاعرية — ولا شك — تسلق جبال يكاد يكون تسلقها في حكم المستحيل .

إن الجبل بما يحيط به من غابات ، وبأكتافه العارية الصلبة ، وكسائه الثلجى ، وقشرته التى تضيئها السماء ، ملحمة فى ذاته . والتسلق الطويل بوقته ، وتنوعه ، وعظمته ، وجرأته ، ملحمة كاملة لا تنقصها إلا بلاغة الحديث . وليس فى مقدورنا أن نكون جميعاً أبطال ملاحم ولكننا نستطيع أن نعجب بالقوة والصعوبة اللتين يتطلبهما نوع الحياة التى يمكن أن تسمى ملحمة . وهذه هى القيمة الحقيقية للكتب التى تتحدث عن الجبال ؛ فهى تصف تجارب نادرة وعظيمة تضىء الروتين المعتاد فى حياتنا بنفس الطريقة التى تحدثها مأساة قوية أو سيمفونية بطولية .

تسلق الجبال فكرة حديثة بدأت فى سويسرا منذ قرن واحد ، وانتشرت فى جميع الأقطار الجبلية المتمدنة تقريبا . وقد شرح جيمس رامزى أولمان فى روايته « غزو الأعالى » تاريخ هذه الرياضة التى بدأت بتسلق الجبل الأبيض للمرة الأولى حتى عام ١٩٤١ ، وهى مع ذلك لاتعرض لجميع ما تم فى تلك الفترة القصيرة ، ففى السنوات القليلة الأخيرة ظهرت كتب قيمة عن التسلق وفيلم سينمائى أو فيلمان ممتازان . وهو فى الحق موضوع جميل جدير بأن يحاول شاعر

شاب التعبير عنه ، ولكن الرجل العادى وقدماه ثابتتان على الأرض المنبسطة قد يتساءل فيم كل هذا الجهد الضائع .

لماذا نتحمل مضايقات لا نهاية لها وجهودا مضنية ونتعرض عمدا للأخطار لنتسلق جبلا ونصل إلى . . . لا شىء ؟ قمة صخرية أو مكسوة بالثلوج لجبل لا يعلوه شىء ؟

والرد الأول على هذا السؤال بسيط ، إنه رد فاوست ، فنحن نعيش فى العهد الذى سمى باسم فاوست . نحس أنه محكوم علينا مثله أن نستمر فى جهادنا إلى النهاية . لنفرض أنك تملك سيارة تصل سرعتها إلى مائة ميل فى الساعة . ولنفرض أنك تسير فى طريق سالك وليس لديك ما يحتم عليك الوصول إلى المحطة التالية فى موعد محدد . هل تحافظ على سرعة ٤٥ أو ٦٠ ميلا فى الساعة ؟ أو أنك تسير بسيارتك بأقصى وأسرع ماتستطيعه و إن أدى ذلك إلى الوصول إلى أى مكان ولغير غرض خاص ؟ ما أظنك إلا فاعلا ! . هذا نفسه هو الدافع الذى يدفع الناس لتسلق الجبال ، وهو الدافع الذى يجعل الشبان يحاولون قطع مسافة مائة ياردة جريا فى تسع ثوان . وهو الدافع الذى يحرك الراغبين فى الوصول إلى القمر والكواكب برغم كل الأخطار ولغير غرض خاص . إنها الغريزة التى تدفع بنى الإنسان لمحاولة تحقيق الأحسن والأقوى والأكثر

ونحن حين نرى مجموعة من الخيل تجرى على سجيتها ، فإذا سبق واحد منها الأخرى بخطوات واضحة ودقات مفرحة اندفع قلبك معه وبدأت تصيح فيه ليسرع ويسبق . وحين تتقدم إلى المسرح فتاتان أو ثلاث تقوم كل منهن بدورها منفردة ، ثم تأتى الراقصة الأولى فتسيطر على النغم وتستولى على دقات الموسيقى وتقفز وتدور وتحلق برشاقة تفوق الأخريات ، وبخفة تزيد على ما يبدو ممكناً ، فإن مما يزيد فى إعجابك أنها أجادت وتفوقت على المعتاد . وحين تراقب متزحلقاً منفرداً ، أو تستمع إلى عازف الكمان كهايفتز مثلا يعزف قطعة صعبة صعوبة جهنمية تفوق طاقة البشر (مثل كونشرتو بارتوك) تبتهج بجرأته ابتهاجك بمهارته . فالإنسان وحده — الإنسان البطل — هو الذى يحاول المستحيل .

هذا هو السبب الأول : رغبة التفوق والجهد لتحقيق بطولة بغير شهود ، وعادة بغير مصفقين .

ويلى ذلك سبب أساسى بسيط نفهمه كلنا . إن متسلقى الجبال يحبون الطبيعة . إنهم يحتملون سكنى المدن والبلاد باعتبارها أماكن

يكسبون فيها أرزاقهم ولكنهم يحبون حباً يزيد على حب أمثالنا أشياء أخرى فى العالم : العشب اللين ، والصخر الصلد ، والماء الجارى ، والمطر ، والشمس ، والسحاب ، والسماء . إن العيش مع الطبيعة — وبين أحضانها — ليس مجرد تسلية لنا ، بل هو ضرورة لفترة من الوقت فى كل عام . ومتسلقو الجبال يعلمون ذلك .

فكروا فى الطرق المختلفة التى يختبرون بها الدنيا . إنهم يحسون الطقس فى تقلباته وقوته التى قلما نحسها نحن . إنهم يعملون تحت هطل الأمطار ويرتجفون وسط الرياح الباردة ويخرون على ركبهم — حين تسقط الثلوج — كالحيوانات التى تستكن شتاء . وحين يصحو الجو يتشربون الهواء الطلق ويستقبلون النور الساطع بكل مسامة متفتحة من مسامهم . إننا نعبس حين يهبط البارومتر ونشكو من مضايقات العواطف ولكن هذه كلها — ما لم نكن نقطن الريف النائى الحقيقى — أشياء غريبة عنا .

والمتسلق — بصرف النظر عن الجو — يرى من الطبيعة ما لا يراه إلا قليلون إن أمامى صورتين التقطهما واحد من أبرع

وأحذق متسلقى الجبال فى هـذا الزمن ، هو المرحوم « فرانك سميث » . إنهما منشورتان فى كتابه « وادى الزهور » — . إحداهما منظر الصباح فى الربيع ، والأخرى غروب الشمس . إحداهما لواد منبسط فوق ارتفاعات جبال الهمالايا تـكسوه أزهار جميلة ، ويخترقه سهل أخضر بارد مغطى بورود البلسم ، و يتجه إلى واد مهيب (تعلوه الأشجار) وسط جدران ثلاثة من الصخر والثلج . والثانية صورة مساحتها (٤ × ٦) ترفعنا إلى سماء غروب الشمس — حيث الذهب والزرقة والحمرة والفضة — عالم صنع لأرواح سماوية تطل عليك من خلاله الثلوج الحمراء والذهبية فوق جبل يمتـــــــد أربعة أميال صوب السماء .

ولـكن الله قد خلق المخلوقات ليـكونوا رفاقاً لنا . والمتسلق يذكر دائماً أنهم شركاء لنا فى هذه الدنيا . كنت أنا وزوجتى نشق طريقنا بصعوبة حول جانب منحدر من جبل فى النمسا . لا نكاد نجد فيه أثراً لخطوات سبقتنا ، وإنما انحدارات مزعزعة . وكان الانحدار الذى نسير عليه يتدرج عموديا ، ويصل إلى سمعنا من مسافة بعيدة أسفلنا صوت هدير سيل لا نراه ولـكنه صاخب وعميق . وكنا

نستطيع أن نرى قمم الأشجار من فوقها لأننا كنا أعلى منها . وغمرتنا الوحدة . وفجأة وسط هذه الوحدة والبعد عن العالم سمعنا صوتاً حاداً وقعقعة أحجار وحط حيوان كبير فى هيئة غزال بقفزة واحدة على جانب الجبل فوق رأسينا . ونظر إلينا نظرة نفور ورعب ، و بقفزتين ثانيتين سريعتين اختفى تحتنا فى الفرجة بين الجبلين . كان مطمئناً تماماً . لقد كان وعلا ، وكان جانب الجبل — الذى بدا لنا هوة سحيقة — طريقاً ممهداً لأقدامه الدقيقة . وأذكر أيضاً أننى وابنى وصلنا إلى حافة مرتفعة فى جبال بيج هورن فى و يامنج وجلسنا نستمتع بالمنظر الممتد خمسين ميلا أمامنا . أميال لا تعد ولا تحصى من الهواء النقى . ورأينا فجأة — على ارتفاع هائل فوقنا — نقطة ، تحولت إلى بقعة ، ثم انفردت قوسين واقتربت ، فإذا بها نسر . ومن غير أن يحرك أجنحته اندفع فى تيار غير منظور لمسافة ميلين . لقد رآنا فانحدر إلينا ببطء لينظر إلينا عن كثب . ثم استمر فى طيرانه — فى هدوء ونبل — ميلا بجوار الجبل ، ثم ميلا آخر أو ميلين حتى غاب عن مرمى نظرنا ، وإن كنا لا نزال فى مرمى بصره . لقد أدركنا حينذاك من هم أصحاب هذه الدنيا التى دخلناها وحاولنا أن نشاركهم

فيها . كذلك كان فرانك سميث يأنس بحضرة صغار الحيوانات والطيور و يسر بمشاركتها له . وإنه ليذكر مساء ذات يوم بعد تسلق منهك طويل ، و بعد أن نصب خيمته ، وأرخى الظلام سدوله أنه في وسط سكون الغسق المطبق .

« أخذ عصفور صغير على شجرة فوق خيمتى يغنى فجأة أغنية غريبة قصيرة كئيبة وحزينة جداً وجميلة جمالا فائقاً . كانت أغنية بطيئة . . . تو يت تو يت . . . مرة أو مرتين ، ثم سكون . ثم زغردة سريعة ، ثم أنغام بطيئة حزينة . وغنى هذا العصفور نشيده المسائى نصف ساعة كاملة حتى عم الظلام الوادى وامتلأت السماء بالنجوم . ياالحياة الطبيعة وأصواتها ! ما أبهاها . إن روعة الجبال و بهاءها الجمالى فى ذاتها بصرف النظر عن رضانا وعواطفنا الحيوية نحوها لتقف فى صف واحد مع أعظم ما فى هذه العروض من مفاتن . إن البحر فى سعته وانطلاقه ، والسماء وقد طبقتها السحب المتعانقة ، ورقعة الأرض المنزرعة الشاسعة منظورة من نافذة طائرة تحلق فى الفضاء ، هذه المناظر الثلاثة هى وحدها التى يمكن أن تعدل فى عظم منظرها روعة الجبال ، ولا شىء يفوق هذه الروعة إلا منظر

السماء وقد لمعت فيها النجوم وانتثرت . إن الثلج الناصع آية فى الجمال دائماً أبدا ، وفى المرتفعات العليا حيث يتميز الضوء بالزرقة الفياضة يخيل للإنسان كأنما يعيش فى السموات العلى . إن الغابات والأنهار والصخور كلها تختلف طبيعة من منطقة إلى منطقة ،وحتى الجبال نفسها يختلف الواحد منها عن الآخر فى شكله وطبيعته اختلافاً جوهرياً أشبه ما يكون باختلاف الآلهة القديمة ؛ فهذا الجبل يمثل جوبيتر ، وذاك يمثل فينوس ، إلى أنواع متعددة ، ولكل منها طابعها الجمالى الخاص ، وبعضها يمثل عروق الرجولة ، وبعضها يمثل الأنوثة . وأشهر الجبال الموصوفة بالرجولة « الماترهورن » النشيط المتغطرس ، كما أن أعظم الجبال الموصوفة بالأنوثة الجبل الأبيض « مونت بلانك » وهى ملكة غنية فيها بسطة فى الجسم ترتدى أجمل الملابس . وبين الجبال الأمريكية أميرات جميلات . وأجمل جبل عرفته هو تاووس فى المكسيك الجديدة . وهو جبل هادىء جميل المظهر يحمل بركة زرقاء كأنها قطعة حلى على الصدر . ومن الجبال المستكنة آلهة نائمة ، وأخرى تهتز متأثرة بفورة النيران التى قذفتها فى البداية وهى لما تزل رخوة أو ترتعد تحت تأثير سطوة الثلوج التى نحتتها وحولتها إلى رواب وقمم . وبعضها ثائر قاتل . . كشف موتاه طويل طويل .

يضيفون إليه باستمرار كجبل «إڤرست» وبعضها — برغم وعورته — عطوف إذا خفف المتسلق من غلوائه يبقى على حياته ، وبعضها يرحب بالزائر ويقود خطواته إلى وديانه ويقـدم له أمـكنة منبسطاته المرتفعة ليستريح وتبدو كما لو كانت تنحنى — حين يقترب الزائر من قمتها — لتمكنه من إدارة نظره كى يضحك كالطفل الذى يركب على كتف أبيه .

حقا إن بعض المتسلقين يبدو أنهم لا يأبهون لجمال الجبال الشاهقة. إن أحاديثهم مقصورة على مشكلات التسلق . وهـذا مصدر جديد لسحر الجبال . إن تسلق جبل عصى إنما هو مجهود عقلى . وفى كتاب « أنابورنا » تستطيع أن تجد فى جميع صفحاته الطريقة التى رتبت بها البعثة الفرنسية التى تسلقت تلك القمة العصية : كيف أعدت الخرط . واستكشفت وناقشت بدقة تذكرنا ببعض لاعبى الشطرنج وهم يدرسون حركة صعبة، أومجموعة من الضباط أركان الحرب يعدون مشكلة تكتيك حربية . فإذا جربت هـذا النوع من التسلق مرة فسيستحيل عليك — عمليا — أن تقترب من جبل من غير أن يتجه تفكيرك إلى طريقة الوصول إلى قمته . وأكثر طرق التسلق تعقيـداً تحـوى مجموعتين

مختلفتين من المشاكل : المشكلة الأولى مشكلة تسلق مجموعة صخور منعمدة وغدارة ، والثانية اختراق الثلوج والسير عليها . . . إنها مجرد ماء متجمد بدرجات مختلفة ، ولكن الماء قادر على قتلك بألف طريقة وطريقة بسقوط جربة من الثلج على رأسك مثلا ، أو بدفنك تحت شلال من الثلوج طوله ميل . . . .

ويحوى كتاب أولمان شرحا وافياً لهذه الشلالات ، وهو يقول فى وصف مغامرات البعثة البافارية لجبل « كاشنجونجا » . إنه على الحافة الشرقية من الجانب الشمالى .

لم تكن توجد صخور ولا منحدرات صريحة عارية من الثلج كالتى تشاهد فوق قمة الجبال . ولكن الحافة امتدت نحو السماء لآلاف الأقدام فى شكل عمود حلزونى لانهاية له من الثلج المتكسر الملتف أبراجامتراكمة فوق أبراج وصخرة فوق صخرة وأعمدة استدقت أطرافها كأنها أبراج الكنائس وستائر تلمع ، تزخرفها قطع من الثلج تتدلى من فتحات من شرفات عالية وانبعاجات ضخمة وفجوات يحولها الهواء والبرد إلى أشكال غريبة : عمارات وجبال عملاقة من

الثلج تتكسر فى المرتفعات الشاهقة فتكتسح المساقط والحلزونات وتحولها إلى سيول مدمرة مرعدة طولها ميلان .

قل من وجد نفسه فوق ثلوج بمثل هذا الوصف . وأغلبنا لم يتسلق صخورا صعبة . ولكن متى عرفنا شيئاً عن الأخطار والمشكلات وجمال المرتفعات نبدأ نحس بسحر الرياضة . وحتى حين تتقدم بنا السن بحيث لا يسمح لنا بمحاولة أى تسلق له قيمة فإننا نستطيع أن نوسع ونعمق تجاربنا بقراءة كتب جميلة . فقد عادت إلى أخيراً ذكريات جميلة من قراءتي أحد الكتب الكلاسيكية عن التسلق وهو كتاب « ويمبر » « مغامرات التسلق وسط جبال الالب » . وأنا معتزم تمضية أسبوع مع ر انك سميث وهو من أقدر متسلقى الجبال ، وأحسنهم أسلوباً ، وأعرق من تطوح من جبل .

إن الشجاعة وتقوية الشخصية هما التيار الكهربى الذى يتولد من تسلق الجبال فى الكتب والرحلات والمثل الشاملة . لطالما قيل لنا إننا فى زمن قلق وهستيريا وفقدان الانسجام والتشاؤم العميق . كل هذا سخف ، إن أعمال الشجاعة التى وقعت فى الثلاثين السنة الأخيرة تفوق بكثير ماحدث منها فى قرن هادىء . إننا فى عهد شجاعة ومجازفات

نزاعات وأطماع . مغامرات وانتصار . إن الذى يمثل شخصية هذا العهد ليس المتآمر فى الخفاء ولا ضعيف الأعصاب المتخاذل ، ولكن متسلق الجبال الطامح والمخترع الجرىء . لعلكم تذكرون الفتى البدين الذى ظل محبوساً خمس سنوات فى غرفته لأن أمه أرادت أن تجنبه أخطار الجيش . ماذا لو أنه كتب كتابا على طريقة « كافكا » فى أسلوب بروست ؟ هل يمثل كتابه مشاعرنا وعهدنا ؟ إننا نشعر أن آمالنا وجهودنا يمثلها الرجال الهادئون المتزنون المتينو الأعصاب المحبون للدخان المجانين أحياناً ، ولكنهم الشجعان البواسل الذى أقدموا على عمل لايتوقعون منه كسباً شخصياً وعرضوا أرواحهم ليثبتوا أعظم ما فى الإنسانية من قيم بتسلقهم قمة العالم وتغلبهم على جبل إفرست .

سقط المتاع

إذا كان قد سبق لك أن قضيت ساعة فى دكان عاديات تسرح النظر بين معروضاتها (لا بحثا عن شىء بذاته ولكن لمجرد النظر) فلابد أن تكون قد لاحظت أن ذوقك أخذ ينحرف ، وإذا أطلت المكث فسد ذوقك وبدأت ترى جمالا لاوجود له فى صورة قبيحة لفتيات بدينات يحضن حمامة ، وأخذت تشعر برغبة مرضية لاقتناء عجلات النسيج أو مقاعد الباعة السريحة و يسهل عليك دفع ثمن مغالى فيه لتمثال من البرونز لاوتو فون بسمارك بيد معدنية داخل طية رداء معدنى أسفل عينيه المعدنيتين جيوب معدنية . ثم تتبين — بمجرد نقلك هذه الأشياء لبيتك — كم هى قبيحة . ومع ذلك فإن لها نوعا من السلطان المفزع . إنك لا تحبها وتدرك مدى قبحها ولكن إلقاءها فى سلة المهملات — حيث يجب أن تكون — يصعب عليك جداً و يتطلب مجهوداً شاقاً .

أما السير فى شارع طويل وعلى جانبيه دكاكين عاديات فهو تجربة تهز الروح هزاً عنيفاً . هنا نافذة مكتظة بآلهة صينية بدينة منتفخة ،

وهناك أخرى غاصة بجراب الزولو ، ومجاديف قوارب هندية ، ومسدسات قبضاتها رؤوس خيل لاتنطلق . وواجهات الدكان الثانية ممتلئة بزهريات إيطالية من الزجاج المنقوش ، والتي تليها أسوأ . إنها مشحونة بالفخار النمساوى يمثل سيدات صغيرات ورجالا يتوسدون مراتب ويرتدون ملابس من الدانتلا — كل كشكشة وكل تجعيدة وكل ثنية فيها من الصينى الرقيق الوردى المتيبس ، وهو لحسن الحظ سريع الكسر . لقد أنتج القرن التاسع عشر عدداً لايحصى من هذا النوع « الخردة » من هذا القبيل ، ومع ذلك فأنا أتصور أحياناً أنه لابد أن تكون هناك مصانع سرية — تحت الأرض — مستمرة فى إنتاجها كما تنتج المخدرات .

ولهذا الإنتاج اسم تجارى . كلمة من أصل روسى « كتش » . ومعناها مظهر سوقى وتستعمل للتعبير عن أى شىء يتعب صانعه وينتهى إلى شىء قبيح .

إنه نتاج متناقض ... كتش . واضح القبح سيىء لدرجة أنك لاتتصور كيف أن إنساناً يضيع أياماً ، بل وأسابيع ، فى صنعه . وكيف أن آخر يقبل على شرائه ويحمله إلى داره ويحتفظ به ويعتنى به بل

ويورثه لمن بعده . إنه خال من المهارة شديد القبح معدوم الفائدة .
ومع ذلك ففيه صفة من صفات الفن الجيد ؛ وهى أنك متى وقع عليه نظرك مرة لا يسهل عليك نسيانه . وإنك لتجد هـذا فى جميع أنواع الفن . اذكروا كاتدرائية ميلان ، أو تماثيل كنيسة وستمنستر ، أو دهليز لست لأغنيات شوبرت . ومن هذا القبيل — بالولايات المتحدة الكثير : هندسة مبانى ميامى وفلوريدا ومقبرة « فورست لون » فى لوس أنجليس . وأغلب أفلام هوليوود التاريخية ماهى إلا مجموعة « كتش » « كراكيب » وأغلب أغانى الحب فى ممرتين بان « كراكيب » مائة فى المائة .

وفى عالم الكتب أيضاً « كراكيب » وأنا مغرم بجمعها . إنها مريعة ولكننى أستمتع بها !

إن أفضل ما فى مجموعتى كتب الروائية الأرلندية السيدة « آماندا ماك كتريك روس » التى ظهر خير كتبها « دلينا ديلانى » عام ١٩٠٠ ، وهى رواية عاطفية مؤثرة تحكى لك كيف أن لورد « جيفورد » وارث قصر كولومبا أحب دلينا ، وهى ابنة صياد من « ايرين كوتيتج » وتزوجها بعد أن مر فى عدة محاكمات ودخل السجن من أجلها . . .

والرواية مفجعة — ولا نقول مستحيلة — إلا أنك تكاد تنسى وقائعها وسط الأسلوب الغزير المفرط فى التعقيد . وهاكم جملة تشرح فيها مسز روس كيف تسعي بطلتها لكسب مال إضافى من أعمال الإبرة :

لقد حاولت جاهدة لتبقى فى غير حاجة لمعونة من إيراد والدها المسكين المحدود باستعمال أفضل ما أنتجه الصلب ، تلك التى يطل طرفها الخشن إلى الغطاء الطويل بشره واضح ، ويقدم طرفها الحاد نقوشاً دقيقة خالية من كل عيب .

تعابير تجعلك تثور ولكنها مميزة : ما أسماه بولى « ركاكة الأسلوب » . ومن تعبيراتها الركيكة وداع لورد جيفورد لمحبوبته .

يا عزيزتى البكر . يا ملكتى . يا ديلانتى . إننى لا أكاد أجد الوقت لأسمع رنين جرس يدق ضرباته الثقيلة على أضعف خيوط قلب محب فيوقظه ويهز حركته النائمة ويغرز حربة الفراق الواضح إلى أغزر عمق فى قنواته اللينة ويهيج اللهب الذى لاينطفىء فيحوله نيرانا موقدة .

إن للسيدة روس سيطرة واضحة على الألفاظ البليغة ، وفى مقدورها

أن تكتب جملا لا تنسى؛ فقد شبهت عيني بطلها السوداوين «بلمعات المسدس المنطلقة». وحين مرض قالت إنه وقع في حالة حمى «شاهقة» لا شك، لأن عامة الناس يصابون بحرارة عالية، ولكن حرارة اللوردات يجب أن تكون شاهقة. ولا مثيل لانطباعاتها عن التدهور الخلقي الاجتماعي في قوتها وعمقها.

إيه أيام الإنسانية! أين المفر؟ حين كانت انحناءات السيطرة، وابتسامات المخادعين، وهز أيدي المتكبرين، والترحيب بأعوان السلطات، تعيش بين ظهرانيك المعترض عليها غير الطموح ولا أحد يجرؤ أن يكبح جماحها بلسان الصراحة، لأن العالم المحب لذاته يرفض الخلاص من سياساته المتعفنة. إن تراث آبائك الذي كان يضم الإنصاف والإحسان والعقل والطيبة بعيد عن متناول نتاجهم الطائش السريع النمو الخداع ولا يمكن أن تنسجم ميزاته مع الظلم واللؤم والقسوة مادامت هذه الرذائل المهينة من الطمع الكاذب تفسد قلب الإنسان.

ربما كان استمتاعي بهذا الحشو هو أنه يشبه ترجمة طالب لختام إحدى خطب شيشرون: الصوت والحماسة لا معنى لهما. ومما يؤسفني

أننى لم أعثر على أى شعر للسيدة روس ، فمن شعرها ديوان عنوانه « أشعار الثقب » . وآخر بعنوان « رماح خافقة اللمعان » ولكنها – مع الأسف – جواهر يصعب العثور عليها . إلا أننى أعرف – على الأقل – مطلع القصيدة التى قالتها حين زارت كاتدرائية سان بول لأول مرة .

أيها المقدس موسى ألق نظرة

العقل والقوة فى كل ناحية

إن نبوغاً كهذا لا يمكن هدمه . وقريباً . قريباً جداً سوف نرى باحثاً جاداً يكتب رسالة دكتوراه عن السيدة آماندا ماك كتريك روس ، وبذلك – حسب أسلوبها – توضع على جبهتها المبللة بالندى أكاليل الخلود الثابتة .

ويلى السيدة روس فى مجموعتى من الكراكيب أعمال الشاعر الاسكتلندى « وليام ماك جوناجال » . هذا العبقرى من مواليد ١٨٣٠ ولكنه لم يكتشف رسالته إلا عام ١٨٧٧ . إن الشعراء الضعاف الخاملين منتشرون فى كل لغة ، ولكن – كما يقول ملحق التايمز

الأدبى — : ماك جوناجال هو الشاعر الردىء المعروف فى لغتنا فهو فى تمكنه من السخافات وإهداره للأوزان الوارث الحقيقى لوليام ووردزورث كشاعر وصاف.

وتفوق منتجات نبوغه، أو على الأقل إلهاماته فى بعض النواحى، كتابات ووردزورث، فقد بلغ القمة فى وصف حوادث لم يقع عليها بصره من نوع تصادم قطارات وغرق سفن ومعارك دامية وتصوير مناظر عظيمة لم يرها إلا بعين الخيال. وإليكم وصفه الذى لا ينسى لمناظر القطب الشمالى :

إن جبال جرينلاند المغطاة بالثلوج ساحرة وعظيمة
خلقت رائعة بأمر الله
وقليل من يستطيعون إدراك حكمة أعمال الله
ومن يدرى لعلها تكون من نسج الخيال
ففيها كنائس من الثلج و بيوت تلمع كالزجاج
ولا يتفوق عليها شىء من حيث المناظر
وتوجد بجوار ذلك آثار وأبراج و كذلك أطلال
تصلح للاحتماء من الدببة السمراء الهائجة

إن جبال الثلج أعلى من صارى الشراع الكبير
يقف الغريب أمامها مشدوها
ويرى الماء يتساقط من ذوب الثلوج
على جوانب الجبال حتى ليصيح : « آه ما أجملها » .

وكان ماك جوناجال يحس بالمآسى إحساساً عميقاً . كان يميل إلى رواية مغامرات قاتلة قد تكون أقسى ولكنها لا تقل تأثيراً عما حدثنا عنه ووردزورث فى « فودرا كور وجوليا » . ومما لا شك فيه أنه من العسير نسيان الخاتمة السعيدة لإحدى أغانيه « الغوطية » :

وهكذا تنتهى حكاية هانشن البطلة الشجاعة
التى حاولت جاهدة إنقاذ مال سيدها
والتى — شجاعة منها — تزوجت كبير أبناء الطحان
وصاحت هانشن — فى ليلة زفافها — لتكن مشيئة الرحمن

وهذه المقتطفات القليلة لا تفى ماك جوناجال حقه كناظم . فإن اختياره لتأثير الأصوات يكشف عن كفاية خارقة . فإن كثيراً من الشعراء كانوا يحتارون فى إيجاد قافية توافق أسماء أشخاص كالجنرال

جراهام وعثمان دجنة ، ولكن ماك جوناجال يجدها بسهولة فى بيتين اثنين :

إيه يا أبناء بريطانيا العظمى ، لا أحسب أن مما يعيب
أن نكتب مدحاً للجنرال الشجاع جراهام
الذى سينتقل اسمه إلى الأجيال القادمة بغير إحنة
لأنه فى معركة الطاب هزم عثمان دجنة

ومن التجارب القوية التى مرت على ماك جوناجال زيارته لنيويورك . لم تنجح مالياً فهو يقول فى إحدى رسائله التى تروى تاريخ حياته : « حاولت الحصول على عمل من أصحاب المسارح وقاعات الموسيقى بلا نجاح مع الأسف لأنهم جميعاً قالوا لى إنهم لا يشجعون المنافسة » ولكنه تأثر جداً بهندسة مبانى مانهاتن وأخذ يشرح — فى أبيات بليغة — ما أحس به كثيرون ولكنهم عجزوا عن إيجاد الألفاظ التى تعبر عن تأثرهم . قال — لا فض فوه :

إيه مدينة نيو يورك العظيمة ! ما أجملك حين ننظر إليك
مبانيك شاهقة . كما يقتضينا الصدق أن نقول

إنها الشيء الوحيد الذى استوقف نظرى
لأن عدداً كبيراً منها يرتفع إلى ثلاثة عشر طابقاً
وجميع سقوف البيوت مسطحة
وفى الجو الحار يتجمع الناس للسمر
وينشرون غسيلهم على السقوف لتجف
وكثيرون ينامون على سقوف منازلهم

ومع ذلك فقد شعر ماك جوناجال بأنه غريب فى الولايات المتحدة. وهنا تبدو لنا شدة الشبه بينه وبين ووردزورث ، فإن شاعر الملك فى قصيدة قوية نظمها فى كاليه أخذ يلوم بوغاز المانش لتسببه فى تأخير عودته بسبب عاصفة من تلك العواصف المتلاحقة التى تحدث فيه :

أنت أيتها الأمواج لماذا تقذفين
إلى شاطىء الغال
بابن وطنى من أبناء الإنجليز

ويترنم ماك جوناجال — بأسلوب من هذا النوع — وبسرور مفرط فرحة بعودته إلى أرض الوطن :

أما نيويورك وما رأيت فيها من مناظر

فإن شارعاً واحداً من « داندى » أحب إلى

وصدقونى يوم تركت نيويورك قاصداً « داندى » الجميلة

أحسست بقلبي خفيفاً كخفة الفلين .

وما من شك أن نيويورك موضوع جدير باهتمام الشعراء الطامحين. فمن نفس رف الكتب أتناول قصيدة رقيقة لإزرا باوند :

مدينتى حبيبتى

يالك من فتاة بغير ثدى

نحيفة كبوصة من فضة

استمعى إلى ولا تفارقينى

لأنفخ فيك روحاً

تعيشين بها إلى الأبد

وأساس هذا النوع من سقط المتاع عدم الملاءمة . فإن الكاتب « الكراكيبي » دائماً مخلص . إنه يقصد جاداً أن يقول شيئاً ذا

قيمة . إنه يعتقد أن له رسالة روحية عالية يقدمها لعالم فى سبات ، أو أن لديه تجربة قوية لا بد أن يشاركه الجمهور فيها . ولكن إما أن تنقلب رسالته إلى سخافة ضخمة وإما أنه يسيء اختيار الطريق لإيصالها ، وإما وهو أبدع ما فى الأمر ، أن يكون هناك عدم انسجام وتناسب بين الكاتب وموضوعه . كما نرى إزرا باوند ـ الأيداهو المولد ـ يوجه الحديث إلى أكبر مدينة فى العالم بوصفها فتاة لا ثدى لها ويدعوها لتحقيق مستقبلها وخلودها عن طريق الاستماع إليه . إن ذلك ليشبه تسلق جبل ايفرست انقش رأس ميكى ماوس على الجانب الشرقى منه .

ويستطيع الإنسان أن يكون مجموعة كبيرة من «الكراكيب» إذا قرأ بعين متنبهة متيقظة أشعار الحب الركيكة ، والأشعار الدينية الضعيفة ، والروايات السخيفة ، سواء أكانت تاريخية أم سيراً شخصية . وفى الأغانى المدرسية الكثير منها . كما تغص بها كتابات الأب ديفاين ، ويزيد فى إبداعها أنها غير مفهومة ، وقد أمتع أحد المتصوفين الهنود ـ سرى راما كريشنا ـ خبراء جمع الكراكيب بوصفه كتب التدين الهندية بجملة تصلح فى ذاتها موسيقى كراكيبية بأنها :

« مقلية فى زبدة العلم ، منقوعة فى عسل المحبة »

وشعر المراثى الركيك منجم لا ينفد لهذا النوع . وها كم — على سبيل المثال — افتتاحية مرثية صغيرة « الجنازة » من نظم ستيفن سبندر ، ويبدو أنه كتبها فى أيام ازدهاره :

إن الموت إحدى علامات طريقهم .

وهم يذكرون ببساطة .

والضحكات تعلو شفاههم والريح تعصف من حولهم .

كيف تفوقت هذه — عن جميع ما عداها — فى صناعة أحزمة القيادة ؟

أنظروا الانتقال من الإنسانية إلى الشيوعية . لقد أخذ سبندر ببساطة قصيدة براوننج « جنازة النحوى » واستبعد منها الروح الفكاهية والأوزان الموسيقية ووضع مكانها الريح والإنتاج السريع ومن قبيل ذلك بيت شعر جميل من رثاء أرشيبالد ماكليش لهارى كروسبى .

إنه يسير مع إرنست فى شوارع ساراجوزا .

سكرى أفواههم جافة يصيحون ماذا هنالك ؟

وإليكم عينة مختارة من العهد الرومانتيكى . حاول كولردج أن يعبر عن الحقيقة العميقة القائلة بأن الرجال والحيوانات يعيشون جنبا لجنب فى عالم قاس ، ولكنه أخطأ خطأ جوهرياً إذ وجه حديثه إلى حمار :

مسكين أنت أيها الحمار . لقد كان على سيدك أن يتعلم كيف يكون رحيما .

فالرحمة تكتسب من زمالة الهموم .

إيه أيها الجحش المخذول المزدرى .

إننى أحييك يا أخى .

ومتى أعددت نفسك لتذوق مثل هذه الأمور استطعت أن تجد لذة فى مئات البحوث التى قد تحسبها قبيحة أو مملة ، تراجم ركيكة أو رسومات تجريدية أو أوبرات كبيرة . لقد كان الدكتور جونسون بإحساسه القوى بالفكاهة مغرما بالركاكيب وكان يردد قصيدة قيلت فى حفل زواج دوق ليدز نظمها خادم متملق فى قواف مبتذلة :

حين يتم زواج دوق ليدز
من سيدة من وسط راق
فيالسعادة تلك السيدة
فى صحبة فخامته الرقيقة !
ستحصل على كل ما هو جميل
وسترتدى أفضل أنواع الساتان والحرير
وستركب عربة لتنشم النسيم
وسيكون لها بيت فى ميدان سان جيمس

وتغص الأغانى الشعبية بالكثير من هذه الدرر . ها كم ما كتب على مقبرة كهل من ڤرمونت مات فى حادث منشار آلى :

إن مما يزعج عقل الإنسان .
أن تحوله كتلة من خشب رمادا مطحونا .
لقد أزهق الله روحه
وما لنا إلا الاستسلام لقضائه

والكراكيب معروفة فى التمثيل ولكنها (فيما عدا السينما)

لا تعيش طويلا . . ومن الأمثلة عندى رواية تشيد بفضائل حركة الكشف اسمها « إنجلترا الفتاة » ظلت عدة سنوات من سنة ١٩٣٠ تعرض على نظارة من غواة الكراكيب الذين انتهى بهم الأمر إلى حفظ الأدوار كما كان يحفظها الممثلون المساكين ، ولا أزال أذكر بداية الفصل الأول . المنظر — ممر فى غابة يدخل البطل — وهو مدرس كشافة — راكبا دراجة وخلفه أعضاء فرقته على دراجات فى سكون تام . ويرفع المدرس إصبعه (ويشاركه بقية أعضاء الفرقة بأعلى أصواتهم) :

« يجب أن يكون الماء النقى أول ما نهتم به »

وتنمو الكراكيب فى فنون الزخرفة وخاصة فى النحت . ومن أقرب القطع إلى قلبى من الفن القبيح تمثال فى مبنى روكفلر بنيويورك مفروض أنه يمثل « أطلس » المارد المحكوم عليه بأن يحمل السماء على كتفيه . والفكرة مأساة عميقة صلبة تجمع بين العظمة والألم كما فى هرقل وبروميثيوس . ولكن هذا التمثال يعرض علينا أطلس فى هيئة إنسان قوى أبله أشبه ما يكون بالشبان الذين يظهرون فى المجلات

الصحية . وبدلا من أن يحمل السماء يرفع بالونا معدنيا مجوفا شفافا وهو مع ذلك يتأرجح على قدم واحدة كأنه حمال أثاث يصعد درجات سلم حاملا إحدى كور شواطىء السباحة متجها كالقرد المجنون إذا نجح فى أن يصل بالكرة إلى أعالى السلم فستسقط منه أو يضعها فوق سيارة ركاب من سيارات الشارع الخامس . إنه تمثال سخيف يملأنى سرورا كلما وقع نظرى عليه .

وقد تحسبون أن ذلك كله يرجع لفساد الذوق . ولكن الحقيقة أنه امتداد تجربة . تجربة فى طرفها الأول هومير ، وفى الطرف الآخر آماندا ماك كتريك روس ، فى أحد أطرافها هاملت وفى الطرف الآخر ماك جوناجال الذى أفضل ما يثنى به عليه ألفاظه التى لا مثيل لها :

الشعر خلق وسمو
ولاشىء عندى يفضله
يلمع النبوغ الصحيح فيه
كما تلمع النجوم فى الليل

D. B. Wyndham Lewis and C. Lee, The Stuffed Owl an Anthology of Bad Verse (Dent, London 1930)

W. McGonagall, Select Poems (ed L. Macartney, Brunside, Glasgow, undated)

Poetic Gems Selected from the works of William McGonagall, and Tragedian, With Biographical Sketch and Reminiscences by the Author, and Portrait (Macmillan, 1954)

W. Reynolds, Young England (Gollancz, London, 1930 .

Amanda McKittrick Ros, Delina Delaney (Chatto and Windus, London, 1935)

متعة جديدة

يحكى أن ملكا شرقياً عرض جائزة ضخمة لأى إنسان — أى إنسان فى العالم — يكتشف له متعة جديدة. ولكنه مات قانطاً. لقد كان ذلك ولا شك قبل عصر الآلة . فان الآلة وإن كانت قد جلبت علينا الكثير من القلق والأخطار إلا أنها ولاشك وإن لم تستطع خلق مايشبه السعادة ،أوجدت لنا الكثير من أسباب الراحة ، وفتحت أمامنا الطريق لأنواع جديدة من الاستمتاع . وكل ما يفقده أغلبنا هو الشعور بالحماسة والإعجاب المستمر للاستمتاع .

وقد ظهرت — فى هذه الأيام — إحدى هذه المتع الجديدة . ومع أن ثلاثة أو أربعة من غريبى الأطوار أجروا عنها فى القرون السابقة بعض محاولات إلا أنها لا تزال فى البداية . وقد ظهر عنها فيلم أو فيلمان قصيران . ولها هواة بجنوب أوربا وكاليفورنيا وبلاد أخرى ، وكتب عنها مقال أو مقالان فى إحدى المجلات، وحولت — فى أثناء الحرب العالمية الثانية ككل ما عداها تقريباً — إلى أداة تدمير . ومع ذلك فمنا من لم يسبق له أن سمع عنها ، وقليلون من جربوها . ومن حسن الحظ أن تعريفاً بها قد نشر أخيرا — بالصور — يشرح لنا جزءا

من سحرها ، ويبين أن ليس لها نظير . تلك هى متعة الحيـــاة تحت الماء .

وأنا لا أقصد العوم فوق الماء مهما بلغت متعته ، ولا القفز إلى الماء من أعلى ، ولا النزول فى غواصة والذى يشبه دخول السجن ــ كما قال الدكتور جونسون عن الرحلات البحرية عموماً ــ ولـكننى أقصد المتعة التى كانت إلى عهد قريب مستحيلة ؛ وهى العوم بحرية على عمق مائة أو مائتى قدم تحت سطح البحر فى أغوار لم يستطع الإنسان الوصول إليها بغير الاستعانة بالآلات إلا ببذل جهد جبار والتعرض للأخطار سعياً وراء الـكسب لا المتعة .

وما كنت لأتعرض لهذا الموضوع لو لم أكن قد جربت شيئاً شبيهاً به . . . لا الشىء نفسه ولـكنه يقترب منه لدرجة تـكفى لإقناعنا بأن الشىء الحقيقى ولا شك يسحرنا .

كنا فى برمودا وسمعنا عن رجل يملك معدات الغطس ويستطيع أن يقود الراغبين بها فى رحلة بقاع البحر . فبحثنا عنه وتهيأنا للنزول معه . وقد كان هو من هواة البحر ، سباحاً ماهرا وغواصاً

لا يشق له غبار ، حتى يبدو وكأنه يعيش فى البحر أكثر مما يعيش على الأرض كما كان موضع ثقة . خرجنا فى قاربه البخارى من الميناء إلى المحيط . ولم نكن نستطيع الغوص فى الماء العميق . وابتعدنا عن الشاطىء نحو نصف ميل ثم ألقينا بمرساتنا فى موضع قال لنا الدليل إن أسفله شعب من المرجان . والمرجان لا ينمو لأكثر من مائة وخمسين قدما من سطح الماء ، أى أننا رسونا فوق تل فى قاع البحر ، وحملقنا فى الماء ولكننا لم نستطع أن نرى مرجاناً ولا شيئاً آخر ؛ فقد كان البحر أزرق عميقاً .. قاتماً .

وأدار الدليل آلة صغيرة معدة لدفع الهواء إلينا تحت الماء وركب عليها خوذتين بخراطيم للهواء متينة ووضع إحدى الخوذتين على كتفيه والأخرى على كتفى أول راغب فى المغامرة . ولم نكن نرتدى غير الخوذة ولباس الاستحمام وأحذية العوم . ولما جاء دورى وضعت الخوذة بنوع من الضيق لأنها كانت مقلقة غير ثابتة . ولما تقدمت نحو حافة القارب وتسلقت جانبه شعرت بثقل رأسى ثم أخذت أهبط درجات السلم نحو البحر .

وظللت مستمرا فى النزول وكان السلم يتدلى إلى مسافة طويلة بعد قاع القارب متجها إلى أسفل ولم أعد أشعر بثقل الخوذة ولكننى بدأت

أسمع أصواتاً تصم الأذن كأنها ضربات مطرقة . إنها صوت الهواء المندفع من أعلى . و بدأ الماء أسفل الخوذة يحيط بذقني ولكن مادامت المضخة مستمرة في عملها تدفع الهواء إلى أسفل الخرطوم بقيت أتنفس بسهولة داخل فقاعة من الزجاج والمعدن .

وكان الدليل ينتظرني ولما تركت السلم أمسك بيدي و بدأنا نسير فوق قاع البحر وتحت أقدامنا رمال طرية ثابتة وحولنا صخور مفرغة ومنقورة بشكل غريب تنمو عليها باقات من المرجان وضوء الشمس يهبط إلينا من مدخنة أفقية فيضيئنا مؤقتاً . و بعد أن سرنا بضع خطوات وقفنا . كانت مغامرتي الأولى هذه تجربة ممتعة إذ جاءت عشرات من من الأسماك الصغيرة بحجم إصبع اليد تزورنا غريبة الأشكال أشبه بأطفال صغار يرتدون ملابس الكبار ألوانها متعددة وجميلة كعصافير المناطق الحارة . وكان الدليل يحمل غذاء لها فأخذنا ننسل اللحم ، فكانت تلتقطه برشاقة من بين أصابعنا .

و بعد أن أطعمنا هذه المخلوقات الجميلة وهذه الطيور السمكية ، أخذنا نتحرك . كان سيرنا بطيئاً وتوازننا مختلا . لم نكن نستطيع أن نمد الخطى ، وحتى مجرد الوقوف منتصبين لم يكن سهلا ، فقد كنا نتأرجح من جانب لجانب دون أن نقع . ونندفع إلى الأمام

نشق الماء الصافى كأنما نسير فى حلم . وكنا نحسد السمك الذى يستطيع أن يسير إلى الوراء وإلى الأمام وفوق وتحت من حولنا كفراشات حول جرار ثقيل . ثم بدأنا نسير حول الشعب ببطء . الهواء يطرق فى خوذتنا وشعاع الشمس يتبعنا كأنه نور كشاف . وكانت الشعب أشبه بسلسلة جبال صغيرة حية . وهنا غابة من أفرع دقيقة وردية وذهبية من المرجان تتحرك بلطف وتبدو ألوانها كما لو كانت تتغير عند كل حركة ، غابة حقا ، ولكنها غابة تعيش وتحس وتطعم كمجموعة من الحيوانات أو خلية نحل . والواقع أن المرجان يسمى « انتوزوا » ومعناها الزهور الحيوانية . وغطيت الصخور — فى موضع آخر — بنوع مختلف من المرجان أشبه بالطحلب الحى . إنها أكثر هدوءا من الأفرع المتحركة ولكن عندما اقتربنا استطعنا أن نتبين أنها مجموعة ملايين من الأفواه تفتح وتغلق وتبتلع أجزاء صغيرة من ذرات الغذاء . وحين لمستها توارت الأفواه وأصبح الصخر صلبا . ولما أبعدت يدى عادت الأفواه الصغيرة تتفتح . ولعل من أجمل التعبيرات فى الشعر اليونانى وصف اسكيلوس للبحر المضاء بأشعة الشمس « الضحكات التى لاحصر لها للأمواج » ولقد ذكرتها حين رأيت الصخرة فى قاع البحر تضحك وتصلى .

ورأيت كذلك سمكا ، سمكا كبيرا يترقب فى فجوات الصخرة .

ولما رمينا له بالطعام خرج من فجواته ثم عاد إليها كما يعود الطير إلى عشه فوق فرع الشجرة . وحين اقتربنا من منحنى فى الشعب اتجهت بنظرى فجأة لأعلى فوجدت وحشاً فوق رؤوسنا ، جسما ضخما يكاد يخفى ضوء الشمس طوله عشرون أو ثلاثون قدما ، فأمسكت بيد الدليل وأشرت إليه ، ورأيته يبتسم خلف نظارته الزجاجية ، وأشار إلى أحد أطراف الوحش حيث يبرز عضو منه ، ثم أخذ يضرب على صدره بيده ، ثم على صدرى ، ثم قلد حركة الصعود ، وفجأة تبينت أن الوحش إن هو إلا قاع قاربنا ورفاصه البارز ولكننا كنا ننظر إليه من زاوية مختلفة . والحقيقة أننى انهمكت فى الحديقة التى تحت الماء بما فيها من الطيور السمكية حتى نسيت كل ما فوق الماء . وتحمل هذه المتعة الجديدة أخطارها ، فقد شعرت لفترة ما بإحساس الخوف الذى يستولى على رجال البحر ورأيت الرمل ينحدر إلى الأعماق بعيداً عن الهضبة حيث لا مرجان ولا ضوء شمس وحيث تبدو الأشباح تتحرك فى تلك المياه المظلمة . والأمر الغريب أننى وجدتنى أحاول — فى ذلك الظلام الشبيه بالحلم — النزول إليها لولا أن أمسك الدليل بذراعى ، ودفعنى نحو القارب إلى الضوء والهواء .

كانت تجربة جميلة . وقال لى ابنى الشىء نفسه حين خرج من

الماء . ولما نزل غيرنا اتجهت أنا وهو إلى الناحية الأخرى وكتمنا أنفاسنا كالغواصين العاديين ، وحاولنا أن نصل مرة أخرى إلى تلك الأعماق الغامضة واستعنا بسلسلة الهلب لنجر أنفسنا إلى أسفل ، ولكننا لم نستطع ، بل لم نستطع رؤية الرجال الذين كنا نعلم أنهم يسيرون فى قاع البحر ، بل ولا الأنابيب المختفية فى ذلك العالم الجميل الذى زرناه لفترة قصيرة واختفى كأنه حلم .

وكانت هذه الزيارة القصيره لقاع البحر تجربة لاتنسى ، مع أننا كنا نسير على الأطراف ولم نغص إلى الأعماق . فالمتعة الحقيقية محتفظ بها للسباحين ، إذ قد أصبح ميسورا لك بدلا من الغطس كاتما نفسك مضطراً لأن تطفو سريعاً ، أو أن تغطس مربوطا بخرطوم يصل إليك من العلو (وتلبس خوذة ثقيلة أو ملابس غطس كاملة) أصبح ميسورا لك أن تحمل هواءك معك فى خزان على ظهرك لاوزن له تحت الماء ، وأن تضع رأسك فى خوذة صغيرة لا يكاد وزنها يبلغ وزن الزعانف وتعوم بحرية تحت الماء إلى أعماق تصل إلى خمسين قامة . إنه كالطيران ، أو حلم موروث من غابر الزمان تخترق فيه غابة محاطة بالطيور وحدها بين أفرع متموجة ومخلوقات مجنحة رقيقة

وقد نشرت — فى السنوات القليلة الماضية — كتب قيمة ، وأفلام سينمائية عن هذه التجربة . منها كتاب الكابتن ج. ى . كوستو « العالم الصامت » . وكتاب الدكتور هانز هاس « مانتا » ، وكذلك فيلم من تصوير المؤلف . وكتاب فيليب ديبوليه « ٤٠٠٠ سنة تحت البحر » وبه مراجع قيمة . وتصف هذه الكتب وغيرها تجارب غريبة جدا . وجميع هذه التجارب امتداد لجهدين من أقدم جهود بنى البشر : الاستكشاف والصيد . فبعض هؤلاء الغاطسين إنما ينزلون إلى البحر لمجرد أن يتمكنوا من الإمساك بسمكة آمنة يعودون بها إلى السطح وهى تقاوم والدم يسيل منها . (إننى قليل الإعجاب بهذا النوع من العمل ، فقد رأيت فى برمودا أحد هؤلاء الصيادين يحضر فريسته الدامية إلى الشاطىء تطارده براكوده سريعة وقاتلة تتبع أثر الدماء بين السباحين إلى حدود ذلك البحر الهادىء) ومنهم من يغطس بحثا وراء كنوز . إنهم يستكشفون الماضى . وكما يقول مسيو ديبوليه إن زيارة بعض البلاد التى غمرتها مياه البحر المتوسط أسهل من الوصول إلى مدن مفقودة فى أواسط أمريكا أو جنوب شرق آسيا بين أدغال خطرة . وكثيرا ما يوجد — بقرب سطح الماء — عدد من أنقاض تضم الكنوز التى غرقت بها (أو من أجلها) للقاع : نقود وتماثيل ونحت ومخطوطات مفقودة لا تزال تتحدث لمن يستطيعون فهمها .

ولكن أغرب ما فى تلك الكتب اجتماع التسلية والخوف فى لقاء رجال نحاف ضعاف مع أسماك ضخمة مرعبة . يقول الكابتن كوستو : إنه لم يجد أيا منها خطرا حقا إلا القرش .فالأخطبوط المرعب على حد قوله — مخلوق خجول فى حقيقته . وأنا أعتقد أن كل واحد منا كان يشعر بالخجل لو كان قد خلق بدون عظم ، وبدون جمجمة صلبة ، كريه المنظر مثله . لقد اعتاد كابتن كوستو وأصدقاؤه أن يعاكسوا الأخطبوطات التى يقابلونها . وفى كتابه صورة لأحد رجاله يحمل أخطبوطا فوق كتفيه كأنه مجموعة راقصين من تصميم بو . ويقول إن رجاله لم يتعرضوا مطلقاً لأى خطر . و (المورى) وهو نوع من ثعبان البحر المارد ذو مظهر مزعج مخيف يعضهم إذا اقتحموا بيته ولكنه لا يهاجمهم عامدا أبدا . . . . وحتى القرش .. فإنك إذا نظرت إليه من الجانب رأيت فيه القوة والجشع والغباء والفكرة الواحدة . يقول كوستو : إنه يهاجم أى شىء يعوم أو يطفو على الماء ولكن كلما كان هو وأصدقاؤه تحت الماء فإن أسماك القرش كانت تنظر إليهم فى دهشة ، ولكن يبدو أنها لم تصل أبدا إلى الاعتقاد بأنهم يصلحون طعاما . وهذا طبيعى ، فهى تعوم منذ العهد الطباشيرى (وهو عهد غابر جدا فى أغوار الزمن كما تعلمون) .

ويمكننا أن نقول : إنها – منذ خلقها – لم يقع نظرها على أحد أقار بها من الجنس البشرى يعوم بهدوء تحت الماء على رأسه خوذة وفى يده آلة تصوير ويتنفس فقاقيع . وفى كتاب الكابتن كوستو أربع صور مدهشة لقرش ضخم اقترب منه يستطلع أمره . وهو يقترب ثم يقترب من غير أن تتغير ملامح وجهه ويصبح شكله أشبه بطائر بدين ضخم إلى أن ضربه كابتن كوستو على أنفه بآلة التصوير فإذا بالقرش ينسحب محاولا تفهم هذه التجربة الجديدة . . . واحدة من التجارب العديدة التى مرت بأفراد أسرته فى الخمسمائة مليون السنة الأخيرة .. ومن أغلب ما يرى فى كتاب وفى فيلم الدكتور هاس الحيوانات المسماة أحياناً سمك إبليس – ألمانتا – أو الرعاد التى تبدو حين تنظر إليها من أعلى سوداء مخيفة . ومع ذلك فإنها بالرغم من أن لها فى ذيلها زبانى سامة لا تهاجم الغواصين . وجمالها – تحت الماء – بدائى وحشى كما لو أن الخالق قد رغب فى أن يخلق سمكة بسيطة ضخمة هادئة وجيهة تعوم بمجرد تحريك زواياها . وحين تمرق ألمانتا من أمام الكاميرا وتختفى تبدو كما لو كانت فى حاجة إلى ملك شرقى يجلس على ظهرها لتتم الصورة المذكورة فى كتاب ألف ليلة وليلة عن حلم بساط الريح .

هذا هو جمال الدنيا تحت الماء . إنها دنيا ساحرة . دنيا من الماضى البعيد . دنيا صيادين ومستكشفين عرايا . إن الغطاس بعد أن يتعرى ويلبس الخوذة ويحمل خزان الهواء ويمسك بأنيابه وحربته ينقلب رجلا من رجال العهود الغابرة . إن زميله هو رجل العهد الحجرى الذى كان يصطاد الفيل البالغ ارتفاعه أربع عشرة قدمافى أدغال أمريكا البدائية أو سلفنا البطل الأمير البلطيقى بيووولف الذى قفز فى بحيرة مسكونة ليحارب وحشا وعثر فيها على كنز كبير .

J. Y. Cousteau, The Silent World (Harper, 1953).

P. Diolé , 4,000 Years under the Sea (tr. G. Hopkins, Messner, 1954).

H. Hass , Manta : Under the Red Sea with Spear and Camera (Rand cMNally, 1953).

فيلسوف الذرة «أبيقور»

كلمة« أبيكيور » epicure فى الإنجليزية كما جاء فى قاموس « وبستر » معناها« شخص محب للكماليات والملذات الشهوانية » ولفظ « إبيكوروس » فى العبرية معناه « المارق أو الشخص الكريه » . والكلمتان مشتقتان من الأصل اليونانى « ابيكوروس » ، ومعناه « المساعد . السند . الحليف » ... ولكنها ألفاظ أخذت معناها الجديد من مصادفة أن الكلمة نفسها كانت فى ذات الوقت اسما لرجل صغير هادىء كان يدرس الفلسفة — فلسفة خاصة به — طالما أسيىء فهمها . كان ذلك هو أبيقور الذى عاش ودرس وكتب فى أتينا لأكثر من ثلاثين سنة (ما بين عام ٣٠٦ و ٢٧٠ قبل الميلاد) وأسس مدرسة استمرت طوال سبعة قرون ، كانت - على الأقل — مصدر إلهام لقصيدة فخمة وأغرب ما فيها أنها تنبأت بكثير من الاكتشافات الحديثة وقد ظهر أول كتاب كبير — باللغة الإنجليزية — عن أبيقور منذ وقت غير طويل وهو كتاب « أبيقور وفلسفته » من تأليف نورمان دى ويت وهو عالم كندى محنك من أنصار أبيقور المتحيزين

المتحمسين . وهو يقول : إنه أراد إنقاذ أبيقور من ظلم القرون ـ ظلم يظهر أثره فى المعنيين المنسوبين للفلسفةالتى تحمل اسمه وهما« الشهوانية» و « الردة » . وكتاب المستردىويت ملىء بالمعلومات التى جمعها من مصادر متعددة على مر سنين طويلة . وهى معلومات لا يلم بها الكثيرون حتى بين دارسى الفلسفة . فأغلبنا ـ مثلا ـ لا يعرف أن القديس بولس بدأ حملته الطويلة من أجل الكنيسة المسيحية ضد الأبيقوريين. كان يتناول قولا من أقوالهم ثم يفند ما فيه من خداع . (راجع رسالته الأولى إلى التسالونيين فصل ٥ : إنهم إذ يقولون السلام والأمن يحل بهم الدمار السريع كالمخاض للحامل وقد سدت فى وجوههم سبل النجاة) . وكتاب المستر دى ويت قيم لأنه أكمل كتاب فى لغتنا ولكن تحيزه واضح فهو يتستر على مواضع الضعف الحقيقية الخلقية والمادية فى نظريات أبيقور ويبالغ فى التقريب بين آرائه والدين المسيحى . ومع ذلك فلا يمكن قراءة الكتاب من غير أن ينظر القارىء إلى أبيقور نظرة جادة . فالكتاب يناقش فى أغلب صفحاته مبادىء ابيقور الأخلاقية التى تبدو بسيطة ومعقولة ، وإن تعذر على أغلب الناس تطبيقها عمليا .

ومع ذلك فان أمرا آخر يتصل بأبيقور يهم أغلبنا فى هذه الأيام .

ذلك أنه إما فكر و إما أشار إلى كثير من أسس البحوث الذرية . إنه لم يبتدع الكثير من تلك الآراء ولكنه أدخل – على الأقل – رأيا له قيمته ورتب الآراء الأخرى . (فقد سبقه عالم مفكر اسمه ديموقريطس إلا أن جميع كتبه قد اندثرت ولم يبق لنا إلا تطبيقات أبيقور لبحوثه وقصيدة تلميذ أبيقور ، لوكريتيوس)

وكثيرون منا لا يلقون بالا لنظريات فيلسوف يونانى عاش منذ خمسة وعشرين قرنا ، ولكن هذه النظريات تكتسب أهمية وتصبح ضرورية إذا تبين أنها صحيحة ؛ وإن نسيها العالم وأنكر صدقها لقرون عديدة ؛ وتبين أن أحدث بحوث علمائنا المتقدمين تتفق معها .

وأولى نظريات أبيقور – وهى أهم نظرياته كلها – تقول إن العالم مكون من أجزاء صغيرة تسمى ذرات تتحرك بسرعة تفوق التصور محدودة العدد تكون تجمعات مختلفة . ويتقدم أبيقور وتلاميذه بأدلة مختلفة أكثرها إدهاشا لنا هو دليل تناسته القرون الوسطى وعصر النهضة العلمية وأعاد اكتشافه عالم النباتات الاسكتلندى روبرت براون منذ أقل من مائة وخمسين عاما . ويصف لوكريتيوس تلك النظرية على النحو الآتى :

انظر ولاحظ بدقة كيف أنه حين ينفذ ضوء الشمس إلى غرفة
مظلمة فى المنزل وينشر أشعته ترى عددا كبيرا من الأجسام
الصغيرة تتشابك فى حركات مختلفة وتتحرك وسط الضوء كما
لو كانت فى خلاف مستمر تتضارب أبدا وتعارك كل واحدة
منها الأخرى دون توقف . تتصل وتنفصـل بلا انقطاع .
وتستطيـع أن تستنتج من ذلك أن الذرات غير المنظورة
تتضـارب وتتحـرك فى جميع أنحـاء الفراغ اللانهائى .

هذه هى الظاهرة التى تستطيع أن تحققها بنفسك فى أية غرفة مظلمة نوافذها مغلقة وهواؤها ساكن وحزمة من ضوء الشمس تنفذ من خلال نافذة واحدة فستجد فى الحزمة الضوئية جزيئات التراب تتراقص ولا تتوقف . إنها لا تتحرك بقوة الحرارة وإلا لاتجهت إلى أعلى ، ولا بتيار الهواء لأنها تبقى فى مكانها تقريبا والجو هادىء . إنما يحركها شىء آخر .

وقد استكشف العالم النباتى براون اختباراً رائعاً لهذه الظاهرة ها هو قد وضع مسحوقا خفيفا فى وعاء ماء أحكم إغلاقه ووضع فوق طاولة ثابتة فى غرفة بدرجة حرارة لا تتغير ولا تصلها اهتزازات خارجية

فإذا كان المسحوق بالكثافة المطلوبة فإنه يتوزع فى جميع أجزاء الماء ويبدو ثابتا ولكنك إذا وضعته تحت الميكروسكوب فستجد أن كل جزئية فيه تتحرك ، لا بانتظام ولا تدور فى مدار ، ولكنها تعلو وتهبط وتهتز وتدور باستمرار ، تتصل وتنفصل فى حركة مستمرة لا تنقطع ، تلك هى الحركة الدائمة . لا تتوقف أبدا . إن كل الحركات الأخرى التى نعرفها لا بد لها من نهاية تقف عندها . إذا أسقطت حجراً أو حركت سائلا ، فبعد أن ينتهى تدخلك تنتهى الحركة . ولكن تحركات جزئيات براون لا تنتهى أبداً ولا تنفد . وبعكس حركة الكواكب الدائمة حول الشمس فإن هذه الحركة الخاصة — نعم الخاصة — لا تتباطا . الماء ساكن والمسحوق لا يستطيع أن يحرك نفسه . فجزئيات المسحوق تتحرك إذن بقوة أخرى لا نستطيع أن نراها . تلك هى حركة الذرات غير المنظورة التى لا تنقطع والتى رآها أبيقور وأستاذه لا بد أنها تقع وراء التغييرات التى تحصل فى عالمنا وفوق حدود اللمس والنظر والحس والإدراك .

فهذا العالم الذى يبدو لنا ثابتا وصلبا مكون من عدد لا حصر له من أجسام صغيرة فى حركة دائمة سريعة . هذا ما قاله أبيقور ، وهذا ما يقوله علماؤنا المعاصرون . إلا أنهم وصلوا إلى أبعد من ذلك فقسموا

هذه الذرات نفسها إلى قوة محركة أو كيان لاتعرف لغاتنا الفقيرة حتى الآن اسما تطلقه عليه .

عالم لانهائى فى اتساعه . وفراغ لانهائى . وعدد لا نهائى من الذرات . ولا شك أن الذرات لانهاية لعددها وأشكالها ! . . لا . فقد قال أبيقور عكس ذلك . إنه قال إن الفروق النوعية بين الأشياء المادية تزول لو كانت هناك أنواع مختلفة اختلافاً لا نهائيا من الذرات فى النوع والشكل . وهنا أيضا سبقنا إلى أحد اكتشافاتنا . ففى أنحاء العالم المعروف عدد محدود من العناصر تمتزج فى تركيبات محدودة . والنظام الكونى المنظور يتكون من عدد من العناصر لا يزيد على المائة .

وبعد أن وضع أبيقور فلسفته تعرض لانتقاد مر لفكرة غريبة تبدو متناقضة لدرجة أن تحولت نظرياته إلى هذيان . إن الذرات تتحرك أبدا فى أنواع وامتزاجات ثابتة . فهذه الكرة والكواكب والسماء والنجوم كلها تتكون من ذرات أشبه بدوامات من مسقط ماء عملاق ، ولو أن الأمر كان كذلك فإن جميع تاريخ العالم والحياة الإنسانية والحيوانية تكون آلة هائلة تتحرك بحركة محتومة لا نهاية لها . ومع

ذلك فنحن نعلم أن الأمر كذلك . إننا نعلم أن بعض حركاتنا ملزمة ومحتومة ، كما نعلم أن بعضها الآخر حر وتلقائى . إذا تعرضت العين لضوء ساطع فإن إنسانها ينكمش حتما . أما إذا سمعنا صوتا خلفنا فإننا نستطيع أن نقرر بكامل حريتنا هل نلتفت أو لا نلتفت . إن إرادة الإنسان حرة بطريقة تختلف عن التركيب الجسمانى الذى يضمها . لقد أراد أبيقور أن يفسر كل تصرف عن طريقة مجموعة تحركات الذرة . لكن كيف يستطيع أن يفسر حرية الإرادة ، إليكم تفسيره كما أورده تلميذه لوكريتيوس (٢ / ٢٨٤ — ٩٣) . فهو يشرح الفرق الذى لا يحتمل الخطأ بين العمل الاختيارى وغير الاختيارى ثم يقول :

وعليه فيجب أن نسلم أن بين الذرات — فيما عدا الوزن والتصادم — أسباباً أخرى تحركها . ذلك هو مصدر قوة إرادتنا الفطرية . لأننا نرى أن لاشىء ينتج من لاشىء . والقصور الذاتى معناه أن الحركة لا تتولد دائما من التصادم ، أى من قوة خارجية وليس للعقل الإنسانى ضرورة فطرية تدفعه لكل حركة وتجعله أسيرا : موضوع لا تابع . ويحدث ذلك عن طريق انحراف صغير فى الذرات المتحركة يبدأ من موضع غير محدد وفى وقت غير معروف .

ويقول أبيقور : إن الذرات لا تتحرك فى تيار منتظم دائما . . .

فهى تنحرف فى بعض الأحيان وعلى غير انتظار ، وهذا الانحراف هو المسئول عن تدخل الحظ فى الأحداث وفى وجود ونشاط قوة الإرادة عندنا .

وكان هذا الانحراف فى الذرات موضع سخرية لقرون عديدة . وقال منتقدو أبيقور : إنها تهدم نظريته نفسها التى أساسها وجود مسببات ثابتة لكل حركة بإدخاله حادثا هاما ليس له مسبب . إن الذرات تتحرك وفقا لقواعد معقدة ولكنها منطقية . فلماذا تنحرف فجأة عن هذه القواعد ؟ هكذا قال القدماء . وهكذا قال المحدثون . ولكن يبدو أن علماء الطبيعة — فى حدود الجيل الماضى — بدءوا اكتشافات تسير جنبا لجنب مع نظرية أبيقور . إن أبحاث ماكس بلانك وغيره فيما يعرف بنظرية النشاط الذرى تظهر أنه حين تنفث جزئية طاقة فهى لاتفعل ذلك فى تيار منتظم محسوب ولكن على دفعات غير منتظمة وقفزات . فإذا نظرنا إليها من وجهة نظر ذرية أخرى ، فان العالم يستطيع أن يتنبأ دائما بما ستفعله مجموعة من الجزئيات ولكنه لايستطيع التكهن بما ستفعله جزئية بذاتها . فإذا نظرنا إلى الكون من وجهة النظر الذرية وجدناه يجمع بين المادية الجبرية وشىء يشبه إلى حد كبير الإرادة الحرة . وهكذا حقق ماكس بلانك نظرية أبيقور فى انحراف الذرة .

لقد كان أبيقور ماديا بكل معنى الكلمة . لايعترف بشيء إلا الذرة والفضاء الفارغ . وما الروح — عنده ـ إلا مجموعة ذرات دقيقة فريدة . والتفكير والحس حركات ذرية سريعة جدا سرعة تفوق الخيال، وانتهى إلى القول بأن ذرات الروح الدقيقة هي ذرات من الهواء (في حالتي الراحة والحركة) ومن النار ومن مادة أخرى أكثر دقة وأسرع حركة . وتعرض هذا القول أيضاً لسخرية النقاد .ومن الطبيعي أن هذه طريقة بدائية لشرح مجموعة أعمال معقدة . ومع ذلك إذا نظرنا إليها بشيء من التساهل ، أيبدو لنا أن أبيقور يحاول أن يقول إن التفكير والحس هما عمليات كهربية ؟ فالقوة أو المادة التي تشبه الهواء والنار بل أرق منهما وأسرع حركة . . أليست هي الكهربا ؟ يقول لنا الفسيولوجيون « علماء وظائف الأعضاء » : إن العضل حين ينكمش يحرر شحنة من الحرارة . إن حركة العضل والعصب تتبعها دائما شحنة كهربية من ذرات الكهربا المتجمعة والمختزنة بداخل نسيج الأعصاب ، و يتبع نشاط المخ خفقات من النشاط الكهربي تقبل القياس . والبون شاسع بين القول بأن الحس والفكر تتبعهما ذبذبات كهربية و بين القول بأنهما حركات ذرية . وهنا يفترق أغلبنا عن مسايرة أبيقور . ولكنه كان ماديا مقتنعا في عزم وقوة لايعتقد أن شيئا ما قد وجد ، أو يمكن أن يوجد، إلا الذرات والفراغ .

لقد درسنا أبيقور بصفة خاصة بوصفه باحثا علميا ، وقد أقام هو نفسه نظريته على علم الطبيعة ولكنه اعتبر المظهر المادى أقل أهمية ، فقد كان يوجه اهتمامه إلى المبادىء الخلقية وكانت معظم دروسه تتجه لا لمعرفة العالم المادى والأجسام ، بل لاكتشاف السبيل لنحيا سعداء ، ومعنى ذلك عنده الحياة الممتعة إذ يبدو أن دستوره الأخلاقى فارغ وأنانى يهمل الكثير من أعمق غرائز الإنسان واحتياجاته . ويظل أبيقور مع ذلك مفكرا أصيلا يستنهض العقل واستطاع بمحض قوة الفكر أن ينفذ إلى أعماق أسرار العالم الطبيعى ، إلى حيث لم تنجح الإنسانية فى الوصول اليها طوال ألفى عام .

Lucretius, De Rerum Natura (ed. and tr. Bailey, Oxford, 1947)

Lucretius, On the nature of the Universe (tr. by R. Latham, Penguin, 1952)

N. DeWitt, Epicurus and His Philosophy (University of Minnesota, 1954)

K. Heim, The Transformation of the Scientific World-View (Harper, 1954)

عالم صغير منبسط

يعيش أغلبنا فى عالم منظم وفقاً لقواعد إقليدس . الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين (على الأرض على الأقل) والمستقيمان المتوازيان لايلتقيان أبدا (حتى على قضبان سكك حديد لونج أيلاند) ومن الممكن — مع ذلك — إقامة عوالم أخرى على قواعد مختلفة . ومن الأمور الممتعة أن يضع الإنسان قواعد لمثل هـذه العوالم ويقيم فيها - ولو عن طريق الخيال - فترة من الزمن .

وفيما خلا الهندسة نعرف جميعا أمثال هذه العوالم الخاصة . إنهـا تشبه الحياة ولا تشبهها . إنها عرض للحياة فى صورة مجموعات مختلفة من الإحداثيات .

وأحد هذه العوالم الخاصة مسكون بالآف من الرجال المتوقدى الذكاء : إنه عالم له بعدان من حيث المكان، ولـكنه من حيث الزمان عند ثلاثة عشر قرنا . أبعاده - فى المتوسط - ما بين قدمين وأربع أقدام مربعة ، ومقسم إلى أربعة وستين مربعا منتظما ، يتعاقب فيهـا

الأسود والأبيض ، ويتبقى اثنان وثلاثون من المربعات خالية طول الوقت ويشغل الاثنين والثلاثين مربعاً الأخرى قطع ترمز إلى أنواع من القوى . فالقوى — فى هذا العالم الخاص — تتنافس وتلجأ لسلاح المنطق والرياضيات والهندسة وقوة الإرادة والخيال والتاريخ والذاكرة وصفات أخرى لم نذكرها . إنها لعبة الشطرنج .

وتتعدد طرق الوصول إلى هذا العالم ، إذ برغم المنطق الجاف الذى يتحكم فيه (أو ربما بسبب المنطق الجاف الذى يتحكم فيه) يقول عشاق الجمال : إن الشطرنج لعبة جميلة يحوطها الجمال . وإنى لأذكر معرضاً أقيم فى نيويورك عام ١٩٤٤ لأطقم الشطرنج بإشراف متحف المتروبوليتان ، وظهرت فيه قطع أصلية وخيالية من هيئات وأزمنة مختلفة تفوق كل ما يمكن للاعب شطرنج أن يتخيله . كما عرض عدد من الكتب تحوى صورا فوتوغرافية لمجموعات تثير الحسد : قطع شطرنج من الهند والصين منحوتة بشكل متشابك خرافى أرق من أن يلعب بها فعلا (على الأقل بالطريقة التى يلعب بها أغلب الناس) . لقد عثر على قطع شطرنج منحوتة فى القرن الثانى عشر عثر عليها بالشواطىء الرملية لجزائر الهبريد الاسكتلندية من عاج فيل البحر تمثل ملوك وملكات وأساقفة وأشراف القرون الوسطى بملابسهم التى

كانوا يرتدونها (عليهم كآبة القرون الوسطى لا الاختيال المطمئن الذى نلاحظه على صور ملوك وملكات وندماء عهد الإصلاح على أوراق اللعب) وتوجد قطع شطرنج حديثة مصنوعة من المعدن والبلاستيك منتظمة هندسيا . وأظن كثيرين منكم شاهدوا رقصة الباليه الرشيقة المسماة «مات الملك » ، التى ما زلنا نشنف آذاننا بموسيقاها والتى لحنها آرثر بليس وعرضت لأول مرة سنة ١٩٣٧ . وأجمل منها لعبة شطرنج قام فيها بدور القطع أشخاص أحياء رآها إ.م. فورستر تلعب فى فناء قصر فافيل ببولندا يتحركون على نغمات الموسيقى وضوء المشاعل . إن للبولنديين أسلوباً رشيقاً يلجأون إليه أحيانا فيما لا فائدة منه .

ويحب كثيرون الشطرنج لتاريخه العريق المجيد . ويكاد يكون من المستحيل أن تلعب مباراة شطرنج من غير أن يكون لها صدى. ومن مصطلحات اللعبة ألفاظ فارسية ترجع إلى القرون الوسطى فالقطعة القوية الثانية تسمى (روك) وهى «الرخ» أو العربة التى تمثل قوة جيوش القرون الوسطى . ولعله يتحتم علينا فى هذه الأيام أن نغير اسمها إلى دبابة . وكلمة شاه نفسها بمعنى ملك . لذلك نقول فى ختام اللعبة شيك ميت (شاه مات) مات الملك . وتاريخ الألعاب ، كتاريخ الأزياء المختلفة ، نافذة جميلة تطل على نمو المدنيات . وقد استمر التغيير فى الشطرنج نفسه تبعا لنمو الجماعات. وقد كتب ف.ج.ر. موراى مؤلفا ممتازا فى تاريخ الشطرنج تحدث فيه

عن نشأة اللعبة فى القرون الوسطى ونموها فى عهد الإصلاح وذكر القليل عن القرن التاسع عشر ولاشىء عن القرن العشرين ولكنها مع ذلك دراسة تخلب اللب مليئة بالصور العاطفية وحكايات من الماضى أغرب من الخيال . فهو يقول ـ مثلا ـ إن محامى الكنيسة كانوا يرون أنه إذا اختلف كاتب (أظنهم يقصدون شخصاً حاصلا على دبلوم فى العلوم) مع خصمه فى لعبة شطرنج وقتله لا يكون الفعل جريمة قتل عمدية، بل تعتبر قتلا خطأ لأن الكاتب كان يقوم بعمل مشروع . كذلك تروى حكاية غريبة عن نابليون فقد لعب ضد آلة معجزة (آلة تمثل تركيا خبيثاً بعمامته خاوية إلا من بعض العجلات والتروس غلبت كل من لاعبها) وقد تغلبت على نابليون لأنها كانت تخفى اللاعب النمساوى « الجاير » والكتاب عامر بأمثال هذه الحكايات .

وللشطرنج نوع آخر من الجاذبية ، تاريخه يضم كثيراً من الشخصيات والأسماء الفريدة . منها الرومانتيكى ، حتى ليظن أنه من اختراع دوماس من أمثال أستاذ الشطرنج الفرنسى فيليدور والقس الإسبانى روى لوبز وكابابلانكا (ذو الرداء الأبيض) الكوبى ، ومنها أسماء لها رنين خشن قاس من أمثال بوتقينيك شتاينيتز وتاراش ومنها أسماء غريبة تكاد تكون سيريالية وأحبها إلى قلبى طبيب لامع

وعازف بيانو ولغوى اسمه شوجر تارت « كعكة السكر » ومن بينهم أيضاً بطل بريطانى سابق يبدو كقطعة فخمة غير معروفة « مير سلطان خان » وأستاذ آخر رنين اسمه أشبه بحركة بيدق « جيلج » وآخر كأنه ملك فى قصره « بوك » . وبصرف النظر عن أسمائهم فإن أبطال الشطرنج المشهورين يتميزون بمظهرهم وشخصياتهم . فاللاعب الأمريكى بول مورفى من نيو أورليانز الذى أصبح فى حكم بطل العالم فى سن الواحدة والعشرين وتغلب على جميع خصومه ثم انسحب فيما يشبه الجنون ولعله كان يشبه إلى حد كبير إدجار الآن بو وشارلس بودلير ، إنه فخور ، حزين لامع .

وقد ظهر فى أثناء الحرب العالمية الثانية بطل يونانى أفلت من تنفيذ الألمان حكم الإعدام فيه ، لمجرد أنه كان يستطيع — وهو مغمض العينين — أن يلاعب أحد حراسه الألمان . ولاعب بولندى كان يقارن فنه بملكة اسكتلندا مارى « جميلة وسيئة الحظ » . ومن لاعبى الشطرنج الممتازين مؤرخ عظيم « باكل » ولكنه كان شرسا . ذات مرة انتظر طويلا أن يحرك خصمه إحدى القطع فصرخ فيه « إن من الصعب احتمال إبطاء النبوغ . أما إبطاء الغباء فلا يحتمل » .

ومع هذا التاريخ الطويل وطرافة المشتركين فى نمو هذه اللعبة

يدهشنا ألا نجد أدبا يتصل بها . نجد مئات الكتب الفنية التى تشرح طريقة اللعب ولكن الكتب التى يمكن لغير المتخصصين قراءتها قليلة. فلا يوجد للشطرنج كتاب مثل كتاب هيمنجواى عن مصارعة الثيران « الموت بعد الظهر » وخير ما كتب مجموع فى كتاب جيروم سالزمان « قارىء الشطرنج » .

وفى مجموعة سالزمان كثير مما يستحق التنويه ، رسم شكسبير يلاعب بن جونسون من عمل فنان هولندى معاصر اسمه كاريل ڤان ماندر وقصة قصيرة ممتعة للورد دونسانى عنوانها « تضحية البحارة الثلاثة » ، وهى حكاية ثلاثة من البحارة جاءوا إلى إنجلترا أثناء مباراة وأخذوا يتحدون اللاعبين الممتازين لقاء مبلغ معين وبشرط أن يستشيروا أنفسهم قبل ذلك فكانوا يضعون فى كل حركة رؤوسهم بجوار بعض ويتسارون . ومع أنه كان يبدو أنهم لا يكادون يعرفون الحركات الصحيحة للعبة فقد كانوا يكسبون دائما . وكيف كان ذلك فإنهم ورثوا (من شريك على اتصال بالشيطان) بللورة ترشدهم دائما إلى النقلة الصحيحة . وكان بداخل البللورة لوحة صغيرة ترتسم عليها الحركات تحت إشراف إبليس . . . طبعا ، كما يحدث فى جميع ألعاب التحدى . واستمروا يلعبون (مستشيرين بعضهم بعضا) ولم يغلبوا قط

وأخيرا تحدوا ، وهم سكارى ، أمهر اللاعبين الموجودين بملك وصف جنود فقط . وكسبوا ولكن البللورة انفجرت مولدة رائحة كريهة . . أى أن الشيطان نفسه لم يكن يستطيع تغيير نظام هذا العالم الصغير الرتيب

ولعل أفضل ما كتب عن الشطرنج قصة قصيرة طويلة للمرحوم ستيفان زفايج . ولد زفايج فى فينا من أسرة يهودية وهو عبقرى ذواقة رقيق كتب قبل موته مذكرات عن تاريخ حياته بعنوان « عالم الأمس » ؛ من أفضل ما قرأت . كان الباعث على كتابتها إحساس بالضياع واليأس . وهذا الإحساس نفسه هو الذى أملى عليه قصته البديعة « اللعبة الملكية » . والقصة تروى حكاية مثقف هادىء اعتقل مدة طويلة من حكومة دكتاتورية أنقذ نفسه من الجنون بأن تعلم اللعبة وتمكن من إتقان ١٥٠ لعبة مباراة ثم تحدى وتغلب على بطل عالمى صامت ولكنه عند الحركة الأخيرة الفاصلة يسقط ميتا كما حدث بعد ذلك لزفايج نفسه أن الشطرنج لعبة حرب لا يستطيع الإنسان أن يكسبها إلا إذا توافرت لديه إرادة الانتصار .

وتوجد غير ذلك لعبة شطرنج فى كتاب «أليس من

خلال المرآة » للويس كارول ولكننى كلما حاولت أن ألمها نسيت واندمجت فى الخيال البديع والفكاهات المدهشة . كذلك توجد أشعار من عهد ألف ليلة وليلة وقصص القرون الوسطى ، ثم لاشىء بعدذلك وفى الشطرنج مآس مشوقة وحكايات مثيرة ولكن أحدا لم يكتبها الآن .

ولكن غالبية المهرة من اللاعبين ينأون بأنفسهم عن ذلك ويقتربون من عالم الشطرنج من زاوية أخرى . إنهم ينظرون إليه من ناحية الاستراتيجية المحضة . . . تصادم بين قوى العقل . نوع من المبارزة بأساحة غير منظورة ولكنها قاتلة أشبه بمحاولة موسيقية جبارة كارتجال قطعة موسيقية عن موضوع اقترحه شخص آخر . ولقد قابلت فعلا موسيقيا ممتازا يسلى أصدقاءه بعزف مطالع وقطع موسيقية من الذاكرة فى حين يلعب الشطرنج ضد منافس قوى ولعله كان يملى نقل بيادقه فى الفترة بين كل قطعة وأخرى ، وحاول كما فعل سيرانو أن يعلن موت الملك عند نهاية المقطوعة الرابعة والعشرين فى ب مينور . كذلك ينظر المهرة من اللاعبين إلى الشطرنج كالنشاط الذهنى لعالم الفلك أو الرياضى الذى يعبر بإشارته عن قوى غير منظورة ويحل مجموعات معقدة منسقة فى نظام كبير كالسديم أو صغير كالذرة . ويقولون إنه يشبه

الدبلوماسية ودراسات ما وراء الطبيعة والفن التجريدى . إنه نشاط ذهنى مدهش . إنه يقف فوق قمة الألعاب .

وعند هذه النقطة لا أستطيع الحياة فى عالم الشطرنج . إن جوه نقى ، ولكنه قليل الكثافة بالنسبة إلى ، خال من الضباب ونظيف ولكنه يرهق مفاصلى ، تفوق مراوغاته قوة تفكيرى ولكنها لاتجعلنى أكره اللعبة . وبالعكس فإن صعوبتها تشبه صعوبة رسومات « الجريكو » أو نثر بروست أو مقامات أغانى بيتهوفن الأخيرة الغريبة . وهذا الارتباط بين الشطرنج والموسيقى يدعو الدهشة . فإن بعض ألعاب كابا بلانكا الممتازة تذكرنى بتصنيفات دى فالا فى توليفاتها بين التعقيد والمراوغة والبساطة الأصلية والكرامة .

وقد شرح الكاتب الرشيق إ . م . فورستر مشاعر الخائبين من أمثالى نحو الشطرنج فهو يقول :

« إننى ألعب الإيفانز

« من اختراع ضابط بحرى . إنها لعبة مشهورة بميوعتها يخترقها تيار
« قوى ينطلق بسرعة من الجنوب الغربى ويندفع نحو أساس بيدق
« أسقف الملك الأسود . وينقسم مسطح الرقعة إلى دوامات ثم يأتى
« وقت تبرز من هذا العرض البحرى « جثة معروفة » إنها جثتى .

« يالله !. ماذا فعلت ؟ ماذا فعلت ! لقد « فعلت الشيء » المعتاد . هجوم
« سابق لأوانه تبعه تردد . آه ! لماذا لم أنقل حجر الرخ ؟ لأنني كعادتي
« أفسدت تفكيري إحساسات سطحية . . لا ليس كالمعتاد . لا بد أن
« لعبة الإيفانز لا تتفق مع أسلوبي . ومن رقتها وأنا ألعب لعبة
« الاستودج القديمة .

« وأنا أفضل ذلك ، إذ لا ميوعة في لعبة الاستودج القديمة . إنه
« يضرب الأرض ويصطف على الجانبين فرسان وأساقفة وبينهما واد
« تتناطح فيه البيادق فيما بينها ، وتتحرك القوات الأرضية ببطء حتى
« تتقابل ثم تقفز قفزات متناوبة . ضربات لا تدل على إلهام ، والمفروض
« أنها متبادلة . وحين تظهر خطوط المنظر الجديد وفي وسط التراب
« تظهر جثة معروفة . جثة من ! جثتي . يا إلهي ! ترى ماذا فعلت !
« الشيء المعتاد . لقد برزت شخصيتي . إنها معي حيث أكون . إذا
« نزلت إلى قاع البحر فهي هناك .

« وإذا بحثت وسط الجبال فهي هناك أيضا . إن الشطرنج الذي
« يستبعد الأخطار بشدة مسكن إجباري تنضج فيه ثمار الشخصية
« بدرجة أتم مما تنضج في الحياة نفسها ».

هذا هو عالم الشطرنج . وهذا هو السبب الذى من أجله يحب الناس السكنى فيه لوقت قصير على الأقل. إنه أكثر منطقا وأجلب للرضا من الحياة نفسها ، إنه أكثر نقاء وأقل تعرضا للخطر ، بل ليس أصعب منها فى مجموعه .

Gerald Abrams, The Chess Mind (Pellegrini & Cudahy, 1952).

Assiac, The Pleasures of Chess (Wit' built-in chess-board, Simon & Schuster, 1952).

I. Chernev, The Bright Side of Chess (McKay,1948).

A. Hammond, The Book of Chessmen (with interesting pictures, Morrow, 1950).

K. Matthews, British Chess (also well illustrated, Collins, London, 1948).

H. J.R Murray, A History of Chess (Oxford, 1913).

H. J. R. Murray, A History of Board Games other than Chess (Oxford 1952).

F. Reinfeld, The Human Side of Chess (Pellegrini & Cudahy, 1952).

F. Reinfeld The Complete Chessplayer (Prentice-Hall, 1953).

Jerome Salzmann, The Chess Reader (Greenberg, 1949).

باقة من اللبلاب التام

قال الواعظ : « إن تأليف الكتب الكثيرة لا ينتهى » ثم أخذ يتحدث عن الضعف — ضعف الجسد — كما لو كان قد حاول قراءة تجربة كتاب فى سيارة نقل . ولكنه كان عجوزاً قانطا . والحق أن الكثيرين منا لا تزال تراودهم فكرة ممتعة ، على أن هناك عديداً من الكتب الجميلة تنتظر من مؤلفها وأننا جميعاً نتطلع إلى الاستمتاع بقراءتها .

وأنا أحلم — من عهد بعيد — بكتاب يجب أن يكتب وكلما فكرت فيه نما وزادت تكاليفه . إنه مجموعة سخريات (تقليدات أو معارضات فكاهية) ، فأغلبنا يحب قراءة المعارضات الجيدة لأنها مسلية ، ولأن غرابتها من النوع الجيد . إنها تحريف لشىء رتيب مهيب إلى فكاهة يعوزها المنطق . وهى تنتج دائماً عن ذكاء خارق . لأن المعارضة نوع من النقد ، بل من أقوى أنواعه أحياناً . فقد يستطيع المرء أن يعتقد أن عزرا باوند متصنع سخيف وشاعر فى المرتبة الثالثة .. ولكن يحتاج المرء — لإثبات ذلك — إلى كتابة مئات الصفحات بينما

بضعة أسطر من تقليد ساخر لأسلوبه تكفى لإنفاذ وجهة النظر إلى الأعماق وتحريك السلاح داخل الجرح .

والمجموعة التى ترضى من المعارضات (التقليدات) تغطى ميدانا فسيحا من الأدب القديم والحديث . وليس ما يمنع من أن تبدأ من البداية حتى تصل إلى أيامنا . وستكون طريفة وشائقة لأنها ستعرف القراء إلى بعض كتب العصور الماضية القيمة ، والوصول إلى جبل بارناسوس على زحافة من الزبد .

إن الأدب الغربى يبدأ بهومير وهو فخم متنوع بطولى منظم تسهل السخرية به . وقد كان الممثلون اليونانيون والفلاسفة المشهترون مشغوفين بالاستهزاء بهومير . أما الآن فلا يقدر على تفهم نكاته إلا المتبحرون . ومع ذلك فتوجد معارضة حديثة لهومير — على الأقل — مقبولة هى كتاب « توم چونز » لفيلدنج . إن ما يرفه حقاً أن تقرأ مناقشة حادة بين اثنين من فلاحى سومرستشاير فى ساحة كنيسة قرية تتبادل فيها نفس الجمل الطنانة التى روت معارك الأمراء اليونانيين وأبطال طروادة .

وفى أعقاب هومير جاء كتاب المآسى اليونانيون وساروا على نهجه وبنوا على اسمه . ثم جاء الكاتب الهزلى اريستوفان يدخل أصواتاً مزعجة . ومما لا شك فيه أن مجرد تفكير شاعر يونانى من شعراء المآسى

وهو منصرف إلى تأليف مأساته التى تضمنتها أعمق نظراته فى الخطيئة والقدر فى أن مسخا لها صارخاً وناجحاً سوف يعرض بعد بضعة أشهر من تمثيل مأساته على المسرح ، وسوف يقبل عليه النظارة و يحسبون استقباله لابد أن يصيبه بشيء من تثبيط الهمة. أتحسبون أن كاتبا معاصرا يستطيع تحمل مثل هذا ؟ أم ترى أنها ربما دفعته ، وقوت عقيدته ، وألهبت ذكاء النظارة كما حدث فى اليونان ؟ وقد كتبت أجمل معارضة فى العالم — فى العصور الحديثة — عن مأساة يونانية . إنك لا تستطيع أن تتذوقها تذوقاً كاملا الا إذا عرفت الأصل . إنها تبدو مضحكة ولكنها سخيفة بدلا من أن تكون لماحة ولاذعة . إن هذه المحاولة أشبه بمحاولة مشاهدة برت لاهر وهو يقلد منظراً بطولياً من « رنج » لواجنر من غير أن يكون قد سبق لك الإصغاء لـ « رنج » نفسها . والمعارضة الآتية الفريدة ، واسمها « قطعة من مأساة يونانية » للشاعر العالم الشهير أ . إ . هوسمان ، كل فقرة منها تقريباً منقولة مباشرة من كبرى التمثيليات اليونانية والحبكة ، ومعالجة الشخصيات كلها يونانية ، ومع ذلك فالمجموع يبعث على الضحك الذى لا يقاوم .

ونكتفى بفقرة قصيرة لتبيان ذلك . فالكورس فى المآسى

اليونانية (كما فى الأوبرات الحديثة) قلما يقوم بأى عمل . إنه يعبر عن مشاعر عميقة ويترجم عن تأثر النظارة (ويقويه) ولكن لا دخل له بالشخصيات الهامة . لذلك نراه أحياناً يستمر فى الغناء دون أن يتحرك . فى حين أن جريمة شنيعة ترتب وترتكب . . ومثل هذا المنظر له تأثير قوى على من يشاهده وإن كانت قراءته مملة . وإليكم معارضة هوسمان لهذا المنظر . ابن يقطع أمه إربا داخل القصر . والكورس يعلق على ذلك . وجميع الجمل تحمل طابع التحفظ اليونانى :

ايريفيلا — آه . إنه يضربنى ببلطة — فعلا — لا مجرد قول .

الكورس — يبدولى أنى سمعت صوتاً داخل القصر لا يشبه صوت من يقفز من الفرح .

ايريفيلا — إنه يشطر رأسى بطريقة لا تدل على الحب ، وينوى للمرة الثانية أن يضربنى حتى الموت .

الكورس — لا أحب أن أتهم بالعجلة ، ولكنى أخشى أن الأمور لا تسير على ما يرام بداخل القصر .

ايريفيلا — يا . يا . ضربة أخرى . إنها الثالثة . إنه يطعننى فى قلبى بالرغم منى .

الكورس — إن كان الأمر كذلك فإن صحتك ليست على
ما يرام ، ولكن معرفتك بالحساب دقيقة .

وقد انتشرت فى القرون الوسطى معارضات التوراة والصلوات المسيحية والمواعظ ، وكذلك بالطبع معارضات قصص « حواديت » البطولة . و« رينار الثعلب » فى الحقيقة مجموعة ساخرة من مغامرات الفروسية أبطالها حيوانات تتصرف تصرف الحيوانات والرجال . وكتابات رابليه كلها معارضة طويلة للقصص تنتهى بسؤال يوجه إلى عراف الزجاجة المقدسة وهى — فيما أظن — سخرية من البحث عن الكأس المقدسة . ولكاتب القرن السابع عشر الإنجليزى صامويل بتلر معارضة للفروسية يهاجم فيها التعصب الدينى أسماها «هوديبراس» بطلها متزمت من نوع رأيناه فى عقائد دينية وسياسية أخرى :

من أولئك الذين يشيدون إيمانهم على النصوص المقدسة للحراب
والمدافع ويفصلون فى كل خلاف بوساطة المدفعية التى لا تهزم
ويؤيدون سلامة مبادئهم بكلمات الرسل وضرباتهم
ويسمون النار والسيف والحراب سلاحاً ربانيا كاملا

وفى عهد الإصلاح شغف كتاب المآسى بالمعارضات ، ففى كتابات شكسبير الكثير منها ، وقد بلغ به حب السخرية أن أخذ أحد أبطال « مارلو »

وحوله إلى مهرج ، فنرى « پستول » الجندى المتفاخر يلقى أبيات شعر فخمة خالية من المعنى تماما ، كما يفعل « تيمورلنك » :

سخرية للعالم والمبـــــادىء العالمية !

إن حديثى عن أفريقيا والأفراح الذهبية

تحت حكم أى ملك ، بيزونيان ؟ تكلم أو مت

و بعد فترة قصيرة أخذ كتاب التمثيليات الهزلية يقلدون فى سخرية المسرحيات البطولية بطريقة منهجية ، فمسرحية بكنجهام « البروفة» The Rehearsal ، ورواية فيلدنج Tom Thumb the Great ، والمأساة الكوميدية المثيرة التى ألفها كارى المسماة « كرونونهو تنثولوجوس » Chrononhotonthologos ، كلها من الأعمال الفريدة فى أيام الشعور المستعارة . والواقع أن عهد الهزليات كان مليئا بالمعارضات الجميلة . لقد ألف فيليبس قصيدة أسماها «Splendid Shilling » يعارض بها الشاعر ميلتون ، كما أن قصيدة پوب

« خصلة الشعر » إنما هى معارضة للترجمة التى قام هو بها لأعمال هومر . وكان سويفت — وهو من أكبر ناقدينا — معارضا قوياً .

وتأتى بعد ذلك محاولة واحدة من أنجح المحاولات فى هذا الميدان. ففى سنة ١٨١٢ عرض مديرو مسرح « درورى لين » جائزة لأحسن تحية شعرية تلقى فى افتتاح مسرحهم عقب الحريق الذى حدث به . عند ذلك نشر كاتبان ذكيان اسمهما « سميث » ، تحت عنوان « خطب مرفوضة » ، قصائد نسباها إلى بيرون ووردزورث وسكوت وعشرات غيرهم. باعتبارها محاولات من هؤلاء الشعراء للحصول على الجائزة . إنها قصائد ممتازة و إليكم مطلع واحدة منها :

إن الروح القلقة ، وقد سئمت البيت والزوجة وتعب الأبناء
اندفعت للخارج تطوف
سئمت الخارج ، وهى ترى كل شىء ، ولا تعجب بشىء
فاندفعت . الروح القلقة . عائدة إلى البيت

إنك لتعرف لأول وهلة سأم لورد بيرون وكرهه للبشرية . ثم قارن هذه الجملة الرشيقة بشبح الدكتور جونسون نفسه .

« إن الجبال الحبلى تمخضت عن إجهاض ، والمحاسب الذى يقارن العظمة البدائية بالسوقية يذكرنا بالباعة المتجولين المتدينين بالقسطنطينية الذين يجوبون شوارع القسطنطينية ينادون « بالصلاة على النبى يا تين » .

وأنتج القرن العشرون عدداً كبيراً من المعارضين اللامعين كانت مؤلفاتهم — فى بعض الأحيان — بحيث تغنيك عن معرفة الأصل . وقد عثرت وأنا صغير على كتاب عنوانه : « حكايات مركزة » ، من تأليف برت هارت كنت أقرؤه وأنا أكاد أنشق من الضحك ولم أكن أعرف أنها مجموعة معارضات ساخرة لروايات فيكتور هوجو وشارلوت برونتى وغيرهما ممن لم أكن قد قرأت لهم . وبعد جيل من الزمن كتب ماكس بيربوم مجموعة لم تنل الشهرة التى تستحقها، يصف عيد الميلاد بأسلوب الروائيين المعاصرين الممتازين. وهى من القوة حتى ليقال إن أرنولد بينيت ، بعد أن قرأ قصة بيربوم « المدن الخمس » ، وهى حكاية كعكة محشوة بالفخار صنعتها امرأة متسلطة ومضغها عشيقها ، بقى عدة أيام لايقوى على الكتابة . واسم هذا الكتاب « مجموعة عيد الميلاد » وهو كتاب يقرأ بشغف فى أيامنا أكثر من أعمال الروائيين الذين يسخر منهم .

ويجب ألا ننسى جلبرت وسوليڤان. فكثير مما كتبه جلبرت تقليد ساخر لروايات معاصرة كما استمر سوليڤان يسخر من المؤلفين الموسيقيين من أمثال دونيزيتي وڤردى . وهذا العنصر من عملهما لم يشرح الشرح الكافى فى كتاب أودرى وليامسون عن تزاملهما .ففى « الأميرة ايدا » Princess Ida يرتفع جلبرت فى معارضته إلى أعلى مستوى للمعارضات الساخرة فى الأدب . إنكم تذكرون أن ماكبث ، بعد أن قتل الملك،قال إن الخدم المخدرين صاحوا: « ليرحمنا الله » وإنه كان يجب عليه أن يرد بقوله « آمين » ، ولكن الكامة وقفت فى حلقه . كذلك فى « الأميرة ايدا » حين تحاول ميلنسا أن تفضح وجود رجال فى كلية البنات .

كان يجب أن تصيح :

« ما هـــــذا ! هؤلاء رجال » ولـكن « هؤلاء رجال » وقفت فى حلقها .

غير أن حالنا الآن أفضل . إن لدينا كتابا معارضين ساخرين أكثر من أى عهد مضى ، وأغلبهم فكاهيون أمريكيون . وهم فيما يبدو قد أدركوا أن الكتاب ذوى الأطماع يعمدون أحيانا إلى تشويه الحقيقة بما يدخلونه عليها من تعقيدات زائدة ومآس،فقرروا أن يعيدوا التوازن.

فإنكم تجدون بعض تصحيحات تدل على الحذق للكاتبين « كورى فورد» و « فرانك سوليڤان»ومعارضات ساخرة مجنونة للكاتب بنشلى، بنشلى العزيز ، ولا تنسوا الكاتبين الانجليزيين غريبى الأطوار ج . ك اسكواير و ا . ب . هربرت . كما أنه ليس من السهل تفضيل واحد من بين كتابنا الساخرين الناجحين « وولكوت جيبس » و « س . ج . بيرلمان » و « جيمس ثربر » و «ا . ب . هوايت » . لذلك فنحن نحتاج لمجموعة من أعمالهم . إنها جميعها مبعثرة فى أمكنة عديدة . والكتاب الوحيد الذى أعرفه ، والذى حاول جمع بعض هذه المقالات الفريدة هو مجموعة شعرية عنوانها « What Cheer » قام بجمعها « ديفيد ماككورد » . وقد أصبحت إحدى هذه المعارضات الساخرة كلاسيكية لأنها تطبع فى الكتب الدراسية وتعطى كمثل للكتابة الخلاقة . اللهم رحماك . إنها محاولة ساخرة كتبها مستر هوايت على نمط مقال « فوج » النموذجى المعنون « الغسق فى بيجامات عنيفة » اسمعوا :

إنها الساعة الساحرة قبيل الكوكتيل . إننى فى البيت الجديد المخصص لمسيو شارل دى بيستجوى . السلم جميعه من الأسمنت

منسع عند بدايته وموشى بأشرطة من الساتان تنتهى بقطعة شيكولاتة باللبن . إننا فى الغسق..

أو جربوا هذه من كتاب جيبس « موت فى المقعد الخلفى » وهى معارضة ساخرة لـكتاب همنجواى عن مصارعة الثيران :

إذا كنت تجهل قيادة السيارات فإنك تحسب أن السائق ماهر لمجرد أنه يقود بسرعة . وقد تشعر بانتعاش فى أول الأمر . ولـكن سرعان ما يتولد لديك شعور بالضيق فى الحلق و إحساس بالغدر. كانت آن بندر الأمريكية تقود سيارتها فى طريق ميريك بسرعة تشبه السرعة التى يقود بها الآخرون على نفس الطريق ولكن حين كانت تقابل سيارات آتية فى مواجهتها كانت تفسح لها الطريق دائما وتندفع إلى هوة فلا تشعر أنت أبدا بالخطر الواضح الصريح ولـكنك تعلو وتهبط فى الهوة وأحيانا تصدم رأسك بسقف العربة .

وثربر مشهور ولـكن قليلا منا من يدرك حين نقرأ معارضاته الساخرة عدد الأساليب التى يستطيع تقليدها والسخرية بها . وها هى عينة مختصرة على أسلوب « جيمس كاين » المؤثر :

مشيت إلى جوارها وكان ذلك أشبه بأن يموت الإنسان ويجد

نفسه فى الجنة .. ووصلت إليها ووجهت لها ضربة فى الذقن فسقطت كصينية الصحون . وأدركت عند ذلك أننى سوف أستمر فى توجيه الضربات لها ما بقيت حيا . أحسست كما لو كنا فى شهر إبريل ، وأننى عدت طفلا واستيقظت صباح يوم حار . الجو ضباب . والعصافير تزقزق .

ولا أخفى عليكم أن أحب هؤلاء الأربعة إلى قلبى هو س . ج . بيرلمان لأنه أكثرهم غرابة وأكثرهم اقترابا من المضار بين . إنه قادر فى جملة أو جملتين أن يقيم معارضة قاتلة . فقد تخيل ـ مثلا ـ أن هناك مجلة للارستقراطيين ـ تصدر كل ثلاثة أشهر اسمها « السفيه » وأنه كان يتابع فيها مسلسلة عنوانها « لغز الخليقة عند العقليين » أو « عودة جون ديوى ».

فى العدد الماضى كان لصوص الماشية (أتباع مبدأ هيجل) قد رموا ديوى فى مجرى منجم مهجور (برجماتية جيمس) وأوقدوا « الفتيلة » الموصلة إلى برميل الديناميت « مذهب نيوتن التجريبى الجديد ».

وفى المجلد نفسه يصف بيرلمان رقصة « باليه » جديدة اسمها « ستة يمرون بينما الأسمنت المسلح يغلى » وفيها :

« نصف دستة » من فتيات « برين ماور » البدينات لابسات « جرسى » رماديا يخطون فى هياج من طرف المسرح إلى الطرف الآخر يجذبن ستاره ، وهذا يمثل قوى الماء والرمل وأسمنت بور تلاند ، يرفضن العمل المنتظم فى بادىء الأمر ، ثم لايلبثن أن يتحدن فى سبيل الصالح العام .

والمجموعة المثالية للمعارضات الساخرة يجب أن تضم كل هذا وأكثر منه مع نتاج كتاب آخرين كثيرين يكادون يكونون مجهولين . إننى أذكر معارضة ممتازة لجون بيل نشرتها مجلة بانش منذ بضع سنين ، وإليكم فقرتين منها :

هل تعرف أن السيدة تويكنهام ـ دالريمبل — اسبروس ـ جونز

حين توقظ الأموات بضحكها المرح فى بزوغ الصباح ،
هل تعرف السيدة تويكنهام — دالريمبل — اسبروس — جونز التى لاتستطيع الابتعاد عن اجتماع كلاب الصيد فى الصباح؟

إننى أستطيع أن أراها الآن بقدميها المفرطحتين العريضتين

فى معطف من نوع انقضى زمنه

تغنى « هو — تالى — هو » فى البرد الممطر المعمى

حين تجتمع كلاب الصيد فى الصباح

وأخيرا فإن ناشرا ذكيا واسع الثراء (وجميع الناشرين يجب أن يكونوا أثرياء وأغلبهم أذكياء) يستطيع أن يتعهد إنتاج معارضات جديدة لسد الفراغ . فإننا نحتاج مثلا لمعارضة لمالك ليش ، وأخرى لتوماس مان تسمى ولاشك « مان وأو برمان » وواحدة عن سارتر يكون عنوانها « سارتر ريسارتوس » وثالثة عن أندريه جيد تسمى حتما « الطبيعة تكره جيد » أو مثلا « جيد البذىء » . وقد نستطيع أن نجد كتابا ممتازين يبدون وكأنهم يعارضون أنفسهم . فهل يباح لى أن أذكر كتاب فولكنر « ابسالوم . ابسالوم » ؟ ولكن فى هذا القدر الكفاية ، أو كما قال القاضى الأيرلندى وهو يصدر حكمه على مجرم « إذا استمرت سرقة الخنازير هذه فلن يسلم واحد منا ! »

Max Beerbohm, A Christmas Garland (Heinemann, London, 1912).

Bret Harte, Condensed Novels (Osgood, 1871)

Bret Harte, Condensed Novels, Second Series (Houghton Mifflin, 1902).

H. J. Owens, The Scandalous Adventures of Reynard the Fox, a Modern American Version (Knopf, 1945) .

David McCord, What Cheer (Coward- McCann,1945)

S. J. Perelman, The Dream Department (Random House, 1943)

E. B. White and K. S. White (editors), A Subtreasury of American Humor (Coward- McCann, 1941).

نظرات فى العلم

أظنكم توافقوننى على أن من واجب كل إنسان أن يحيط ببعض العلم ؟ أليس من المخجل أن نعيش فى هذا العالم سبعين أو ثمانين سنة من غير أن نعرف كيف تكوّن ، ولا كيف يعيش جيراننا من الحيوانات ، ولا كيف تعمل أجسامنا ذاتها . لاشك فى ذلك . لقد حصل أغلبنا — فى المدرسة أو الجامعة — على قشور من العلم . ولكن قليلين — قليلين جدا — هم الذين استطاعوا أن يتابعوا تلك الدراسات . قد يقرأ الواحد منا ، عرضا ، مقالا علميا فى صحيفة أو مجلة ، فيدهش لحظة ، ولكنه لا يتابع بصورة مستمرة تقدم العقل البشرى فى العلوم . وجهلنا — حتى فيما يتصل بالاختراعات الهامة الحديثة — كبير جداً . كم منا من يستطيع أن يشرح مايحدث عند وقوع انفجار ذرى أو يذكر ما حققه الحاصلون أخيرا على جوائز نوبل العلمية الأخيرة من بحوث ؟

لذلك أسباب ثلاثة :

الأول أن كثيرا من الميادين التى ينشط فيها العلم صعبة جدا على الفهم . أى إن الخبراء أنفسهم يجدون صعوبة فى تفهمها ، أما الرجل العادى فيكاد لا يفهم فيها شيئا على الإطلاق . فبعض الآراء الحديثة عن التكوين الذرى للمادة وخاصة عن العلاقة بين المادة والطاقة تحتاج إلى عمل ذهنى شاق ومعقد . بعضها يتم من غير أن يقع عليه البصر ، وبعضها لا يمكن التعبير عنه بالجمل والألفاظ المعروفة التى نستعملها كل يوم ، و بعضها يحدث فى مناطق تخرج عن الإطار الذى اعتدناه من حيث الزمان والمكان حتى المنطق . يقول العالم البريطانى ج . ب . س . هالدن : « ليس العالم أغرب مما نتصور فحسب ، بل هو أغرب مما يمكن أن نتصوره » .

والسبب الثانى أن جانبا كبيرا من العلم يبدو وكأن لا صلة له بحياتنا اليومية ، بل و يتعارض مع المنطق العادى فى كثير من الأحيان . إن الإنسان يحتاج لجهد جبار ليقنع نفسه أن جدران منزله الثابتة وأرضية تدور فى الفضاء فى اتجاهات ثلاثة فى الوقت نفسه (الأرض تدور حول نفسها ، وتدور حول الشمس ، والمجموعة الشمسية كلها تتجه بسرعة جنونية نحو نقطة هناك بجوار النجمة المسماة فيجا ــ النسر الواقع) و يتطلب الأمر جهداً أكبر ليهضم فكرة أن الجدران والأرض وجسم

الإنسان نفسه مكون من عدد لا يحصى من مجموعات ذرية صغيرة مشغولة كلها باتصالات معقدة تتطلب حركة سريعة تفوق التصور وتنفث شرارات متقطعة من الطاقة الكهربية . والإنسان لا يبدى اهتماما بكثير من أنواع العلوم لأنه لا يحس بفائدتها . على عكس المبدأ الذى ينادى به مدرسو المدارس من أن الإنسان قادر على تعلم أى شىء تقريبا ، ولكنه لا يرغب فى تعلم شىء إلا إذا استطاع أن يطبق ما تعلمه فى حياته اليومية .

والثالث هو الذى يهمنى أكثر ، ذلك أن طائفة كبيرة من العلوم تجرى فى مستويات لا يمكن الوصول إليها إلا بكثير من المقدمات . إنها تستعمل فروضا لا تصادف الرجل العادى وتعبيرات عن مقاييس تفوق إدراكه . وربما كان هذا هو السبب فى عدم وجود كتب كافية — أو قريبة من الكافية — من البحوث العلمية الجيدة للرجل العادى الذى هو على أحسن الفروض هاوى علم ولكنه — فى الغالب — لم يعد الإعداد الكافى . ومع ذلك فالحاجة إلى تلك الكتب ماسة ، وكلما ظهر كتاب جديد فإنه منشط قيم للفكر مفيد كقصيدة جديدة ، أو رواية مؤثرة .

ومن حسن الحظ أنه قد ظهر أخيرا عدد كبير من الكتب العلمية التي يستطيع الرجل العادى قراءتها . وقد استمتعت بقراءتها كلها وأستطيع أن أوصيكم بها. أولها كتاب « المطالعات العلمية الأمريكية » — The Scientific American Reader الذى يضم نحو ستين مقالا تدور حول اثنى عشر جانبا من جوانب العلم دبجها إخصائيون يكتبون جميعاً بلغة واضحة مشوقة . وكذلك « العلم فى تقدم » المجموعة الثامنة ، وهى مجموعة محاضرات نشرها جورج بيتسل . كذلك اسمحوا لى أن أثنى على مجموعة بحوث تسمى « البرج العاجى المتجول » لمؤلفه ج . ا. هتشينسون.

وبينما كنت أقرأ هذه الكتب أدهشتنى كثرة أنواع الكشوف العلمية التي وجدتها ، ولكن شيئا أعمق من كل ذلك لم تتعرض تلك الكتب لشرحه بوضوح ، ذلك هو وجود نوعين من العلوم على الأقل ؛ نوعين من الاستكشافات فى العالم . فمنذ وقت قريب حين كنا ندرس هذه الموضوعات كان هناك نوع واحد من العلوم هو السائد .

ولـــكن فى الثلاثين أو الأربعين السنة الأخيرة ظهر النوع الآخر بقوة متزايدة تزداد على الأيام نموا .

فالنوع الأول من العلوم وصفى ، إنه يتناول ميدانا معينا و يدرسه على أساس فرض ثابت . قد يجد فيه مراوغة وتشابكا .ولـكن ميدان البحث يظل هو هو لا يتغير . أى إن التغييرات والتفاعلات تحدث داخل الميدان وتقع المرة تلوالمرة بطريقة ثابتة ،بينما الميدان نفسهلا يتغير . وفى كتاب « المطالعات العلمية الأمريكية» أمثلة جيدة . خذ مثلا مقالا عن لغة النحل . إنه تقرير عن تجارب قام بها العالم النمساوى الطبيعى كارل فون فريش الذى أمضى أربعين سنة يدرس النحل و يلجأ إلى الطرق التجريبية و يستعين بالأدوات الحديثة . وهكذا اكتشف بقدر ما استطاع مئات الأجيال من مربى النحل أن يكتشفوه كل بقدر الملاحظة عنده .

والمشكلة ليست عويصة . إن النحل يعيش جماعات ولـكنه يعمل أفرادا . النحل لا يطير أسرابا ولا يتحرك فى جماعات كما يعيش النمل و بعض أنواع الأسماك . فكيف إذن تتصل الواحدة منها بالأخريات؟ إننا نعلم أن ذلك ما يحدث لأنه حين تعثر نحلة ، تعمل بمفردها ، على

مصدر جديد جيد للطعام ، فإن نحلا آخر من نفس الخلية يحضر مسرعا ويتكالب على نفس المصدر . لابد إذاً أن النحلة المكتشفة قد أخبرت زميلاتها — بطريقة ما — بما اكتشفته وأين يوجد. إنها لا تقودها إلى المصدر، وليس لها لغة كلغتنا التى نتحدث بها ، وهى لا تستطيع حتى الإشارة فكيف يتأتى لها ذلك؟ اكتشف العالم فون فريتش جواب هذا السؤال (لأول مرة فى التاريخ بقدر ما أعلم) . إنه وضع كمية من سائل سكرى مركز وانتظر حتى جاءت نحلة مستكشفة، ثم راقب ما فعلته بداخل الخلية المظلمة (كان يستعمل ضوءا فوتوغرافيا أحمر لا يراه النحل) وكان الذى رآه مدهشا ، كانت النتيجة واحدة دائما . أكلت النحلة ثم طارت عائدة ودخلت الخلية . وبداخل الخلية بدأت رقصة متقنة ، أو على الأصح رقصة من نوعين . والنحل الآخر يراقبها . وبدأ يظهر اهتماما بها ويقلد حركاتها . ثم — وهذه هى النقطة الحاسمة — يطير إلى الخارج ويتجه مباشرة إلى موضع السائل السكرى . حتى إذا ما عاد إلى الخلية أخذ يرقص بدوره لتشجيع أية نحلة غير مرتبطة بعمل للانضمام إلى الوليمة . . . . وقد لاحظ فون فريتش نوعين من الرقص أحدهما دائرى يتبعه دوران عكسى ومعناه أن النحلة عثرت على مصدر طعام قريب من الخلية (على مسافة نحو ٥٠ ياردة) ، والثانى جرى

إلى الأمام وإلى الخلف متبوع بحركة دوران من المعدة ومعناه أن المصدر بعيد . ليس هذا كشفا علميا جميلا فحسب ، بل إنه ، ككثير من الاكتشافات العلمية ، ينطوى على عنصر شعرى ، لقد استمتعنا كلنا برقص الفراشة الجميل الذى يذكرنا بباليه كلاسيكى . أليس من الممتع أن نعلم أن النحل المجد العامل كلما عثر على مصدر رزق يسرع بالعودة إلى بيته ويقوم برقصة «فالس» أو «رومبا» .

هذا هو العلم الوصفى . إنه يفترض أن موضوع البحث ثابت لا يتغير فمتى وجد نحل فى خلية فإنه يتصرف — كلما عثر على مصدر غذاء جديد — بالطريقة عينها . كما أنه متى وجدت المادة المعروفة باسم الأمونيا فإنها تتكون من ثلاث ذرات من الهيدروجين وذرة من النيتروجين مرتبة على شكل هرم . وذرة النيتروجين فى القبة تتذبذب من ناحية لأخرى تحت إشعاع قوته ٢٤٠٠٠ ميجاسيكل فى الثانية . إن الزمن لا يغير النحل إذ يبدو أنه أتم دورته التطورية . والزمن لا يغير تكوين ن هـ ٣ (الأمونيا) .

ولكن لدراسة العالم طريقة أخرى . هى أن ننظر إليه كسلسلة حوادث على مر الزمن أو دراسته كتفاعل ، تفاعل لا يعود القهقرى ،

وهذا واحد من الفروق الأساسية فى العلوم . إذا غليت الماء فى وعاء ثم تركته يبرد فإنك قد جعلته يمر بتفاعل مقلوب (يعود القهقرى) . إنه نفس الماء عند نهاية التجربة كما كان عند بدايتها (اللهم إلا تسرب كمية منه على شكل بخار) . ولكننا فى كل يوم نمر بأطوار من الحياة لا تعود القهقرى أبدا ولا تتكرر بعينها أبدا . إن تاريخ حياتنا لا يمكن أن يعود إلى الخلف كفيلم يدور بالمقلوب ، أو كما يبرد الماء فى وعاء . ومثل هذا التفاعل فى الطبيعة كثير يكتشفه العلماء باهتمام متزايد ونجاح .

ففى الكيميا الحيوية مثلا اضطر العلماء أن يتحولوا إلى مؤرخين ، وأن يتوقعوا تغييرات مستمرة فى ميدانهم ، فبعض الأمراض الشديدة الأذى تنتقل عن طريق كائنات أصغر من أن ترى إلا بالميكرسكوب الإلكترونى ، يطلق عليها اسم الفيروسات . فالإنفلونزا والحصبة والبوليو (شلل الأطفال) جميعها أمراض فيروسية . وليس من السهل دراسة الفيروس والأمراض التى يسببها كما لو كانت ستبقى ثابتة إلى نهاية الزمن . فالفيروس كائن حى ، يتناسل ويتغير بالتحول الفجائى ويتطور . والفيروس الذى يسبب مرضا ليس ذابال قد يتحول فجأة ويصبح مميتا . ومن جهة أخرى فالفيروس الذى يستوطن جماعة إنسانية معينة قد يفقد مع الزمن قدرته ، لا لأنه ليس خطرا بطبعه على الجنس

البشرى ، بل لأن هذه الجماعة الخاصة من البشر أصبحت ذات مناعة ضد آثاره .

وهكذا يتحتم على العلماء دراسة حياة الجنس البشرى كجنس . أى إنه يجب عليهم أن يفسروا التطور الزمنى الذى أوصلنا إلى ما نحن عليه الآن . يصعب على أغلبنا تصور حدوث هذا التطور الأساسى من حيوان لإنسان وكيف يمكن حدوث تطور فى التكوين الجسمانى للمخلوقات المركبة . إننا ننظر إلى أنفسنا على اعتبار أننا جامدون لا متطورون . ولكن مقالات قيمة كثيرة فى كتاب « المطالعات العلمية الأمريكية » تبين بوضوح أن جميع الأجناس الحية تقريبا فيها القدرة على إنتاج أنواع أخرى مختلفة لا حصر لها . فالحشرات والطيور والحيوانات والإنسان تحوى آلاف الجرثومات المولدة (الجينات) يمكن بامتزاجها أن تكون بسهولة أجناسا جديدة تبلغ عدة ملايين . وفى بيئة متغيرة يمكن استنباط جنس جديد ينتج من امتزاج هذه الجرثومات الموروثة وقد يعيش الأصلح وينتج وبذلك يتولد جنس جديد وأخيراً أجناس جديدة . وقد رأى العلماء فى تفكيرهم على هذا المقياس أن يسقطوا من حسابهم أن الإنسان تسلسل من أصل واحد من الجدود تتسلسل به إلى الحيوانات السفلى ؛ يرون — على العكس — أنه كانت هناك فروع متعددة للجذع الذى نمونا منه فالعالم الأنثروبولوجى الاسكتلندى بروم شرح لنا كيف أنه

وآخرين – وهم يجرون بحوثهم فى جنوب أفريقيا – قد عثروا على كثير من بقايا أجناس مختلفة ليست من أجدادنا ولكن من أبناء عمومتهم. بعضها لأناس منتصبى القامة لها أيد دقيقة ، ولكن أدمغتها أصغر بشكل واضح من أدمغتنا . و بعضها لعمالقة تكبر بكثير متوسط الجنس البشرى فى هذه الأيام، فإذا وسعنا مجال التنوع المتصور أصبحت حكاية النشوء والارتقاء مقبولة و يسهل إدراكها .

ولكن أكثر هذه البحوث سحراً هو ما قد نسميه العلوم التاريخية، ونعنى دراسة الفلك . وفى كتاب «المطالعات العلمية الأمريكية » خمسة موضوعات ممتازة ، كما أن فى سجل « العلم والتقدم » موضوعين آخرين وكلها تؤكد الفكرة نفسها وهى أن حياة النجوم يجب أن ننظر إليها على أنها تفاعل تاريخى (زمنى) . ونحن فى هذا الأمر نقترب — أكثر من أى موضوع آخر — من النظرة الإلهية ، ففى الدراسات الأخرى نرى الحاضر ونتذكر الماضى ونحاول التنبؤ بالمستقبل . أما فى علم الفلك فإننا نرى الحاضر والماضى وحتى المستقبل فى نفس الوقت . إننا نعيش فى كوكب يدور حول نجم متوسط الحجم . و بملاحظتنا لنجوم أخرى مثله نستطيع أن نعيد بناء مستقبل الكوكب الذى نعيش فيه . إن نجمنا جزء من جزيرة كونية

ونستطيع أن نرى باقى أجزاء جزيرتنا فى أية ليلة صافية . إنها المجرة ـ أو درب التبانة ـ عرضها مائة ألف سنة ضوئية ولكننا نستطيع أن نرى على البعد مجرات أخرى وجزرا كونية أخرى، وبدراستنا لها ومقارنة تكوينها وتصرفاتها بالمجرة التى نسكنها نستطيع أن نحدد ماضى مجرتنا ونبدأ فى رؤية مستقبلها . وفى مقدورنا أن نراقب النجوم الصغيرة والنجوم البالغة والنجوم التى شاخت؛ بل إنه توجد نجوم ماتت وهى مع ذلك تتحدث، إنها بقايا أنجم متوهجة هائلة انفجرت واختفت ، وإن كانت لاتزال تنفث موجات مشعة . تلك هى أشباح الفضاء .

كل ذلك يصعب فهمه ولكن تنبثق منه مع ذلك حقيقة واضحة هى أن الزمن عنصر أساسى فى عالمنا . وأى تفسير يسقط الزمن من حسابه لا يمكن أن يدعى أنه تفسير صالح . ويعد برجسون أول من أكد هذه الحقيقة إذ قال إن أغلب النظم الفلسفية فشلت لأنها كانت ثابتة جامدة : مجموعات من المعادلات ونظريات غيبية لا أول لها ولا آخــر ، وهى ما أسماه برادلى « باليه من أجناس ليس فى عروقها دم » . فقد أهمل الفلاسفة حقيقة أساسية لاتتعلق بوجود الإنسان فحسب ، بل بحياة الكون كله وهى التغيير المستمر المدهش غير المتوقع . وحتى العلم بدأ فى بعض الأحيان يشل عالمنا ويقتله ويجعله غير

حقيقى بوضعه فى إطار منظم مهندم لا دخل للزمن فيه . ولـكننا نسعى الآن لفهم عملية التغيير والنمو الأزلية . ويكاد يكون من المستحيل أن نقرأ عن أحدث الاستكشافات العلمية دون أن نشعر باثنين من أهم المشاعر الإنسانية : التعجب والأمل .

G. E. Hutchinson, The Itinerant Ivory Tower (Yale, 1953).

Science in Progress, 8th Series (ed. George A. Baitsell, Yale, 1953).

The Scientific American Reader (Simon and Schuster, 1953).

C. R. Ribbands, The Behaviour and Social Life of Honeybees (Hale Publishing Co., 1954).

الهرب

من أفزع الأمور فى هذا القرن العشرين كثرة المحكوم عليهم بالنفى أو السجن . ربما تكون القرون السابقة قد شهدت عددا من اللاجئين يقارب عددهم الآن . ولكن ندر أن وجد — إن كان قد وجد فى تاريخ الإنسانية — مثل هذا العدد من الناس خلف أسوار أو قضبان أو جدران من الحجر ، فإن مئات الآلاف من الناس فى أوربا ممن كانوا وهم فى المدارس أو الجامعات ، يجفلون من مجرد فكرة زيارة سجن ، وجدوا أنفسهم بعد ذلك من نزلاء معسكرات الاعتقال وقضوا فيها سنوات أو ماتوا أو قتلوا فيها . كانت سجون الأراضى الروسية الآسيوية — فى أيام أجدادنا — تضم بضعة آلاف ، أما الآن فعددهم يبلغ الملايين . وفى الحرب العالمية الأخيرة سيق عدد كبير لم يسبق له مثيل من الجنود والمدنيين فى شرق العالم وغربه إلى مختلف أنواع السجون ، ليفرج عن بعضهم فى الوقت المناسب ويستبقى آخرون إلى نهاية الحرب ولينجح بعضهم فى الهرب .

وقد ظهرت كتب جميلة عن وسائل الهرب بعضها يصف مغامرات حديثة وبعضها يحيط بجانب كبير من التاريخ . ويتبين الإنسان من

قراءتها أن الهرب من السجن يتطلب صفات جسمانية وعقلية . فما هى تلك الصفات التى يتطلبها الهرب المثالى !

لكى ينجح إنسان فى الهرب من السجن يحتاج أولا وقبل كل شىء أن يثق بنفسه ثقة فائقة ، فالظروف تعاكسه لدرجة استحالة النجاح إذا تصرف كما كان يتصرف فى حياته العادية .. تصرف الرجل العادى .. لهذا ينبغى له أن يعتقد فى نفسه أنه إنسان غير عادى ، محظوظ حظا فريدا ، ماهر لدرجة الإعجاز ، وأنه . . نوع من الأبطال . واكتسابه لهذه الثقة المشجعة أمر هين لأن وجود الإنسان منفردا فى زنزانة يجعله يركز أفكاره حول نفسه . فإذا كان مسجونا مع آخرين فإن عدد الذين يفكرون فى الهرب ويصممون عليه قليل جدا نسبيا ، لذلك يحق لمن يفكر فى الهرب أن يشعر بأفضليته .

ومن أشهر مغامرات الهرب مغامرة البندقى الفاجر النصاب الذئب الوحيد « كازانوفا » . فقد حبسه رجال التفتيش فى سجن من أصعب أنواع السجون : زنزانة فى الطابق العلوى من سراى الدوق بالبندقية . لم يكن يتطلب هروبه أن يتسلق جدارا أو يخرج سيرا كغيره من المسجونين ، بل كان عليه أن يهبط إلى أسفل . وعلى ذلك بدأ يثقب أرضية الغرفة

تحت سريره واستطاع أن ينفذ من طبقتين من الخشب السميك فوجد تحتهما سقفا ثانيا من الأسمنت وشظايا المرمر نفذ كازانوفا خلاله أيضا. وبينما هو على وشك أن يفتل حبلا من أغطية السرير ليتدلى به للغرفة السفلية صدر قرار بنقله من الزنزانة إلى زنزانة أخرى أكثر اتساعاً . . زيادة فى راحته .

وكان عليه أن يعيد من جديد كل ما عمله . ولسوء حظه اكتشف الحراس الثقب الذى كان قد أحدثه فى أرضية الزنزانة الأولى ، فأصبحوا يفتشون جميع أجزاء زنزانته الجديدة يوميا حتى استحال عليه الحفر مع أنه كان قد احتفظ بالعمود الحديدى الذى استعان به أولا . إلى هنا وكان اليأس يتغلب على أكثرنا ولكن كازانوفا ازداد إصرارا . . وراده الغضب ثقة بنفسه . فبحث عمن يقوم بالحفر نيابة عنه . وبدأ بتبادل الكتب مع أحد المسجونين فى زنزانة ملاصقة ..وكان راهبا يدعى « بالبى » . كان كازانوفا يكتب على الصفحات البيضاء من تلك الكتب رسائل بحبر سرى (عصير التوت ويستعمل ظفره المدبب). ونجحت الرسائل فى إقناع « بالبى » فى أن يثقب زنزانته وينتقل بين طبقات السقف حتى يصل إلى زنزانة كازانوفا . وكان كازانوفا قد أرسل لمعاونته العمود الحديدى مخبأ فى صحن من المكرونة ووعد

« بالبى » بأن يقوده وزميله آمنين إلى خارج السجن . . ليغريه بالعمل معه . فانظروا إلى قوة الثقة . واعترضت كازانوفا صعوبة جديدة . . لقد وضعوا معه مرشدا يقاسمه زنزانته ولكن كازانوفا نجح فى اللعب بعواطف المرشد الدينية وجعله يعتقد أن ملكا من السماء سوف يهبط عليهما من سقف الغرفة . وإذا خامركم أى شك فى ذلك فاذكروا أن فى الحرب العالمية الأولى استطاع ضابط بريطانى أن يقنع سجانا تركيا أنه على اتصال بالأرواح ، وأن باستطاعته أن يكتشف كنوزا ضخمة مخبأة ، وأن الفوضوى الروسى « نيشاييف » جعل حارسه بل ومدير سجنه يعتنقان مذهبه .

وكان على كازانوفا أن يخترق سقف القصر، ويقطع طريقه متعرضا للآلام والأخطار، وينزل إلى نافذة غرفة بعيدة عن مبانى السجن الأصلية، ثم يهبط الدرج مخترقا القصر حتى يبلغ الساحة، ثم يخترق الميدان العام، ويركب جندولا ، وأخيراً يعبر الحدود . وكان شريكه «بالبى» المسكين لايكف طوال الوقت عن البكاء والشكوى والقول بأن المغامرة مستحيلة النجاح. ولكن كازانوفا سيطر عليه وبذلك حفظ على نفسه الحياة وكسب حريته عن طريق ثقته اللامحدودة بنفسه . وكان بعد ذلك يرفض أن يروى قصته لأحد، حتى ولو كان دوقا، إلا إذا ضمن أن ينصت إليه من غير مقاطعة

ساعة أو تزيد . وكان إيمانه هذا بقدرته هو الذى جعل منه مقامراً ناجحاً ومغامراً خطيرا .

وتجىء فى كل محاولة هرب لحظة يجب فيها على الهارب أن يغامر بكل شىء دون أى تردد . عند ذلك تكون الثقة بالنفس هى الشىء الوحيد الذى يمكنه الاستناد إليه . وعندما أسر البوير ونستون تشرشل — فى شبابه — قفز من فوق جدار سجنه واختبأ فى الحديقة ، وكان عليه أن يمر من أمام أحد الحراس .

وفى ذلك يقول :

بدا الفشل محتوما . ولم يؤثر فى مع ذلك أن الظروف كلها لاتبشر بالنجاح . فالتعرض لجميع المخاطر كان أفضل من قبول الواقع . . وقلت لنفسى « الجرأة دائما » ووضعت قبعتى فوق رأسى ومشيت فى وسط الحديقة ومررت من أمام النوافذ . . . من غير أن أحاول الاختباء . وهكذا مررت من البوابة على مسافة أقل من خمس ياردات من الحارس ... ولا أدرى إن كان نظر إلى أم لم ينظر ، لأننى لم أحاول أن أدير رأسى ... وقاومت بشدة الرغبة الملحة فى الجرى . وبعد أن سرت نحو مائة ياردة من غير أن أسمع أمراً بالوقوف أدركت أننى تخطيت العقبات ... وأصبحت حراً .

تلك إذا أولى الصفات المطلوبة للهرب من السجن . ثقة كاملة بالنفس .

والصفة الثانية (المتشابكة مع الأولى) هى أن يتملكك شعور طاغ باحتقار أو كره سجانيك . وكان هذا هو الهدف من الحيل التى كان الأسرى الأمريكان والإنجليز يلجأون إليها مع سجانيهم من الألمان حتى لا يجعلوهم يتسلطون عليهم . ولكن ذلك ليس ميسورا مع سجانين لا يحترمون اتفاقية جنيف من أمثال اليابانيين والصينيين والكوريين الشماليين الشيوعيين فى الزمن الأخير والألمان فى معتقلاتهم السياسية لا معتقلات أسرى الحرب . (ومن الأمور المحزنة فى كتاب الدكتور كوهين عن المعتقلات وصفه لما أسماه « النكوص » وهو عملية تحويل المسجونين لا إلى حيوانات ، بل إلى أطفال فى عاداتهم وأحلامهم — وما هو أسوأ من ذلك — فى نظرتهم لسجانيهم . وهو يؤكد أن غالبية المسجونين لم يكونوا كارهين لحراسهم حتى بعد الإفراج عنهم . ولم يخطر على بالهم الهرب من المعتقلات لوقوعهم تحت سيطرة سجانيهم .

والصفة الثالثة التى قد نظنها ضرورية لمن يفكر فى الهرب، والتى لم تعد

حيوية (كما ظهر من اعترافات من هربوا بنجاح) هى معرفة لغة السجانين والبلاد المحيطة . إنها تساعد ولكن كثيرين نجحوا بدونها . فالبريجادير « هارجست » خرج من معتقل خاص بإيطاليا متخفيا فى لباس عامل طاعن فى السن وقفز إلى قطار قاصداً ميلانو. وكان ضابط بوليس حربى إيطالى يجلس إلى جانبه وأخذ يوجه إليه الحديث وكان هارجست قد أعد للأمر عدته وتعلم جملة إيطالية واحدة قالها له همساً « آسف لأننى أصم جداً » . ونجحت الحيلة . وتظاهر هاربون آخرون وقعوا فى نفس الحرج بأنهم سكارى أو ضعاف العقول . وقال كثيرون : إن الأمر كان ثقيلا على نفوسهم لا لأن التظاهر كان صعبا ولكن لأن من الصعب احتمال ازدراء الجانب الآخر وسخريته ولو فى سبيل الإفلات منهم .

ويلى ذلك أربعة أو خمسة مطالب فنية ، تذكر دائما بالترتيب نفسه :

أولا — الملابس . لأن الأسرى العسكريين يبقون دائما بملابسهم العسكرية . ولا بد من التخلص منها . فى حين أن المعتقلين الآخرين يرتدون ملابس السجن الشنيعة التى يسهل تعرفها (تلك الملابس المخططة الخاصة بمعسكرات الاعتقال أو الملابس الفضفاضة الكريهة) . ولا بد

للهرب من ارتداء ملابس تبدو خارج المعسكر شبيهة بملابس السكان العاديين . ولكن الخروج بهذه الملابس من المنطقة الخطرة صعب أحياناً ولا بد إذاً من نوعين من الملابس فى نفس الوقت . وكثيراً ما نجح أسرى الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية فى تقليد الملابس العسكرية الألمانية والخروج بها من المعسكرات الألمانية ، مستغلين احترام الجندى الألمانى الشديد لكل ما يشبه ضابطا . وتكاد الحيل التى اتبعوها لا تدخل العقل . خذوا مثلا هـ. ا. كارترايت وصديقه هاريسون . لقد أعدا ملابس عسكرية ألمانية من معطفين إنجليزيين بأن غيرا أزرارها ، وأضافا إليهما نجوما وأرقاماً ، وخاطا شريطين من الحرير فوق الكتف ، وزورا شارة للقبعة من أزرار وورق مفضض أضافاه إلى غطاء رأس مناسب ، ثم اشتريا أحذية بحجة استهلاك أحذيتهما ، ونحتا سيفين وجرابين من قطع من خشب صناديق الطعام ، ثم ارتديا ملابسهما كاملة وحملا حزما من الطعام مخبأة واخترقا المعسكر حتى اقتربا من البوابة . ولم يبد الديذبان أية حركة ، بل نظر إليهما — وقد يكون وجد منظرهما غريبا — ولكنه لم يتصور أن شيئا ما يشبه ضابطا ألمانيا يمكن ألا يكون ضابطا ألمانيا ، فوقف جامدا ورفع كارترايت إصبعه — يائساً — فى شبه رد

تحية . وقفز الديدبان إلى الباب وفتحه ووقف تعظيماً ، وسار الهاربان المتنكران على مهل يردان على تحيات أخرى فى الطريق وتابعا المسير ببطء لأن أحدهما كان يعرج و يحدث أصواتا رنانة . . . . فقد تزحلقت إحدى علب البسكويت و نزلت إلى رجل بنطلونه . ومع ذلك نجحا . وبعد خمس دقائق وصلا إلى حديقة أبدلا فيها ملابسهما وتخفيا فى ثياب العمال . . . وبعد ساعتين أغرقا الملابس العسكرية المزيفة فى قاع إحدى الترع .

الملابس أولا ، و بخاصة أحذية صالحة للسير أميالا عديدة . ثم خريطة وبوصلة أو مقدرة على تحديد الاتجاه عن طريق الشمس والنجوم . وهذه عادة ليست ميسورة لسكان المدن الذين يسيرون فى الشوارع أو يركبون المترو . إلا أنهم من جهة أخرى أقل عرضة لأن يضلوا الطريق فى المدن الكبيرة التي يضطرون لاختراقها محاطين بالأعداء . ثم الطعام طبعا ... ومجرد وجود أى شىء يمضغه الهارب يبعد عنه شعور الخوف من الموت جوعا فى الساعات القليلة المقبلة . ويكاد الأسرى الهاربون يجمعون على أن تفكيرهم كان يتجه دائما إلى الطعام . ونحن نعرف الآن أن الأكل ليس مصدر للنشاط الجثمانى فحسب ، ولكنه كذلك وسيلة لتهدئة الأعصاب .

وصفة أخرى تعين الهارب ، هى أن يكون مرحا ، لأن المنتظر أن تعترضه أمور تدعو إلى الغيظ فقد يلف طول الليل فى دائرة ويجد نفسه فى الصباح فى الموضع الذى بدأ منه من سبع ساعات . أو قد يقفز إلى قطار يظنه متجها إلى الحدود فإذا به يبعده عنها . فإذا استطاع أن يتقبل ذلك ضاحكا ، ولو فى سريرة نفسه ، كان ذلك أفيد له . ولكن هذا لا يحدث دائما . ومن الأسرى — مثل ريتشارد پيب — من فضحوا أنفسهم بما ظهر عليهم من انفعال أو ما أبدوه من ألاعيب بهلوانية ، وآخرون — كالبولنديين — الذين فروا من الألمان والروس ورأوا من الفظائع ما أفقدهم القدرة على الضحك .

وصفة أخرى نادرة أفادت كثيرا فى تيسير الهرب ، هى المقدرة على اكتساب عطف النساء ؛ فالنساء لا يحاربن ، وتكاد كل امرأة فى العالم تكره الحرب سرا أو علانية ، وترفض العداء الدائم الجاثم على قلوب كثير من الرجال . ويقول الأسرى الفارون المرة بعد المرة إنهم وهم يجتازون مناطق معادية أو محايدة يتعرضون لمطاردة الرجال أو على أحسن الفروض تجاهلهم . أما النساء فكن يعطفن عليهم ويطعمنهم ويمرضنهم و يعرضن عليهم حبهن . ولقد كاد ريتشارد پيب يموت لو لم يجد من تمرضه وترده للحياة فى دير بولندى . ووقعت فتاة ألمانية فى غرام جندى يدعى دود

وقدمت له ملابس مدنية وساعدته على الهرب مع ما فى ذلك من هجرلها ؛ لأنها كانت امرأة أولا ، وألمانية ثانيا . وفر أسير من معسكر يابانى ووصل إلى إحدى القرى ، وهناك وقعت فى حبه فتاة صينية جاوية جميلة فتزوجها وأقام معها بينما أخذ والدها زميلين له وعبر بهما المضيق إلى سومطرة .

وأغرب هذه الحكايات واقعة هروب « روى فاران » من مستشفى سجن يقع قرب مدينة أثينا . انتهز لحظة عدم انتباه وفر . و بعد دقائق معدودة تولت أمره فلاحة عجوز ، أرته أين يبدل ملابسه ، وقادته إلى منزل أمين . وسرعان ما أخذ الزوار يتوافدون حاملين الهدايا ، وملأوا جيوبه بالسجائر ، وقدموا له صحفة كبيرة من الطعام ، وأخذوا يقبلونه و يرقصون رقصا مرحا حوله . ثم جاءوه بفتاة جميلة أخذوا يشيرون إلى مختلف محاسنها وشرحوا له أنها فقدت زوجها فى ألبانيا ، واقترحوا أن يعتبر نفسه قد تزوجها لساعته . ولكنه كان إنجليزيا فاعترض على هذه السرعة (وخاصة أنها كانت بعين واحدة) ومع ذلك فقد جعله هذا التصرف يحس بأنه قد عاد إنسانا .

وأخيرا بقى الشىء الذى يتحتم على كل هارب وكل مسجون أن يسيطر عليه ، هو أن يكون له هدف يفكر فيه ، وغرض يسعى إليه . لقد كان أسوأ ما فى معسكرات الاعتقال قلة الذين بقوا على قيد الحياة

من غير أن يصابوا فى عقولهم : وهم أصحاب المعتقدات الراسخة الذين لم يعيشوا يوما بيوم ووجبة بوجبة ، بل عاشوا لشىء آخر . وليس من المحتم أن يكون هدفهم سامياً أو عالياً . فقد كان هدف كازانوفا لا يعدو الرغبة فى إثبات أهميته الشخصية أو قدرته الجنسية . وأحيانا يكون الهدف الرغبة فى الانتقام . وغالباً مايكون إحساسا حزبيا ، أو وطنيا ، أو شعورا بالواجب العسكرى . ولكن لامفر من وجود هدف . وهذا هو المعنى العميق فى الوجودية وأغلب الفلسفات الجيدة : إرادة الحياة ، إرادة البقاء ، ليس الهرب ، وإنما الانتصار على السجانين والمعذبين ، وتحويل الهزيمة إلى نصر ، والعجز إلى حرية . إن الشجعان والعقلاء هم وحدهم الأحرار .

Paul Brickhill, Escape or Die (Norton, 1952).

Elie Cohen, Human Behavior in the Concentration Camp (tr.M. H. Braaksma, Norton, 1953).

Basil Davenport, Great Escapes (Sloane, 1952).

Heinrich Harrer, Seven Years in Tibet (tr. Richard Graves, Dutton, 1954).

Richard Pape, Boldness Be My Friend, (Houghton Mifflin, 1954).

Eric Williams, the Book of Famous Escapes (Norton, 1954).

تأليف جلبرت هايت
ترجمة حسن الجداوى
مراجعة مصطفى طه حب



كاتب من أكسفورد

تأليف : جلبرت هايت ترجمة : حسن ا

سى

الأحاديث التى ألقاها
ة . وقد لقيت هذه
تمعين . ثم قام المؤلف
مادتها ، حتى جاءت
صافيا ينم عن اصالة
ـوار الموضوعات التى

أولها : فنون الشعر ،
: الخيال والحقيقة .
لكتاب حديثا شائقا عن
الخلف نحو حاضرنا »
... ويحدثنا فى القسم
لما أثير حولها من جدل
لشاعر والموسيقى » ...
ـا جادا فى موضوعات
فى العلم » .
بين القراء الأمريكيين،
رفوه بكتابه «فن التعليم»
لا لا نظير له بين طوائف
كما عرفوه بكتاب آخر
روت العقل »

سنة ١٩٦٣
لؤة بالفجالة